

the further adventures of

# شيرلوك هولمز



# المحقق الملثم

ديفيد ستيوارت ديفيز

ترجمة : أحمد ملاح المهدي

Kayan
كيان
KAYAN PUBLISHING

# شيرلوك هولمز

# المُحقق المُلثَّم

المغامرات الجديدة لشيرلوك هولمز / المُحقق المُلثم

رواية / ديفيد ستيوارت ديفيز.

ترجمة : أحمد صلاح المهدي.

القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2021.

302 صفحة، 20 سم.

تدمك : 978-977-820-092-8

-1 القصص الأمريكية

أ- صلاح، أحمد (مترجم)

ب- العنوان : 823

رقم الإيداع : 11430 / 2021

الطبعة الأولي : يونيو 2021.



---

كيان للنشر والتوزيع

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

This translation of THE FURTHER ADVENTURES OF SHERLOCK HOTMES – THE VEILED DETECTIVE, first Published in 2021, is published by arrangement with Titan Publishing Group Ltd

4 ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني– الهرم

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01000405450 - 01001872290

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

# المغامرات الجديدة لـشيرلوك هولمز

# المُحقق المُلثَّم

ديفيد ستيوارت ديفيز

ترجمة

أحمد صلاح المهدي

**هذا الكتاب إهداء لذكرى صديقي العزيز توني هوليت.**

“لم أدفعك إلى حدودك القصوى قط يا واطسون، هناك إمكانيات غير مطروقة بعد فيك”.

شيرلوك هولمز في مصاص دماء ساسكس

## -١-

## أفغانستان، مساء ٢٧ يوليو ١٨٨٠

تعلَّق القمر المُكتمل في السماء كطيف مُتفرج فوق المُعسكر البريطاني، حمل نسيم الليل الدافئ صيحات المُحتضرين والجرحى الخافتة إلى الصحاري القاحلة البعيدة. جرَّ جون ووكر قدميه خارجًا من خيمة المستشفى، ووجهه مُلطَّخ بالدم الجاف والعرق. لوهلة طوَّح برأسه للوراء وحدَّق إلى السماء الشاسعة المُمتدَّة الخالية من النجوم، كأنما يبحث عن إجابة، عن تفسير، لقد فقد للتو رفيقًا آخر من رفاقه. وفشل حتى الآن في إنقاذ ستة رجال جرحى على الأقل، لقد توقف عن العد، وبحق السماء ما الهدف من حساب هذا العدد الصغير على أي حال؟ لقد مات مئات من الجنود البريطانيين في هذا اليوم على يد المُقاتلين الأفغان، وتفوقت قوات أيوب خان عليهم في العدد، وطوَّقتهم ودحرتهم في تلك المعركة الكارثية في مايواند. لقد مرَّغ رجال القبائل الماكرون هؤلاء العلم البريطاني في تُراب الصحراء. سقط ثلث السَّرِيَّة تقريبًا، ولم يحمِ القوات البريطانية من الإبادة التامة إلا إحجام الأفغان عن مواصلة المذبحة، كان النصر من نصيب أيوب خان. لقد حقق غايته، ترك الناجين ينقلون الأخبار عن قوته التي لا تُقهر.

كان الانسحاب غير المنظم هو الحل الوحيد بالنسبة للبريطانيين، لقد تراجعوا إلى الصحراء ليلعقوا جراحهم وليعرجوا عائدين إلى قندهار، كانوا مضطرين لترك جثث قتلاهم متناثرة في الأراضي القاحلة لتصير فريسة للنسور والحيوانات المُفترسة.

كان ووكر يشعر بتعبٍ وغثيانٍ شديدين، بشكلٍ لا يسمح له بالشعور بالغضب أو الألم أو الإحباط، كل ما يعرفه هو أنه قد تلقَّى تدريبه ليصير طبيبًا، لهدفٍ واحد وهو أن يُنقذ الأرواح. لم يكن ليُشاهد أوجه الشباب الشاحبة الدامية تتلوى في ألم، وأعينهم تُغلق تدريجيًّا بينما الحياة تنحسر بعيدًا عنهم، وهو يقف إلى جوارهم يُشاهد الجروح الغائرة تلفظ أحشاءهم.

كان بحاجةٍ إلى شراب، فانحنى عائدًا إلى خيمته وأمسك بحقيبته الطبية، لا يزال هناك ثلاثة رجال جرحى راقدون على الأسِرَّة البدائية، ولكن لا يوجد أي قدر من الرعاية الطبية يُمكنه أن يُنقذهم من ملك الموت. أحسَّ بتأنيب الضمير لوجوده بجوارهم، كان قد أعطى تعليماته لمُساعده كي يُعطيهم

جُرعات كبيرة من صبغة الأفيون لتُساعدهم على تخفيف الألم حتى يلقوا مصيرهم المحتوم.

لم يلتقِ ووكر بأي ضابط آخر أثناء سيره ناحية طرف المعسكر الذي كان في حالة سيئة، بالطبع لم يتبقَّ منهم سوى القليل. العقيد ماكدونالد الذي كان مسئولًا عن المُعسكر قُطِعَ رأسه بنصلٍ أفغاني في بداية المعركة، أصبح النقيب أليستير ثورنتون مسئولًا الآن عن البقايا المُمزقة لسرية بيركشاير العسكرية، لا شكَّ أنه الآن في خيمته يُضمد جراحه، لقد أُصيب في كتفه برصاصة بندقية جيزايل تسببت في كسر العظم.

ما إن خرج ووكر من المُعسكر حتى تهاوى جالسًا عند جذع شجرة يابسة، مُريحًا ظهره على اللحاء الخشن، ثم فتح حقيبته الطبية وأخرج زجاجة براندي، انتزع سدادتها الفلِّينية واشتم رائحة فوهة الزجاجة، تاركًا الأبخرة الكحولية تتصاعد إلى أنفه، ثم تردد.

شيء في أعماق ضميره جعله يتوقف، لم يكن هذا الطبيب العسكري يعرف أنه يواجه لحظة مصيرية حاسمة، كان على وشك أن يفعل شيئًا سيُغير مسار حياته إلى الأبد. عقد حاجبيه ونفض الأفكار المُظلمة المُبهمة من عقله وأعاد انتباهه إلى الزجاجة.

كانت الأبخرة المُغرية قد لعبت دورها، لقد وعدته بالراحة والنسيان، رفع الزجاجة إلى فمه وتناول جرعة كبيرة. سالت النار عبر حلقه نحو حواسه، وخلال لحظات أحسَّ بجسده يهدأ ويسترخي، والتوتر بداخله يذوب مع حرارة البراندي. تناول جُرعة أخرى فتضاعف التأثير، لقد عثر على مهربه من حرارة الجو والدماء وصرخات الألم ومشاهد الذبح؛ مهرب مريح. تناول المزيد من الشراب، وفي غضون عشرين دقيقة فرغت الزجاجة وصار جون ووكر يُحلق في حُلم ثمل سعيد، كان يُحلق مُبتعدًا عن الحياة التي يعرفها، مُبحرًا على غير هدى نحو مياهٍ عاصفةٍ مجهولة.

أحسَّ ووعيه يعود إليه لاحقًا بعد عدة ساعات بألمٍ حاد مُفاجئ في ساقه، لقد عاد مُجددًا، ومجددًا. أجبر نفسه على فتح عينيه، فأحس بضوء الشمس الحارق يتسلل إليهما، شظايا من الضوء الأصفر اخترقت عقله، أغلق عينيه على الفور مُعانقًا الظلمة مرة أُخرى. أحسَّ مُجددًا بالألم في ساقه، هذه المرة مصحوبًا بصوتٍ حاد: «ووكر! استيقظ، عليك اللعنة!».

تعرَّف على الصوت، إنه صوت النقيب ثورنتون، فتح عينيه مُجددًا ببعض المجهود ولكنه فعلها هذه المرة ببطء أكثر ليسمح للوهج أن يتسلل برفق

دون أن يعميه، رأى هيئة ثلاثة أشخاص واقفين أمامه، كظلالٍ أمام سماءً فجر أفغانستان الزرقاء الزاهية، ركل أحدهم ساقه في عُنف محاولًا إيقاظه.

صاح الظل الواقف بالمنتصف، الذي يضع يده في حمَّالة كتف ملطخة بالدماء: «ووكر، أيها الخنزير الخسيس!». كان هذا ثورنتون الضابط المسئول.

حاول ووكر أن ينهض على قدميه ولكن جسده الذي كان تحت تأثير الكحول رفض أن يُطيعه.

قال ثورنتون: «فلتساعداه على النهوض».

أمسك الجنديان بووكر وجذباه ليقف على قدميه، بيده السليمة دفع ثورنتون بزجاجة البراندي الفارغة أمام وجهه، لوهلة ظنَّ ووكر أن النقيب سيضربه بها.

صاح ثورنتون مُتألمًا في غضبٍ عظيم: «تسكر أثناء تأدية الخدمة يا ووكر. لا بل الأسوأ من هذا بحق السماء، تسكرُ بينما الجنود رفاقك في أمسّ الحاجة لاهتمامك، لقد تخليت عنهم.. تركتهم ليموتوا بينما أنت.. أنت ذهبت لتسكر، يجب أن أُطلق عليك النار من أجل هذا، ولكن إطلاق النار سيكون رحمة بك، أُريدك أن تعيش.. أن تعيش مع عارك».

حاول ووكر أن يشرح ولكن الكلمات خرجت بصورة فظة متلعثمة: «لم يكن هناك شيء يمكنني أن أفعله لهم، لا شيء أستطيع أن...”.

ألقى ثورنتون بالزجاجة إلى الرمال وقال: «أنت تُثير اشمئزازي يا ووكر، أنت تعرف أن هذه جريمة عسكرية، وصدقني سأحمل على عاتقي مهمة أن أراك موصومًا بالعار ومطرودًا من الجيش”.

أحس ووكر أنه لا يجد ما يقوله، ولكن عقله الضبابي بدأ يستوعب أنه قد ارتكب خطأً كبيرًا، خطأ سيُغير حياته.

**لندن، ٤ أكتوبر ١٨٨٠**

قال آرثر سيمز: «هل أنت واثق أن باستطاعتنا أن نثق فيه؟»، ثم نَشَقَ وهو يومئ برأسه ناحية هيئة الرجل الواقف عند الطرف الآخر من الزقاق أسفل ضوء مصباح الغاز المُتراقص.

ابتسم بادجر*جونسون وأومأ برأسه، هكذا يُطلَقُ عليه بسبب الخط الأبيض الواضح الذي يمر من خلال منتصف فروة شعره السوداء، ثم قال: «أجل، إنه ساذج بعض الشيء، ولكنه سيؤدي المهمة المطلوبة منه، ولو تسبب في أي مشكلة...”. توقف ليخرج شفرة حلاقة مستقيمة من جيبه، فانفتحت الشفرة على الفور وهي تشق الهواء بصوت حفيف، ثم أكمل: «سوف أذبح حلقه، أليس كذلك؟».

لم يبدُ الانبهار على آرثر سيمز، الذي قال: «أين عثرت عليه؟».

“أين برأيك؟ في حانة البجعة السوداء. لا تقلق، لقد رأيته هناك من قبل، ورأيته يُجري بعض التحريات، وكان بارعًا للغاية في هذا، كما أنه قضى بعض الوقت في سجن وانزوورث، ويُسعده أن يَقوم بدور المُراقب مُقابل خمسة جنيهات ذهبية».

“ما الذي قُلته له؟”.

“بالكاد أي شيء. ماذا تظنني؟ قُلت له إننا سنقتحم بيتًا صغيرًا في هانسون لين ونحتاج إلى مُراقب، لقد لعب هذا الدور من قبل».

---

* بادجر: أي الغرير، هو حيوان ينتمي إلى فصيلة ابن عِرس يتميز بخط أبيض يمر بمنتصف فرائه الرمادي.

نَشَقَ سيمز مُجددًا وقال: «أنا لست واثقًا، أنت تعرف تمامًا مثلي أن الرجل سيتحقق منه بنفسه قبل أن يستخدمه، لو حدث شيء خاطئ فسنُذبح جميعًا.. أو الأسوأ».

قهقه بادجر في مرح ثم قال: «أنت خائف، أليس كذلك؟».

«إنه الحذر، هذا كل شيء، هذه عملية كبيرة بالنسبة لنا جميعًا».

«والغنائم ستكون رائعة للغاية وما إلى ذلك، لا تقلق، إن كنت حذرًا إذن فأنت تعرف أنه من مصلحتنا أن يكون لدينا مُراقب صغير يُبقي عينيه مفتوحتين على اتساعهما. بغض النظر عن مدى تخطيط الرجل لهذه الرحلة الصغيرة فكلانا من يضع رأسه في حبل المشنقة».

اقشعر جسد سيمز مع هذه الفكرة ثم قال: «حسنًا، لقد أقنعتني، ما اسمه؟».

قال بادجر: «جوردان، هاري جوردان». ثم أعاد شفرة الحلاقة إلى جيبها المُخصص، وفتح غطاء ساعته قبل أن يقول: «حان الوقت لنقوم بدورنا».

قهقه بادجر والمُفتاح ينسل بدقة إلى داخل القفل وقال: «إنها بالكاد جريمة إن كان باستطاعتنا الدخول بهذه البساطة».

دفع آرثر سيمز شريكه وهمس: «هيا بنا، فلندخل». ثم التفت إلى الشخص الواقف بالقرب منهما وقال: «حسنًا يا جوردان، أنت تعرف ما يجب عليك فعله».

أدى هاري جوردان تحية عسكرية ساخرة.

ما إن دلفا إلى المبنى حتى أشعل بادجر المصباح الزيتي الذي يحمله وبدأ يتفحص الخريطة، ثم تمتم قائلًا: «الخِزانة في المكتب في الطابق الثاني بعيدًا في الطرف الآخر، أعلى سُلَّم حلزوني». كان يحفظ هذه المعلومات عن ظهر قلب، ولكنه قالها ليُطمئن نفسه الآن وقد تحولت النظرية إلى تطبيق عملي.

قطع الرجلان طريقهما عبر المبنى الصامت، وشعاع المصباح الأصفر الرفيع يشق طريقه عبر الظلمة أمامهما. سقط الضوء على بيت الدرج المعدني فلمحا عائقًا على الأرض أسفلهما تمامًا؛ جسدًا هامدًا لرجل أصلع.

انحنى آرثر سيمز على ركبتيه بجواره وقال: «الحارس الليلي، غارق في نومٍ عميق، لقد شرب شايًا مخصوصًا هذه الليلة». ثم رفع جفنه لينظر إلى بياض عينه وقال: «لن يُزعجنا بعد الآن يا بادجر، أعتقد أنه سيستيقظ في موعد الإفطار بصداع شديد».

قهقه بادجر، كان كل شيء يسير حسب الخطة. ما إن صعد الرجلان السُّلَّم حتى اقتربا من الحجرة التي تحتوي على الخِزانة. أخرج بادجر سلسلة المفاتيح من جيبه مُجددًا وأدخل مفتاحًا في القفل، فانفتح الباب بسهولة. سُرعان ما سقط ضوء المصباح على خِزانة سميث أندرسون المهيبة، خِزانة ضخمة حديدية لا يُمكن اختراقها، كانت في طول رجل ووزنها يُقارب الثلاثة أطنان، كان الرجلان يعرفان بناء على خبرتهما السابقة أنه لا يُمكن الولوج إلى هذه الخِزانة إلا باستخدام المفتاح، أو بالأحرى المفاتيح، كانت تتطلب

خمسة مفاتيح. سيحتاج الأمر بالتأكيد إلى جيش صغير لتحريك هذه الخِزانة العملاقة، والله وحده يعلم كم من الديناميت سيحتاجونه لتفجيرها كي تُفتح، فعل كهذا سيصنع ما يكفي من الضجيج ليصل إلى سكوتلاند يارد نفسها.

ناول بادجر المصباح إلى شريكه، الذي أبقى الشعاع مُسلَّطًا بثبات على الصندوق المعدني الكبير والأقفال الخمسة. قهقه بادجر بسعادة مرَّةً أُخرى وهو يفتش في جيب سرواله قبل أن يُخرج حلقة نحاسية بها خمسة مفاتيح، كل مُفتاح منهم له هيئة مُختلفة وقد حُفِرَ رقمٌ على رأس كل مفتاحٍ منهم، وتتطابق هذه الأرقام مع ترتيب أقفال الخِزانة.

انحنى على رُكبتيه في مُنتصف الضوء وأدخل المفتاح الأول، فدار بسلاسة مع صوت تَكَّة واضحة. كذلك فعل الثاني، والثالث، ولكن الرابع رفض أن يتزحزح. نظر بادجر في قلق إلى شريكه ولكن لم يتكلم أيٌّ من الرجلين. أخرج بادجر المفتاح وحاول مُجددًا فكانت نفس النتيجة. ظهر لمعان عرق رفيع على جبينه، ما المشكلة هنا بحق الجحيم؟ هذه بالتأكيد لم تكن الخطة، لقد سار الأمر على ما يُرام مع الثلاثة مفاتيح الأولى، لم يستطع أن يُصدق أن الرجل قد ارتكب خطأً، كان هذا أمرًا غير مسبوق.

همس آرثر، الذي كان مُتحيرًا وقلقًا مثله: «جرِّب المفتاح الخامس».

أطاعه بادجر الذي كان في حاجة ماسَّة إلى أن يفعل أي شيء، لدهشتهما انسل المفتاح الخامس بيُسر ودار بسلاسة مع صوت التَّكَّة المُميز كالمفاتيح الثلاثة الأولى. لمع بريق أمل ورفع من روح بادجر المعنوية المُثبطة، فأدار مقبض الخِزانة، لم يحدث أي شيء، لم يتزحزح عن موضعه، فأطلق سُبَّة وجلس القرفصاء وهو يقول: «ماذا نفعل الآن بحق الجحيم؟».

جاء صوت شريكه من الظلمة قائلًا: «جَرِّب المفتاح الرابع مُجددًا».

فعل بادجر ما قيل له وهو يكتم أنفاسه، لقد انسل المفتاح إلى داخل الفتحة التي كانت مُلائمة له دون أي مُشكلة، كانت يداه ترتجفان، وقد توقف خوفًا من الفشل مُجددًا.

«هيا يا بادجر».

أدار المفتاح، في البداية كان هناك بعض المُمانعة، ثم... تحرك، دار، أصدر صوت تكَّة. تنهَّد آرثر سيمز في ارتياح ثم قال هامسًا بصوتٍ حاد: «هؤلاء

الملاعين، لقد غيَّروا نظام الأقفال، فلا يُمكن فتحها بالترتيب، لم يكن رجاله يعلمون بهذا الأمر».

اعتدل بادجر واقفًا على قدميه وبدأ يجذب باب الخِزانة الكبير، تمتم قائلًا والباب الثقيل يبدأ في الحركة: «اللعنة، إنه ثقيل الوزن حقًّا، أثقل من زوجتي».

كانت روحه المعنوية ترتفع، أصدر الباب صريرًا مع حركته البطيئة، احتاج بادجر لدقيقة من العمل الشاق قبل أن ينفتح باب الخِزانة على اتساعه.

وأخيرًا صار آرثر سيمز قادرًا على تسليط ضوء المصباح ليُضيء الخِزانة، وما إن فعل هذا حتى فغر فاه وأطلق شهقة مختنقة.

قال بادجر وهو يلهث والعرق يُغرق وجهه: «ما الأمر؟».

أجابه قائلًا: «انظر بنفسك».

جذب بادجر نفسه للأمام ونظر من وراء باب الخِزانة العملاق، انضم لهما ضوء مصباح آخر وصوت يقول: «أخشى أن الخِزانة فارغة».

كان الصوت الذي جاء من ورائهما واضحًا وجافًّا ورسميًّا، فالتفت المجرمان في آنٍ واحد لينظرا إلى المُتحدث.

سقط ضوء المصباح على شاب طويل يقف عند مدخل الباب، وابتسامة ساخرة ترتسم على شفتيه الرفيعتين، كان هاري جوردان، أم أنه ليس هو؟ كان يرتدي نفس الحُلَّة المُقلَّمة الرثَّة التي كان جوردان يرتديها، ولكن أين الأنف المنتفخ والشارب الكبير؟

«أخشى أن اللعبة قد انتهت أيها السيدان، أعتقد أن الجملة هي، لقد وقعتما متلبسَيْنِ، والآن أرجو ألا تحاولا الهرب بشكلٍ طائش، الشرطة خارج المبنى تنتظر إشارتي».

حدَّق آرثر سيمز وبادجر جونسون في دهشة وصدمة إلى الشاب الذي أخرج صافرة فضية من جيب سترته ونفخ فيها ثلاث مرَّات، تردد صدى الصوت الحاد في أذنيهما.

أمسك المُحقق جايلز ليستريد من سكوتلاند يارد في كلتا يديه بكوبٍ صفيحي من الشاي الساخن وابتسم في رضا قائلًا: «أعتقد أنها كانت ليلة عمل جيدة للغاية».

كان هذا بعد ساعة من القبض على بادجر جونسون وآرثر سيمز، وكان المُحقق جالسًا في أمان في مكتبه الصغير في اليارد.

لم يُجبه الشاب الجالس قُبالته الذي كان يرتدي حُلَّة مُقلَّمة رثَّة قد شهدت أيامًا أفضل. صمته جعل الابتسامة تختفي من على وجه ليستريد وحلَّ محلَّها تقطب حاجبيه.

«ألا تتفق معي يا سيد هولمز؟».

ضم الشاب شفتيه لوهلة قبل أن يُجيب: «لقد كانت مُغامرة ناجحة إن جاز التعبير، لقد وضعتَ أغلالك في أيدي اثنين من أمهر المجرمين وأنقذتَ شركة ميردِث وشركائه من خسارة مبلغ كبير من المال».

عادت ابتسامة المُحقق وهو يقول: «بالضبط».

«ولكن لا تزال هناك أسئلة بلا إجابة».

«مثل ماذا؟».

«كيف حصل صديقانا على مفاتيح المبنى والمكتب الذي توجد فيه الخِزانة، والخمسة مفاتيح الهامة للخِزانة نفسها؟».

«هل هذا يهم حقًّا؟».

«بالطبع، من المهم أن نعرف إجابة هذه الأسئلة لننهي هذا الأمر تمامًا، من الواضح أن هناك شخصًا متواطئًا ومتورطًا في الأمر قد حصل على المفاتيح وخدَّر الحارس الليلي، لقد ألمح بادجر جونسون إلى شيء كهذا عندما كان يحاول أن يحصل على خدمتي كمُراقب، ولكن حينما حاولت أن أضغط عليه لمعرفة المزيد من المعلومات أطبق شفتيه ولم يتحدث».

تناول ليستريد رشفة من الشاي ثم قال: «لا تشغل بالك الآن بمثل هذه الأشياء غير الهامة، لو كان هناك رجل آخر متورط في الأمر فهو لم يظهر في تلك الليلة وسيكون من شبه المستحيل أن تُثبت أي شيء عليه. لا، نحن

سعداء للغاية لأننا قد ألقينا القبض على اثنين من أمهر اللصوص في لندن، بفضل مُساعدتك يا سيد هولمز، ولكن من الآن فصاعدًا ستكون هذه مهمة المحترفين».

أومأ الشاب برأسه إيماءة لطيفة كأنما في قبول ضمني لحكمة رجل سكوتلاند يارد، ولكن في الواقع رغم أن ليستريد لم يكن أحمقَ إلا أنه كان قاصر النظر عن عواقب محاولة السرقة، وكان مسرورًا ببساطة للإمساك بسمكتين متوسطتي الحجم في شبكته، بينما الصيد الكبير الحقيقي يسبح بِحُرِّية، هذه الجريمة لم تُحسم تمامًا كما يعتقد ليستريد وزملاؤه المتحرفون، لهذا كان هذا الشاب يعرف أنه لا يستطيع أن يعمل كمُحقق مُكبَّلًا بقيود القوة النظامية. في الوقت الحالي كان قانعًا إلى حد معقول بمُساعدة الشُّرطة، ولكن رغم ذلك كان طموحه يكمن في مكانٍ آخر.

من جانبه لم يستطع ليستريد أن يُكوِّن رأيًّا بشأن الشاب النحيل ذي العينين الرماديتين الثاقبتين والملامح الحادة كالصقر التي لا تُظهر إلا القليل مما يدور في عقله. كان هناك شيء بارد في شخصيته ولا يُمكن سبر أغواره جعل المُحقق يشعر بعدم الارتياح. في الستة أشهر الماضية جذب هولمز انتباه اليارد لعدة قضايا، التي تتبعها هو أو رفيقه الضابط المُحقق جريجسون، ونتج عنها عددٌ من عمليات الاعتقال. لم يستطع ليستريد أن يفهم ما الذي يحققه شيرلوك هولمز من نشاطاته، عدا بالطبع من الرضا الذي سيشعر به كل مواطن صالح عند منع أو حل جريمة. لم يتحدث هولمز من قبل عن أي مسائل شخصية، ولم يشعر المُحقق قط بالرغبة في أن يسأله.

بينما هذه المُحادثة تجرى في سكوتلاند يارد كان البروفيسور في مكانٍ آخر من المدينة يتلقى الأخبار من رجله الثاني العقيد سباستيان موران عن فشل هذه العملية الليلية في ميردِث وشركائه.

اعتدل البروفيسور في مضجعه، ووضع جانبًا الكتاب الرياضي الذي كان يقرأ فيه وسار إلى النافذة. أزاح الستائر وحدَّق إلى النهر الذي يجري أسفله وسطحه القاتم يعكس ضوء القمر الفضي.

قال بصوتٍ كئيب هادئ: «المسألة في ذاتها ليست ذات أهمية، مُجرَّد لدغة برغوث في جسد مُنظمتنا، ولكن كان هناك الكثير من لدغات البراغيث هذه مؤخرًا، لقد بدأت تُزعجني». ثم التفت بحدة وقد لمع الغضب في عينيه وقال: «أين يكمن الخلل؟».

جفل موران بسبب التغير المُفاجئ في أسلوب البروفيسور وقال متلعثمًا: «أنا لست واثقًا تمامًا».

تجهَّم وجه البروفيسور الوسيم القاسي في غضب شديد وقال: «حسنًا، يجب أن تعرف يا موران، يجب أن تكون واثقًا، وظيفتك هي أن تعرف، هذا ما أدفع لك من أجله».

«حسنًا.. يبدو أن هناك شخصًا يمد الشرطة بالمعلومات بصورة مُسبقة».

ضحك البروفيسور ساخرًا وقال: «استنتاج عبقري يا موران، يبدو أن تعليمك في المدرسة العمومية قد أتى ثماره، لسوء الحظ لا يحتاج الأمر لعبقري كي يصل إلى هذا الاستنتاج البديهي، لقد تلقيت زيارة من سكولر باكرًا هذا المساء، شكرًا للسماء أن هناك رجلًا واحدًا ذكيًّا يمكنني الاعتماد عليه».

شحب وجه موران عند ذكر اسم سكولر، كان سكولر ماكرًا وبارعًا للغاية، وطموحًا للغاية. لقد ارتقى سريعًا وهو يشق طريقه نحو ثقة البروفيسور، لينال دور الرجل المُفضَّل، وبالتالي أحسَّ موران أن منصبه مُعرَّض للخطر، كان يعرف أنه لا يوجد خفض رُتب في المُنظمة، إذا خسرت مكانتك فأنت تخسر حياتك أيضًا.

«ماذا أراد؟».

«لم يُرد شيئًا سوى أن يُعطيني معلومات بخصوص برغوثنا المُزعج، من الواضح أنه كان يتخذ شخصية هاري جوردان، إنه يعمل في إحدى حانات الجانب الشرقي، البجعة السوداء على وجه التحديد، حيث يستدرج بعض رجالنا المغفلين مثل جونسون وسيمز، ثم يشي بهم إلى الشرطة».

«ما الذي يسعى إليه؟».

هزَّ موريارتي كتفيه وقال: «لا أعرف، أو على الأقل سكولر لا يعرف، يجب أن نعرف هذا، أليس كذلك؟ فلتجعل هوكينز يتولّى الأمر، إنه بارع حقًّا وسيعرف ما يجب عليه فعله، أخبره بالموقف، ولنرى ما سيصل إليه، ليس لديَّ أدنى شك في أن السيد جوردان سوف يعود إلى مصدر رزقه في البجعة السوداء في غضون الأيام القليلة التالية، أريد معلومات فقط، لا يجب إيذاء هذا الشخص المدعو جوردان، أريد فقط أن أعرف كل شيء يتعلق به قبل أن أتخذ أي إجراءات، هل تظن أن باستطاعتك تنسيق هذا الأمر دون أي أخطاء؟».

ضمَّ موران قبضتيه في غضب وإحباط، لا يجب أن يتحدث إليه أحد بهذه الطريقة، كأنه عريف عديم الكفاءة بحذاءٍ مُلطخ بالطين، كم يود أن يمسح هذه الابتسامة الساخرة من على وجه البروفيسور، ولكنه يعرف أن أي تصرف طائش سيكون حماقة كبيرة.

قال بِهِمَّة: «سأتولَّى الأمر على الفور». ثم غادر الغُرفة.

ضحك البروفيسور بينه وبين نفسه، ثم التفت مُجددًا إلى النافذة، كان انعكاسه يُحدِّق إليه من الزجاج المُظلم. كان رجلًا طويلًا بشعرٍ أسود كثيف وملامح حادة كان من الممكن أن تكون جذابة للغاية لولا الفم الشرس والعينان الرماديتان القاسيتان.

قال بهدوء مُخاطبًا انعكاسه: «لقد أثرت فضولي يا سيد جوردان، أتمنَّى ألا يمضي وقت طويل قبل أن أُرحِّب بك في صالوني».

***

كان الفجر يشقشق وشيرلوك هولمز يشق طريقه في تعب بجوار المتحف البريطاني إلى شارع مونتاجو حيث يقطن، لم يعد يرتدي الحُلَّة الرخيصة التي كان يستخدمها للتنكر في شخصية هاري جوردان، رغم أن ملابسه الخاصة لم تكن في حالة أفضل. كان بمُساعدته للشرطة يزيد من خبرته في أعمال التحقيق، ولكن هذا لم يكن يوفر له ثمن الطعام أو إيجار الغرفتين الضيقتين اللتين يسكن بهما، كان يتوق لبدء عمله في التحقيقات الخاصة، عمل حقيقي. منذ مجيئه من الجامعة إلى لندن ليشق طريقه في العالم كمُحقق استشاري قد استطاع أن يجذب بعض الزبائن، ولكنهم كانوا يأتون في مرَّات قليلة ومُتباعدة، وكانت نوعية القضايا كلها مملة؛ زوج غائب، حلية مسروقة، نزاع حول وصية، وأشياء من هذا القبيل. ولكن رغم تعبه واستيائه بعض الشيء من قصر نظر زملائه المحترفين في سكوتلاند يارد إلا أن إيمانه في الوصول إلى هدفه لم يتزعزع، وكان تدربه على أعمال التحقيق ناجحًا وسلسًا، وهذا يجب أن يحدث قريبًا، لا يمكنه أن يواصل استدانة المال من أخيه مايكروفت لتمويل نشاطاته.

دلف إلى المبنى رقم ١٤ في شارع مونتاجو وصعد السُلَّم إلى الطابق الثالث حيث يوجد مسكنه المتواضع، ما إن دلف إليه حتى ألقى بسُترته في عُجالة وشمَّر كُمَّي قميصه، ثم شقَّ طريقه إلى الرَّف الذي يعلو المدفأة وأخرج من حقيبة جلدية زجاجةً صغيرة ومحقنًا، تنفَّس بعُمقٍ في ترقُّب وضبط الإبرة الدقيقة قبل أن يدفع طرفها الحاد في عضلة ساعده الذي كان به بالفعل

عددٌ لا يُحصى من النقاط والندوب من أثر الثقوب. ضغطت أصابعه البيضاء الطويلة المتوترة على كابس المحقن ثم صرخ في نشوة وهو يُلقي بجسده على كُرسي بالٍ وقد ارتسمت ابتسامة عريضة خاوية على ملامح وجهه المُتعب.

# -٢-

## من مذكرات جون ووكر

كان النقيب ثورنتون حريصًا على تنفيذ وعده بأن يجعلني أُعاني، ما إن عادت بقايا السرية وهي تعرج عبر بوابات الحامية العسكرية في قندهار حتى أُلقي بي في السجن، وبدا كأنهم قد نسوا أمري، عانيت هناك لثلاثة أشهر، ورُغم احتجاجي اليومي للسجانين من أبناء جلدتي لم يأتِ أي ضابط لرؤيتي، وُضِعت مُنفرِدًا في زنزانة مساحتها ثمانية أقدام في ثمانية أقدام. أعلى رأسي بقدمين توجد نافذة مُغطاة بشبكة حديدية لا تسمح إلا بمرور بصيص خافت من ضوء النهار. كنتُ أقضي أيامي في غسق دائم، كنتُ أُعاقَب قبل حتى أن أقف أمام المحكمة.

لا أعرف كم مرَّة عشت تجربة هذه الليلة المصيرية، كانت تأتي إليَّ رُغم إرادتي في مَشاهِدَ واضحة، كأني أُشاهد سقوطي في الهاوية، هنالك كُنتُ أنا، أُغادر خيمة المُستشفى، رائحة الدم والموت تعلق بي كأبخرة مستنقع خفية، ثم يتبدل المشهد إلى الشجرة اليابسة التي جلست أسفلها وأخذت أول جُرعة من البراندي، حلقي الجاف يتوق لتذوق هذا السائل الدافئ مرة أخرى، وليجرب النسيان الجميل الذي يجلبه، ولكني أعرف الآن أنه يجلب الذل والعار أيضًا، هل كنتُ جبانًا حقًّا؟ هل كنتُ هاربًا من الخدمة حقًّا؟ هل تخلَّيتُ حقًّا عن الرجال الذين كنتُ مسئولًا عنهم؟ كانت الأسئلة تطن وتتكرر في عقلي كآلة فظيعة، لا يوجد استجواب أكثر إيلامًا مما قد تفعله بنفسك. لا شكَّ أنني كنتُ ضعيفًا وفقدتُ بعض الإيمان في تلك الليلة، لقد رأيتُ رجالًا، شبابًا صغارًا بأوجهٍ ناعمة خالية البال، رجالًا لم يتذوقوا الحياة حقًّا، رأيتهم يحصدون. الأقل حظًّا منهم، المصابون دون أدنى أمل في إنقاذهم قد جُلِبوا إليَّ، ولقد حاولت تضميد الجراح المُريعة التي لا يمكن تضميدها، لم يكن عجز الدواء في وجه الضرر الجسدي واضحًا ومؤلمًا بالنسبة لي كما كان في تلك الليلة اللعينة.

وذات يوم في أواخر سبتمبر زارني ثورنتون في زنزانتي، بدا سليمًا ومُعافى عدا من بعض التصلُّب في ذراعه، لم يكن هناك أي دليل على أنه كان مجروحًا على الإطلاق، ولكنه مع ذلك عاملني بكياسة فاترة، لم تُخفف شهور سجني من غضبه تجاهي، أخبرني بموعد مُحاكمتي العسكرية ونصحني بأفضل تصرف يُمكن أن أفعله؛ الحل الأفضل هو عدم تقديم دفاع، «بهذه الطريقة يمكن للمسألة أن تنتهي بسرعة وتكون في طريقك إلى الوطن، ونحن في الجيش البريطاني يُمكننا أن نتخلص منك إلى الأبد».

لم يكن لديَّ إرادة باقية للمقاومة، وكنتُ أدرك أن أي التماس سأقدمه ومهما كان دفاعي مُقنعًا فإني بالفعل موصوم بالذنب، وافقت على كل اقتراحاته، أي شيء لأقول وداعًا للجدران الرمادية وعزلة الثلاثة أشهر الماضية. لسذاجتي كنتُ أظن أنني بمُجرد هروبي من الهند سأكون قادرًا على جمع شظايا حياتي المُبعثرة لكنني لم أكن أعرف في هذا الوقت أن وصمة العار الناتجة عن جريمتي ستلحق بي إلى إنجلترا.

**لندن، أكتوبر ١٨٨٠**

اقترب شيرلوك هولمز من النافذة وبدأ في ضوء النهار يتفحص بعدسته المكبرة قطعة ورق، ارتجفت أصابعه في إثارة، هنالك أدرك أنه أخيرًا يُمسك في يده بمفتاح لغز حقيقي، كانت شفرة عاطفية مُقتضبة، وكان هو الشخص الوحيد القادر على التعامل معها. قال لنفسه، أنا لديَّ الذكاء الكافي الذي لم يتعرض لاختبار حقيقي حتى هذه اللحظة، ربما قد حان الوقت.

كبح الابتسامة التي أرادت أن ترتسم على وجهه، ثم التفت إلى الرجل الذي أحضر الرسالة وقال له: «هذه الرسالة كتبها شخص أعسر -وهذا يبدو واضحًا من الاعوجاج في حرف اللام- ورغم أن الورقة من النوع الرخيص إلا أن الكاتب استخدم قلمًا باهظ الثمن، وهو ما لا يكون موجودًا عادة بحوزة شخص من الطبقات الفقيرة. يرتدي الكاتب خاتمًا كبيرًا في إصبع اليد اليُسرى الرابع؛ لقد صنع بعض الخدوش البسيطة في سطح الورقة». قرَّب الورقة من أنفه واشتمها، ثم قال: «هناك دليل واضح على أن من كتب هذه كان مُعتادًا على تناول النشوق*، أعتقد أنه من نوع مغربي، أخشى أن معرفتي بأنواع النشوق لا تزال محدودة بعض الشيء».

بحركةٍ مسرحية وضع الورقة على الطاولة بجانب كُرسيه وجلس قُبالة الضيف الذي لخيبة أمله لم يبدُ مُنبهرًا بتحليلاته.

جاء الصوت المُتبرم قائلًا: «هذا كله جيد يا سيد هولمز، ولكن ماذا عن الرسالة نفسها؟ ماذا يجب أن أفعل؟».

---

*النشوق أو السعوط: تبغ مطحون يمكن تناوله أو استنشاقه من خلال الأنف.

كان المُتحدث الذي عرَّف نفسه باسم جوناس أبركرومبي رجلًا ممتلئ الجسد متوسط العُمر يرتدي حُلَّة أنيقة وقد وضع زهرة في طية صدر السترة. كان وجهه شاحبًا مع القلق وقد راح يُدير حافة قُبَّعته في يديه بحركة عصبية مُنفعلة. كان بحاجة ماسَّة إلى المُساعدة لا ألاعيب الحواة. كيف يُمكن أن يُحل مُعضلته معرفةُ أن كاتب هذه الرسالة الملعونة أعسر ويستمتع بتناول النشوق؟!

كان هولمز يُدرك مُعاناة الرجل، ولكنه كان مُهتمًّا أكثر بعناصر القضية الأكثر نُدرة وغرابة؛ بالألغاز حبيسة الرسالة. لم يكن مُدركًا لسذاجته أو نقص تعاطفه في التحاور مع زبونه، وحتى لو أدرك ذلك فكان سيعتبرها أشياء غير ذات أهمية. الشيء الجوهري هو فكرة أنه أخيرًا كان هناك تحدٍّ حقيقي لمواهبه.

أمسك هولمز بالرسالة مُجددًا وقرأها بصوتٍ عالٍ: «ابنتك لدينا، لضمان سلامة عودتها نطلب منك خدمة، سنتواصل معك قريبًا، لا تذهب إلى الشرطة».

«أنا واثق أنهم يعنون قتلها. أوه، يا إلهي!».

«لمَ قد يفعلون هذا يا سيد أبركرومبي؟ ما الفائدة المُحتملة التي يمكن أن يجنوها من قتلها؟».

ظهرت الحيرة على وجه أبركرومبي، ثم هزَّ رأسه وقال: «أنا لا أعرف، ولكن لمَ اختطفوها من الأساس؟».

تنهَّد شيرلوك هولمز في نفاد صبر، هل يمكن أن يكون الزبائن حقًّا بمثل هذا الغباء؟

«لأنَّك يا سيد أبركرومبي مدير فرع بنك المدينة في شارع بورتلاند، وبالتالي فمن المُرجح أنهم ينوون استخدام ابنتك كأداة مساومة للحصول على شيء في المُقابل؛ شيء سيعود عليهم بالكثير من المال».

ظهر أبركرومبي مصدومًا حقًّا لسماع هذا التحليل، ثم قال: «أنت تقصد.. أنهم يخططون لسرقة البنك؟».

أجل، من الممكن أن يكون الزبائن بمثل هذا الغباء.

«هذا هو المقصود، في الوقت الحالي لا توجد معلومات كافية لتحديد الطريقة التي ينوون استخدامها للاستيلاء على المال المودع في خزائنكم، ولكني مُقتنع أنهم معتمدون على تعاونك».

مسح مدير البنك جبينه وقال: «ما الذي يجب أن أفعله بحق السماء؟».

«لا شيء في الوقت الحالي، يجب أن تتحلى بالصبر وتنتظر حتى يتواصلوا معك مُجددًا، ما إن يفعلوا ذلك فعليك أن تخبرني على الفور».

«لا شيء؟ كيف يُمكنني ألا أفعل شيئًا وابنتي لديهم؟».

«لأنني قُلتُ ذلك، إن كنتَ لا تثق فيّ أو في حُكمي إذن رجاءً ابحث عن المُساعدة في مكانٍ آخر».

كان ردًّا مُنفعِلًا، ولكنه يخلو من المشاعر، لقد درَّب هولمز نفسه من البداية على كبح مشاعره عندما يتعامل مع الجريمة، يجب أن يكون رجلًا آليًا. أحيانًا في الليل يُمسك بشمعة بالقرب من وجهه ويحدق إلى المرآة، فيُبادله القناع البارد التحديق، قناع خالٍ من أي بشرية أو مشاعر، حتى عندما يقرب الشمعة من وجهه ليشعر باللسان الأصفر الضاري يحرق لحمه. كان هذا يُسعده، الدقة والموضوعية اللتان لا غنى عنهما في حل الجرائم لا يمكن أن يفسدهما إلا المشاعر.

كان يعرف أنه يُجازف عندما يتحدث إلى أبركرومبي بهذه الطريقة، عليه أن يحافظ على هذا الزبون، ولكن يجب أن يكون هذا بشروطه الخاصة وإلا فلن تكون هناك لعبة.

فتح أبركرومبي فمه ليتحدث ثم لاذ بالصمت. أدرك هولمز أنه قد ابتلع طُعمه البارد، فقال له: «لقد جئتَ طلبًا لنصيحتي، وها أنا ذا أنصحك، علينا أن ننتظر ونترك المجرمين يقومون بخطوتهم التالية، صدقني إنهم يلعبون بالنار، ولن يتصرفوا أي تصرف طائش حتى يوقنوا أن خطتهم قد فشلت. إنهم يريدون المال لا ابنتك. أخبرني على الفور بمجرد أن يتواصلوا معك».

أومأ أبركرومبي برأسه في استسلامٍ وحيرة.

«وفي حالة أن احتجت أنا للتواصل معك؟».

جفل مدير البنك عند سماع السؤال كأنه يستيقظ من حلم مُخيف، ثم قال: «أرجوك تواصل معي على عنوان بيتي، قد يكون من الخطير أن تأتي إلى البنك». وعلى الفور أخرج بطاقة من جيب صُدرته وأعطاها للمُحقق، الذي نظر إليها ولاحظ أن العنوان بالقرب من كلافام كومون.

«ابنتي يا سيد هولمز...».

«أنا واثق أنها ستكون بخير، طالما تصرفت حسبما قالوا لك ولم تتواصل مع الشرطة، الآن لتُساعدني في جعل المسألة واضحة تمامًا في عقلي، أريدك أن تصف لي مُجددًا سلسلة الأحداث التي قد جلبتك إلى بابي، ورجاءً كُن دقيقًا».

أومأ أبركرومبي ثم قال: «سأحاول قدر المُستطاع، لقد تلقَّيت هذه الرسالة اللعينة هذا الصباح، عثرت عليها على مكتبي في البنك، لا أعرف كيف وصلت إلى هناك. أسرعت على الفور إلى البيت لأرى إن كانت ابنتي أميليا بأمان، أنا أرمل وهي كنزي الوحيد». مسح بأصابعه عينيه اللتين قد بدأتا تترقرقان بالدموع.

أومأ هولمز برأسه وقال: «وعند عودتك للبيت اكتشفت أن كنزك مفقود».

«قالت الخادمة إن أميليا قد تلقَّت رسالة مني أطلب فيها أن تُقابلني من أجل الغداء، وإنها قد خرجت على الفور».

«هل لديك هذه الرسالة؟».

«لا، أعتقد أنها قد أخذتها معها».

«هل تدعوها عادة إلى الغداء بمثل هذه الطريقة؟».

«نعم، مرة أو اثنتين في الشهر».

«إذن فلا شك أن هؤلاء المجرمين يراقبونك منذ بعض الوقت، إلى أين تأخذها للغداء؟».

«مطعم صغير اسمه كارلو في شارع مرليبون الرئيسي. لقد ذهبت إلى هناك على الفور ولكن بالطبع العُمَّال الذين يعرفونها أكَّدوا لي أنهم لم يروها ذلك اليوم».

«صف لي ابنتك من فضلك».

«إنها طويلة، ونحيلة بعض الشيء، بشعر كستنائي، عادة ما تربطه على شكل كعكة، نظرها قصير للغاية وترتدي نظّارات بعدسات قوية، عيناها زرقاوان، إنها فتاة جميلة».

أدار أبركرومبي وجهه بعيدًا ونفخ بقوة في منديله.

«هل تعرف ما الملابس التي كانت ترتديها؟».

هزَّ مدير البنك كتفيه وقال: «أعتقد أنه قد يكون ثوبًا بُنيًّا من قطعتين مُطرَّزًا بالفراء، وقبعة صغيرة ذات وشاح، إنه ثوبها المُفضَّل».

اتَّكأ هولمز إلى الوراء في كُرسيه وشبك أصابعه أمام وجهه وقال: «حسنًا، أعتقد أن هذا هو كل شيء أحتاج إلى معرفته الآن، من الضروري أن تعود إلى عملك وتتصرف بشكلٍ طبيعي قدر المُستطاع، يجب أن تكون صبورًا ورابط الجأش يا سيد أبركرومبي، أنا واثق أنهم سيتواصلون معك في الوقت المُناسب، على الأرجح هؤلاء المجرمون سيتركونك على النار قليلًا لإضعاف مُمانعتك لأي شيء سيطلبونه منك، ولكني مُقتنع أننا سنُنهي هذه المسألة نهاية سعيدة».

«أنا أتمنى هذا، سأفعل أي شيء لتعود طفلتي الصغيرة بأمان».

اعتدل أبركرومبي واقفًا وقد احمرَّت عيناه من الدموع، ثم أمسك بيد شيرلوك هولمز وقال: «شكرًا لك، شكرًا لك، لا أعرف ماذا كنت سأفعل من دون مُساعدتك وطمأنتك لي». ودون أن يقول أي كلمة أخرى غادر الغُرفة.

ابتسم شيرلوك هولمز وفرك يديه ببعضهما وهو يقول في بهجة: «أخيرًا، أخيرًا.. لقد بدأت اللعبة».

ما إن خرج أبركرومبي من المبنى إلى الرصيف حتى ابتسم في رضا بدوره وقال لنفسه: «لم يكن إيرڤينج ليفعل هذا بشكلٍ أفضل».

في اليوم التالي كان هناك حادث مؤسف في فرع بنك المدينة في شارع بورتلاند.

رجل ذو هيئة مزرية وملابس رثّة، تفوح منه رائحة الكحول، زعم أنه يرغب في فتح حساب بجنيه ذهبي واحد، عندما أخبره المُحاسب أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك بمثل هذا القدر الضئيل من المال صار بذيئًا ثم عنيفًا، لقد انفجر في نوبة من الغضب الثمل وهو يُلقي بالأوراق في كل مكان ويصرخ ويركل أصص الزرع على الأرض.

كان المدير مشغولًا مع عميل جديد هام عندما أرسلوا في استدعائه، ولقد استدعى هو بدوره الشرطة. وَضع رجال الشرطة الأغلال في يدَي السكير المُتمرِّد واقتادوه بعيدًا. أثناء حدوث كل هذا لم يلحظ أحد رجلًا عجوزًا ذا وجهٍ سفعته الشمس يجلس في الركن بجوار النافذة يدخن سيجارًا ويقرأ جريدة فاينانشال تايمز، كأنه يجلس في النادي.

في هذا المساء اتصل أبركرومبي مُجددًا بشيرلوك هولمز. وجد المحقق الشاب جالسًا على كُرسيه أمام النار الضئيلة، يُدخن الغليون. رُغم أن هولمز يتوقع -أو بالأحرى يتمنى- هذه الزيارة إلا أن التعبير الضجر المرتسم على وجهه لم يشِ بأي من هذه المشاعر.

صاح مدير البنك: «لقد تواصلوا معي مُجددًا!» وهو يخلع معطفه ويجلس مع هولمز بجانب النار.

«رائع، أرني الرسالة».

كاد هولمز أن ينتزع الرسالة من بين أصابع أبركرومبي، كانت مكتوبة بنفس اليد المتقلبة التي خطّت الرسالة السابقة، ولكن هذه المرة كانت تحمل لكنة أكثر قتامة. بدأ يقرأها «أحضر عشرة آلاف جنيه إسترليني إلى ميناء وايلاند قُبالة طريق رصيف الهند عند مُنتصف الليل، تعالَ وحدك، لو لم نتلقَّ المال في الوقت المُناسب سنقطع قدم ابنتك».

«ماذا أفعل، أنا لا أملك عشرة آلاف جنيه إسترليني؟!».

«لا، ولكن البنك يمتلك».

«ولكنه ليس مالي، إذا أخذته فسأكون قد ارتكبت جريمة».

نفخ هولمز دخان غليونه برفق فاختفى وجهه لوهلة وراء سحابة رفيعة من الدخان، ثم قال: «في زيارتك الأخيرة أخبرتني أنك ستفعل أي شيء لتضمن عودة ابنتك بأمان».

أجابه في تجهم: «هذا ما قلته، ولكني لم أضع في الحُسبان سرقة بنكي، أنا أعتمد عليك لإنقاذي من هذا الفعل الطائش».

داعب هولمز ذقنه مفكرًا ثم قال: «ربما أستطيع، سيكون من الخطر عليك بالطبع أن تذهب إلى ميناء وايلاند وحدك...».

«ولكن إن لم أفعل فمن يعرف أي ضرر قد يلحق بأميليا؟».

«أوه، يجب أن يذهب أحدهم بالطبع، ولكن لا يجب أن يكون أنت بالضرورة».

هز أبركرومبي رأسه في حيرة وقال: «أنا لا أفهم. مَن...؟».

ابتسم هولمز ابتسامة واثقة وقال: «أنا بالطبع، يمكنني بسهولة أن أذهب بدلًا منك، أنا مُعتاد على التنكر، إنها واحدة من المهارات الضرورية للمحقق المُعاصر، القليل من الحشو، ومعطفك وقبعتك، وبعض مستحضرات التجميل. أثق أن هذا سيكون كافيًا للتنكر في هيئتك في شارع مظلم».

«هذا جنون، ماذا لو أخذوك إلى مكانٍ ما وكشفوا هويتك، سأخسر ابنتي والمال».

اعتدل هولمز واقفًا من كُرسيه وأدار ظهره للضيف وقال: «إما أن تثق فيّ أو لا تثق، ما زال أمامك بعض الوقت لتُبلغ سكوتلاند يارد».

«لا أعرف».

التفت هولمز وانحنى ليستند إلى ظهر الكرسي وقد صارت ملامحه كنقشٍ غائر على الضوء المُتسلل من شبكة النافذة، ثم قال: «هل لديك حقًّا أيٌ بديل؟».

تردد أبركرومبي وقد ظهر على وجهه الشاحب حيرة متألمة، ثم قال أخيرًا: «حسنًا، فليكن». فخرجت الكلمات في همسٍ أجش منفعل.

«إذن قد اتفقنا».

«ولكن ماذا عن المال؟».

«لا شك أن الخزانة في البنك تحتوي على عشرة آلاف جنيه؟».

أومأ أبركرومبي برأسه.

«إذن سأضطر لسرقتها».

«أنت؟».

«إن كنت أنا من سيوصل المال فبالتالي يجب أن أكون الشخص الذي يحصل عليه، ألا ترى ذلك؟ لا شك أن بحوزتك المفاتيح المناسبة التي ستسمح لي بالولوج إلى البنك والخِزانة».

«حسنًا، أجل، ولكن...».

«جيد، أقترح أن تُعطيني هذه المفاتيح ثم بإمكانك أن ترسم لي خريطة توضح تخطيط البنك، أعتقد أنه من الأفضل لك أن تحجز غرفة في فندق لهذه الليلة، يجب ألّا تعود إلى البيت في حالة كون المكان مُراقبًا».

هز أبركرومبي رأسه وقال: «عقلي يعجز عن استيعاب كل هذا».

«أنت لست بحاجة لأن تفهم كل تفصيلة صغيرة، فقط ارسم لي الخريطة واذهب لتقضي الليلة في أي فندق، في الصباح سيكون معي ابنتك ومالك».

«إن حدث هذا فستكون مُعجزة».

تجهَّم وجه هولمز وقال: «المُعجزات هي صنيعة الرب، أنا أؤدي دوري بشكل أكثر عملية».

بعد بضع ساعات كان شيرلوك هولمز يدلف من المدخل الجانبي إلى فرع بنك المدينة في شارع بورتلاند مُتنكرًا في شكل أبركرومبي ومُستخدمًا المفاتيح الخاصة به. كان الجو حارًّا بالنسبة لأمسية أواخر أكتوبر، وكان هولمز قد بدأ يتعرق بالفعل في الحشوات والمعطف الثقيل. كانت أعصابه ترتعش في إثارة وهو يشق طريقه بلا أدنى صوت عبر الممرات المُظلمة ناحية غُرفة خِزانة البنك. مرَّت خاطرة ماكرة في عقله، لمَ لا يتخلَّى عن طموحه في أن يصير مُحققًا خاصًا ويسرق المال؟ فقط خذه وانصرف. من الممكن أن تؤمن له عشرة آلاف جنيه حياة كريمة لسنوات عديدة. في خلال أربع وعشرين ساعة يمكنه أن يختفي في أوروبا، القارة مليئة بالأركان والزوايا التي يمكن لرجل غني أن يعيش فيها حياة سرية ومُرضية. ابتسم لهذه الفكرة التي خطرت على باله دون دعوة، كان مسرورًا بالازدواجية

المفاجئة لطبيعته في بعض الأوقات، فلا شكّ أن القدرة على التفكير كمجرم هي موهبة جوهرية لأي مُتخصص في التحقيق في الجرائم.

توقف أمام باب غُرفة الخِزانة، وفتح الحقيبة الكبيرة التي أحضرها معه، ثم نظر إلى ساعته؛ لقد أوشكت على الحادية عشرة، عليه أن يبدأ العمل على الفور.

بعد عشرين دقيقة انعطف الرجل المتنكر عند زاوية شارع بورتلاند وهو يحمل حقيبة منتفخة، بدا متعجلًا ومتوترًا للغاية، كانت ليلة ضبابية وقد تعلَّقت السحب الرمادية الرقيقة بالرجل وهو يتحرك بسرعة عبر الشارع، بدت خطوات أقدامه كوشم حاد مُتناغم على الرصيف المبتل.

ما إن دلف إلى شارع ووتر حتى لمح سيارة أجرة وحيدة تشق طريقها عائدة إلى المخزن، لوَّح لها مُحاولًا إقناع السائق بأن يقطع رحلة أخيرة هذه الليلة. أومأ السائق برأسه موافقًا أن يستقل الرجل السيارة، ولكنه ما إن فعل ذلك حتى ظهر رجلان من الظلال وقفزا بدورهما إلى السيارة.

قال أحدهما بصوتٍ أجش سوقي: «مرحبًا يا سيد هولمز، نعتقد أن معك حقيبة صغيرة من أجلنا».

حاول هولمز أن يقاوم ولكنه أحس بفوهة مسدس تضغط على ضلوعه.

«لن يستطيع أي حشو إيقاف واحدة من هذه الطلقات الجميلة إذا أجبرتني على جذب الزناد يا سيد هولمز، الآن الأوامر التي لدينا هي ألا نؤذيك إلا إذا صرت غير متعاون، إذن فلتفعل ما قيل لك وسلِّم الحقيبة».

لم يكن المُحقق قادرًا على رؤية وجه أي من المُعتدين عليه، ولكنه كان واثقًا أن التهديد حقيقي، فأرخى قبضته عن الحقيبة.

«ولد مُطيع، والآن طابت ليلتك!».

ملأ نظره ضوء ساطع، وعقله ينفجر بألم حاد مُفاجئ، وأحس بجسده يرتخي وهو يسقط للأمام فاقدًا الوعي على أرض سيارة الأجرة.

ضحك أحد المعتدين وقال: «أحلام سعيدة يا سيد هولمز». بينما الرجلان يدفعان جسد المُحقق الهامد خارج السيارة حيث تدحرج فوق البالوعة.

قال أحد الرجلين للسائق: «حسنًا يا هاري، لقد اكتملت المهمة، فلتنطلق بنا إلى بيت البروفيسور».

## -٣-

## من مذكرات جون ووكر

شُحِنتُ من الهند على متن السفينة البخارية أورونتس في يناير ١٨٨١، كانت رحلتي إلى الوطن تعيسة، ورُغم أنني الآن «مدني» وكما يفترض «رجل حر» إلا أنني أحمل وصمة عار محاكمتي العسكرية، كانت هناك تقارير في الصحف وبدا لي أن كل وجه على متن السفينة يشيح بنظره عن وجهي. أخبرني التعبير المرتسم على وجوههم أنهم يعرفون من أنا وماذا فعلت. لا شك أن الطبيعة الشنيعة لجريمتي قد تعاظمت أثناء حكايتها وإعادة حكايتها، كنت ككلب منبوذ بين أبناء وطني.

قضيت ساعات طويلة وحدي في مقصورتي الضيقة أو منحنيًا على سور السفينة أنظر إلى المياه المظلمة المضطربة أسفلي، أشعر بالبؤس والأسف الشديد على حالي. فكرت طويلًا كم من السهل أن أترك نفسي أنزلق من جانب السفينة إلى حضن المياه الباردة لأهرب من حقيقة موقفي المؤلمة. قريبًا سأصل إلى لندن، البالوعة الكبيرة التي يُصرف فيها كل متسكعي ومتشردي الإمبراطورية رُغمًا عنهم. لن يكون هناك أي أصدقاء أو أقارب في انتظاري على رصيف الميناء ليلوحوا لي بترحاب، لا أحد ليساعدني أو يهون عليَّ، وفي ظل عدم وجود شيء ليؤمنّ وضعي المالي سوى مدخراتي الشحيحة بدا المستقبل كئيبًا حقًّا. في المرَّات التي ترتخي فيها قبضتي على سور السفينة ويناديني تَمَوُّجُ الماء بشكلٍ مُغرٍ تجذبني غريزة ما -صوت ما خافت بداخلي- لأتراجع عن وضع تلك الأفكار اليائسة موضع التنفيذ.

ولكن ذات مساء عندما كنا على بعد يومين من إنجلترا كان مشهد الماء الذي يعد بالنسيان مُغريًا أكثر من المعتاد. كنتُ قد تعرضت للإهانة في غرفة الطعام من رجل أعمال شمالي بدين، أخبرني بصوتٍ مرتفع أجش أنه «لست خائفًا أن أكون صريحًا أيها السيد» وأنهم «لا نريد أمثالك ليجلسوا على طاولتنا». كانت هذه هي المرة الأولى التي يُعبر فيها أحدهم عن مشاعره تجاهي بصوتٍ مسموع، وأن يفعلها بمثل هذه الطريقة القاسية العلنية، حتى إنني كنت عاجزًا عن النطق، فتحت فمي لأجيب ولكن لم يخرج منه أي كلمة، وجدت الدماء تغيض من وجهي وأنا أنسحب في انهزام وعُجالة من غُرفة الطعام. انحنيت فوق السور وأنا ألهث من أجل الهواء وقد أحسست بأني على وشك البكاء.

«لا يجب عليك أن تُلقي بالًا لأي شيء يقوله هذا المتعجرف الثرثار».

رفعت رأسي فرأيت رجلًا طويلًا نحيلًا وسيمًا متوسط العمر، بشاربٍ مشذب بعناية قد خطَّه الشيب كما خط فوديه. كان يرتدي بذلة عشاء أنيقة مزينة بعدة أوسمة على صدره، قدَّم لي علبة سجائر فضية مفتوحة وقال: «خذ سيجارة أيها الرجل وستشعر بالتحسن».

هذه المرة كان عليَّ بالفعل أن أكبح دموعي، كانت مشاعري تتأرجح بشكلٍ جامح، بعد هذه القسوة الوحشية من رجل الأعمال البدين الآن أتلقَّى أولَ بادرة تعاطف منذ شهور طويلة وقد أتت من شخص يبدو عليه بوضوح أنه ضابط ورجل نبيل.

أخذت سيجارة بخجل وأومأت برأسي شاكرًا.

«حسنًا فعلت. واطسون، أليس كذلك؟».

«ووكر، جون ووكر».

«بالطبع».

كلمة «بالطبع» أخبرتني على الفور أنه يعرف كل شيء عني.

صافح يدي الضعيفة وقال: «مسرور للقائك، أنا رييد، ألكسندر رييد، اعتدت على أن أكون النقيب رييد، ولكن هذا كان منذ زمن بعيد».

رددت كلماته: «اعتدت أن أكون؟!».

أشعل رييد سيجارته وابتسم ابتسامة مبتهجة جعلت وجهه المشدود الذي سفعته الشمس يتشقق بتجعدات عديدة ثم قال: «تمامًا كما اعتدت أنت على أن تكون جرَّاحًا مُساعدًا في فوج نورثمبرلاند الخامس». اتسعت ابتسامته أكثر.

إذن رييد هو منبوذ مثلي.

نفخ نفسًا من الدخان علق في الريح وتبدد في الظلام.

«أجل يا عزيزي ووكر، أخشى أن قادتي في الجيش لم يعجبهم تعاملي مع صندوق تمويل طعام الجيش، أعتقد أنهم كانوا سيصبحون أكثر تسامحًا مع

الأمر إذا ربح الحصان المحظوظ». هذه المرة تحولت ابتسامته إلى ضحكة، ضحكة مبهجة للغاية حتى أنها كانت معدية، فوجدت نفسي أضحك معه.

«حسنًا فعلت يا صديقي. هذه هي أول مرة أراك بدون تجهم أو هذه السحابة السوداء التي تحملها معك طيلة الرحلة، أجل، لقد كنت أراقبك، أحب أن أبقي عيني على الأشخاص المشابهين لي، فكما ترى أنا أعرف ما تمر به وما تشعر به». ثم أومأ برأسه إلى الماء أسفلنا وقال: «وهذا بالتأكيد ليس هو الحل، أنا دليل حي على أن المرء بإمكانه أن ينجو من مثل هذا العار، بل ويمكنه أن يزدهر أيضًا».

كنتُ عاجزًا عن الرد على ما يقوله هذا الغريب، ولكن في الوقت ذاته أشعلت كلماته روح الأمل والتحدي التي كانت قد انطفأت تمامًا بداخلي، كان يتكلم بحرارة وطيبة، شيء لم أمر به منذ ستة أشهر أو أكثر.

«تعالَ إلى البار يا ووكر، دعني أشتري لك شرابًا، أعتقد أن بإمكاني مُساعدتك».

لحقت به كالمسحور، وبينما ندخل البار جاء رجل الأعمال الشمالي البدين برفقته التي تضمنت زوجة بدينة مثله ترتدي ثوبًا مخمليًّا ضخمًا جعلها تبدو مُضحكة. كانت روحي المعنوية قد ارتفعت فلوحت لهما بيدي بطريقة ساخرة.

«مُحدَثو النعمة هؤلاء يبدون دومًا مبتذلين، أُفَضِّلُ عنهم الأثرياء النبلاء». كان صوت رييد عاليًا بما يكفي ليسمعه الجميع. نظر إلينا رجل الأعمال البدين عابسًا بعينين جاحظتين، ثم اقتاد زوجته إلى الطرف الآخر من البار.

«حسنًا إذن، براندي وصودا؟».

هززتُ رأسي رافضًا؛ لقد أقسمتُ ألا ألمس البراندي اللعين ما دمت حيًّا، «المياه الغازية ستكون كافية».

قال رييد مُعترضًا: «هراء، لن أجلس هنا مع ضابط زميل وهو يحتسي مشروب أطفال، يجب أن تنفض عنك الماضي، تحدَّاه يا بني، لا تدعه يهزمك، هذا هو الوقت المناسب لبداية جديدة». ثم التفت إلى الساقي وقال: «كأسين كبيرين من البراندي مع لمحة من الصودا، لدينا هنا صديق عزيز».

هززت كتفيّ في استسلام، أحسست كطالب مدرسة في عُهدة ناظر صارم ولكنه طيب القلب. بعد أن أخذنا المشروبات اقتادني رفيقي الجديد إلى طاولة هادئة، رفع كأسه وأومأ لي كي أفعل مثله، أطعته مُجددًا فتسللت إلى أنفي رائحة البراندي، الرائحة النفَّاذة الحلوة المثيرة للدوار، ومُجددًا عدت إلى المعسكر وأنا أجلس تحت تلك الشجرة اليابسة أسفل قمر أفغانستان الشاحب، جسدي مُتعب وعقلي متخدل، نسيم المساء يُداعب شعري ويدي تُمسك بعُنق الزجاجة. أغلقت عيني لوهلة لأتخلَّص من هذا المشهد.

قلَّبت البراندي في الكأس بحركة دائرية فصنع دوَّامة صغيرة. لو ألقيته جانبًا الآن؛ لو رميت الشراب بعيدًا، وعدتُ إلى الخيمة الطبية، لو...

انقطعت أحلام يقظتي بصوت رييد وهو يهمس في أذني: «لا توجد عودة للوراء يا فتى، الاتجاه الوحيد هو للأمام، لذا اشرب!».

عَلِقَ البراندي في مؤخرة حلقي فبصقته.

ضحك رييد وقال: «ستعتاد عليه قريبًا مرة أخرى يا واطسون».

مسحت ذقني في إحراج ثم قلت لأصحح له بلطف: «ووكر».

«أجل، أنا أعرف، ولكني أحيانًا أرى أنك واطسون، أليس هذا مُضحكًا؟».

***

لمس شيرلوك هولمز الكدمة البارزة في فروة رأسه حيث ضُرِبَ بالهراوة، فظهر الألم على وجهه.

لم يستطع المُحقق جايلز ليستريد مُقاومة الضحك وهو ينظر إليه، ثم قال: «كبيرة كبيضة السمَّان، ولكنها أكثر منها بشاعة». ثم ضحك مُجددًا ولكن هذه المرة على نكتته السخيفة.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، والرجلان يجلسان مُجددًا في مكتب ليستريد في سكوتلاند يارد. كان هولمز قد تخلَّى عن تنكره ولكن وجهه لا يزال مُلطَّخًا بآثار مستحضرات التجميل الباهتة.

قال ليستريد وهو يتَّكئ بظهره إلى الوراء في كُرسيه: «حسنًا يا سيد هولمز، إن كنت ستلعب ألعابًا محفوفة بالخطر فيجب أن تتوقع أن ينتهي بك الأمر

ببعض الكدمات».

«أنا لا أشتكي أيها المُحقق، أنا فقط أحاول أن أحدد مدى الضرر».

«أنت على قيد الحياة، صداع كبير لبعض الوقت وكدمة بارزة لأسبوع، ثم ستكون على ما يرام».

«شكرًا لك، لم أكن أعرف أنك تُمارس الطب بجانب عمل الشرطة».

لم يلتقط ليستريد الطُّعم.

«نحن رجال الشرطة المعاصرون لدينا مهارات متنوعة».

سمح هولمز لابتسامة رفيعة بالظهور على وجهه وقال: «حسنًا، بغض النظر عن بيضة السمان كما وصفتها، فقد كانت ليلة ناجحة».

«بالتأكيد، ولكنها كانت ليلة غريبة، وأنا ما زلت لا أفهم الأمر بشكلٍ كافٍ».

«لو كان هذا سيُريحك بعض الشيء، فأنا أيضًا لست واثقًا أنني أفهمه بشكلٍ كامل.. حتى الآن. كما أخبرتك من قبل، فالأمر كأن أحدهم يختبرني، يُحاول أن يخدعني».

هزَّ ليستريد رأسه، لم يكن مُقتنعًا تمامًا بعد، ثم قال: «لمَ قد يفعل أحدهم ذلك؟».

«أنا لا أعرف».

«من النادر أن تقول أنت هذه الكلمات، إن جاز لي القول، ولكن عليَّ أن أعترف أن هذه كانت مُغامرة مُسلية، كل هذا الأمر المتعلق بمدير البنك المُزيف، لقد أمسكنا به بالمناسبة بعد أن غادر منزلك، اسمه الحقيقي إرنست براند، مُجرم ذو أداء مسرحي».

قال هولمز وهو يشعل سيجارته: «الكثير من المسرحية والقليل من الأداء، لقد كان يعمل وفق أوامر بالطبع، تمامًا كالشخصين اللذين ضرباني على رأسي». ثم لمس كدمته مُجددًا. «أيًّا كان الشخص الذي خطط لهذا الأمر فهو يعرف الكثير عني، إنه يعرف كيف يعمل عقلي».

صاح ليستريد في دهشة: «اللعنة، لا شكَّ أنه عبقري إذن».

«لقد كان واثقًا أنني سأسرق البنك من أجل أبركرومبي، كان هذا جزءًا محوريًّا من الخطة».

«براند».

«أجل، وهكذا كان لدينا اتفاق لطيف حيث يُنَفِّذ المحقق مهمة اللصوص بالنيابة عنهم، مُفارقة مدهشة، أو على الأقل هكذا كان يجب أن تكون لو نجحت الخطة».

«أجل، ولكنك تفوقت عليهم يا سيد هولمز».

«حقًّا؟».

عقد ليستريد حاجبيه وقال: «بالطبع».

تأمل هولمز طرف سيجارته المتوهج وقال: «بعض أجزاء خطتي كانت بارعة للغاية، ولكن كان هناك العديد من العناصر الضعيفة».

«مثل؟».

«ألم يفكروا أنني سأتفحَّص إن كان أبركرومبي هو حقًّا مدير فرع بنك المدينة في شارع بورتلاند، وإن كان لديه ابنة تُدعى أميليا يأخذها إلى مطعم كارلو من أجل الغداء؟ أو أنني قد أزور عنوانه المُفترض في كلافام؟».

«هل فعلت؟».

تنهَّد هولمز في انزعاجٍ وقال: «بالطبع فعلت، واحد من العناصر البديهية في عمل المُحققين هو أنْ تتفحص مصادر معلوماتك لتتيقن أن ما يُقال لك هو الحقيقة، لقد ذهبت ذات ظهيرة إلى فرع بنك المدينة في شارع بورتلاند مُتنكرًا في هيئة رجل عجوز، لم أستطع فقط أن أرى المدير الحقيقي، ولكنني أيضًا بضربة حظ استطعت أن أرى كيف تصرَّفت العصابة لكي يستطيعوا الحصول على مفاتيح البنك».

اعتدل ليستريد واقفًا وقال: «كيف ذلك؟».

«تضمَّن هذا مجموعة أخرى من الألاعيب، تظاهر أحدهم بأنه عميل غني يريد أن يفتح حسابًا كبيرًا للغاية فأخذوه إلى مكتب المدير، من واقع خبرتي فإن مديري البنوك مجاملون لِلغاية عندما يتعلق الأمر بالرجال الأثرياء، لقد بقي

«العميل» هناك وقتًا طويلًا بما يكفي لكي يتفحَّص المكتب وحجرة الخزانة، ثم حدث اضطراب في بهو البنك واستدعوا المُدير من أجل ذلك...».

«تاركًا هذا الرجل وراءه في مكتبه».

«بالضبط، وقت طويل بما يكفي ليأخذ كل التفاصيل التي يحتاجها، وربما حتى ليطبع على الشمع صورة المفاتيح التي تركها المدير المُتعجل وراءه، أي لص محترف يمكنه بسهولة أن يجمع كل ما يحتاجه لأداء مهمته».

«هذا بارع للغاية حقًّا».

«أجل، وهذا ما يثير حيرتي، ما لا أستطيع أن أفهمه هو كيف يمكن للعقل الذي وضع هذا الجزء من الخطة أن يسمح بوجود الثغرات الأخرى، إنها نقاط ضعف غبية كان يُمكن تداركها بسهولة. بالطبع هذه العناصر قد جعلت الصورة ضبابية بشكلٍ ما، لذا فكما قلت لك الأمر يبدو كأن أحدهم يضعني في اختبار ليرى مدى براعتي».

«حسنًا، في هذه الحالة لقد نجحت في الاختبار ببراعة فائقة».

«ليس تمامًا، لقد هرب اثنان من المجرمين وأخذت أنا تذكارًا كريهًا». كان يشير إلى كدمته.

«أحيانًا يا سيد هولمز تبدو لي مُحيرًا أكثر من الجرائم التي تُحقق فيها، يبدو لي كرجل شرطة متواضع وعملي ومحترف أنك قد استطعت أن تُفسد مُحاولة سرقة بنك بارعة للغاية أثناء محاولة اللصوص خداعك لتؤدي المهمة نيابة عنهم، البقية هي مُجرَّد افتراضات غريبة من عندك، أنا أسألك بجدية يا سيد هولمز مَن بحق السماء سيرغب في اختبارك كما قلت ويضعك في امتحانٍ ما ليرى كم أنت بارع؟».

«هذا ما أرغب حقًّا في معرفته».

***

كان بروفيسور جيمس موريارتي يحدق إلى الحقيبة وقد ارتسمت ابتسامة شاحبة على شفتيه، ثم قال بهدوء: «لقد خاب أملي في السيد شيرلوك هولمز، لم أظن أبدًا أنه سيدعنا نضع يدنا على هذه».

قال العقيد سباستيان موران: «لقد كان ذكيًّا بما يكفي ليكشف أداء براند».

ضحك موريارتي ضحكة ساخرة وقال: «إذن فهو لديه موهبة ناقد مسرحي من الدرجة الثانية، لا، لا يا عزيزي موران، لقد توقَّعت أكثر من هذا بكثير من السيد هولمز، كنت أتوقع البراعة المُطلقة، ولكن مع هذا كانت تجربة مثيرة للاهتمام».

«المعذرة يا بروفيسور، ولكني لا أستطيع فهم اهتمامك بهذا الرجل».

ابتسم ساخرًا وقال: «بالطبع لن تفهم، إنه أمر له علاقة بالعقل يا موران، بعض الأشخاص لسبب أو لآخر محتجزون في عزلة طيلة حياتهم، الشاعر والمُبدع والمُفكر، العباقرة إن شئت، أنا لا أُبالغ عندما أعتبر نفسي عبقريًّا، فأنا على أي حال شخص لديه موهبة رفيعة لإنشاء وتنظيم مؤسسة إجرامية شاسعة، لديَّ قدرات عقلية خاصة من أجل هذه الأمور بالغة الدقة والتخصص، لا يوجد أحد مثلي، ولكن هذا يمنحني إحساسًا بالوحدة، لا يوجد أحد يُماثلني، لا أحد بنفس المستوى العقلي». التفت موريارتي ليواجه موران. «هذه ليست إهانة لك يا صديقي العزيز، الإهانات هي مجرد أشياء عاطفية، ما أتحدث عنه هنا هو حقائق جامدة، تخيَّل إذن عندما تصورتُ أن هذا الرفيق شيرلوك هولمز ليس فقط شخصًا يُحتمل أن يكون في نفس مستواي العقلي، ولكنه أيضًا شخص مسعاه يتعارض مع مسعاي تمامًا، كم هذا مثير! إنه خصم على رقعة شطرنج ضخمة من القانون والنظام، كم سأقضي وقتًا مُحفِّزًا للعقل وأنا أعمل على خطط وحِيَل لتحدي وإرباك وهزيمة هذا الرجل، هذا سيرفع مستوى التحدِّي في اللعبة وسيُعطيني الإثارة التي أحتاجها كثيرًا وغالبًا ما أفتقدها في حياتي».

«ولكنه فشل في اختبارك الأول».

لوَّح موريارتي بيده ناحية الحقيبة وقال: «بالطبع، لقد سمح لنا بأن نحصل على الغنيمة».

«حسنًا، على الأقل لم تضع مجهوداتك هباءً، لدينا عشرة آلاف جنيهٍ إسترليني».

لم يُجب البروفيسور، فلم يكن موران ليفهم أن عشرة آلاف جنيهٍ هو أمر تافه مقابل الفرصة في خوض صراع مع عقل مماثل.

فتح موران الحقيبة ووضع يده بالداخل ثم صرخ: «انتظر لحظة». كان صوته مليئًا بالقلق والتوجس.

لمعت عينا البروفيسور باهتمامٍ وقال: «ما الأمر؟».

على الفور ودون كلمة واحدة قلب موران الحقيبة رأسًا على عقب مُفرغًا محتوياتها على مكتب البروفيسور، تساقطت منها أوراق بيضاء فارغة، عدا من ورقة واحدة بدا أن عليها كتابة، بحركة سريعة أخرج موريارتي هذه الورقة من بين كومة الأوراق ثم قرَّبها من المصباح على مكتبه وقرأها بصوتٍ عالٍ: «المعذرة، ش.هـ».

طوى البروفيسور الورقة بدقة ثم انفجر في الضحك.

## -٤-

## من مذكرات جون ووكر

كان ألكسندر رييد أكثر الرفاق لطفًا وإقناعًا، ومع كأس البراندي الثالث لم أكن قد أخبرته بقصة حياتي فقط ولكن وصفت له أيضًا تفاصيل معركة مايواند وتبعاتها الفظيعة التي لم تُنهِ فقط مسيرتي العسكرية ولكنها كما رأيت قد أفسدت ما تبقَّى من حياتي أيضًا، كان يُعلق قليلًا بينما أتحدث، بالكاد يومئ برأسه من وقتٍ لآخر في تعاطف، وأحيانًا يُعيد تكرار الحقائق ليتأكد من أنه قد فهمها بشكلٍ صحيح. لم يكن لديَّ فكرة حينها عن سبب اهتمامه البالغ بقصتي، ولكن كان من الرائع بالنسبة لي أن أكون قادرًا على إزاحة العبء عن صدري وأن أطلق سراح البؤس واليأس اللذين أبقيتهما بداخلي، إذا استخدمنا المصطلحات الطبية فأفترض أنها ستكون هذه جلسة علاجية بشكلٍ ما. بغض النظر عن ماهيتها فقد أحسست بنوعٍ من التحسن بعد أن انتهيت.

بقي رييد صامتًا لبعض الوقت بعد أن انتهيت من حكايتي وبدأ يحدق إلى شرابه مُتأملًا، تساءلتُ إن كنت جعلت نفسي أبدو أحمقَ، وكنت على وشك أن أستأذن منه لكي أعود إلى مقصورتي عندما التفت إليَّ متنهدًا ثم قال: «لا شكَّ أنك قد قضيت وقتًا صعبًا، وأعتقد أنهم عاملوك بإجحافٍ شديد، من الممكن أن يكون العالم قاسيًا في بعض الأوقات، ولكن لا داعي لليأس، كما كان صديقي القديم بيتر يقول عندما تُهزم مدرستنا في الكريكت، ولكن كما ترى أنا أستطيع مُساعدتك، أو بالأحرى لديَّ أصدقاء يمكنهم إسداء العون لك، أن يساعدوك لكي تقف على قدميك مُجددًا».

«هذا كرم بالغ منك يا رييد، ولكني لا أستطيع أن أقبل أي صدقات».

ضحك رييد وقال: «يا لك من رجل نبيل، مبادئك لن تسمح لك بهذا، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي خجلًا وقلت: «شيء كهذا».

«حسنًا، إذن ستكون مسرورًا لمعرفة أنني لا أقترح شيئًا من هذا القبيل. هؤلاء الأصدقاء.. قد يعرضون عليك نوعًا من العمل».

«أي نوع من العمل؟ كطبيب؟».

هز رفيقي كتفيه وقال: «أنا لست واثقًا، لا يمكن أن أكون واثقًا من أي شيء بالتحديد، ولكني أتوقع أنني إن زكَّيتك عندهم فسيكونون قادرين على إيجاد شيء يُناسبك ويُناسبهم، إنها إمكانية لا احتمالية على كل حال، أنا أجند بعض الأشخاص من أجلهم من وقتٍ لآخر».

بدا الأمر غامضًا للغاية، وفي ظروفٍ طبيعية كنت سأشعر بتحفظٍ قوي حيال قبول مثل هذا العرض المُبهم، ولكن هذه لم تكن ظروفًا طبيعية، كنت قد نسيت ما تكون عليه الظروف الطبيعية منذ زمنٍ بعيد، كنت غريقًا وكانت هذه قشَّة فتشبثت بها.

«سأكون مسرورًا للمُساعدة».

تهللت أسارير ريبد وقال: «رائع، سألتقي بعد الهبوط من السفينة بأحد الأصدقاء الذين ذكرتهم، رجل مُهذب يُدعى سكولر، سأعرفك عليه وسأقوم بدور الراعي الخاص بك، ثم سنرى ماذا سنفعل بعد ذلك، اتفقنا؟».

«لا أعرف كيف أشكرك بما يكفي».

غمز ريبد بعينه ورفع كأسه الفارغ وقال: «حسنًا، يُمكنك أن تملأ هذا الكأس الصغير».

***

نمتُ جيدًا هذه الليلة، لأول مرة منذ شهور عديدة، أقنعت نفسي أنه لم يكن الكحول هو ما جعلني أغرق في نومٍ عميق غير مضطرب، ولكنه بالأحرى الإحساس الجديد بالأمل الذي وُلِدَ بداخلي بعد الالتقاء بألكسندر ريبد. في ساعات قليلة قصيرة أقنعني أن حياتي لم تكن على مشارف الانتهاء، وأنني بطريقة ما يُمكنني أن أحظى بمُستقبل ناجحٍ وسعيد. ليس هذا فقط، فقد مدَّ لي يده في صداقة لكي يُساعدني على تحقيق ما ظننت سابقًا أنه مستحيل، أن أرمي الماضي وراء ظهري وأن أصنع حياة جديدة. حياة جديدة.. تموجت هذه الكلمة كحطام سفينة في بحر النوم قبل أن يغمرني أخيرًا.

جاء الصباح الرمادي جالبًا معه شكوكه، وبالتفكير في مُحادثتي مع ريبد في ضوء الصباح البارد تيقَّنت من أن إحياء روحي جاء نتيجة تأثير البراندي لا العرض المُبهم الذي قدَّمه لي رفيقي الجديد. تزايدت شكوكي عندما فشلت في العثور على ريبد في أي مكان على متن السفينة، بحثت في كل الطوابق وغرف الطعام والبارات، ولكن بلا فائدة، حتى أنني طلبت من ضابط

السفينة رقم مقصورته ولكنه أخبرني أنه لا يوجد أحد بهذا الاسم على متن أورونتس. كنت مذهولًا، وبالتفكير في أحداث الليلة السابقة بدأت أرى أن ما حدث كان يُشبه الحلم، ربما تخيلت الأمر، الأمر برمته يُشبه رغباتٍ دفينة أتمنى أن أحققها، لقد حصلت على أذن متعاطفة وصداقة وعرض وظيفة، رُبما أنا على وشك أن أصاب بالجنون.

عند حلول المساء كُنَّا نُبحر عبر نهر التيمز وكنتُ أحزم أمتعتي الضئيلة استعدادًا للهبوط، كان بندول روحي يتأرجح عائدًا إلى المنطقة المُظلمة وأحسستُ بإحباطٍ شديد. لحقت في بؤس بحشد المسافرين على سطح السفينة لأُشاهد بعض معالم لندن المشهورة، كانت الآن مجرد ظلال تمتزج بالسماء الآخذة في الإظلام.

سمعت صوتًا بجواري يقول: «آه، ها أنت ذا، كنت أبحث عنك».

التفت فرأيت لدهشتي وجه رييد المُبتسم، كان يرتدي معطفًا أسود باهظًا وياقة من فرو الأستراخان وقبعة أوبرا.

أجبته بشكلٍ تلقائي وساخط بشكلٍ غير معقول: «وأنا كنت أبحث عنك».

تجاهل رييد فظاظتي وقال: «يبدو أننا كنا نلعب لعبة الغُمَّيضة إذن. حسنًا تنتهي الرحلة بالتقاء الأحبة، أليس كذلك؟ الآن سوف تُغادر القارب معي، صديقي سكولر سيكون في انتظارنا، وبعد ذلك يُمكننا الذهاب إلى الملهى الخاص بي لتناول الطعام ومُناقشة المستقبل، ما رأيك؟».

طريقته الجذابة والسلسة بددت على الفور كل غضبي ويأسي وإحباطي في ثوانٍ قليلة.

ابتسمت وقلت: «سأكون مسرورًا للتصرف حسب خطتك».

«أحسنت».

بعيدًا في المدينة كان من الممكن سماع أجراس بج بن الكئيبة وهي تشير إلى الساعة كأنها ترحب بالمسافرين المتعبين الذين يوشكون على أن يضعوا أقدامهم مرة أخرى على تراب وطنهم.

أُنزلت ألواح الهبوط الخشبية بينما الجمهور المنتظر على جانب الرصيف يصيح في بهجة عارمة، راح الناس يلوحون ويصرخون ورُفِعَ الأطفال والرُّضَّع

لأعلى، وبدا الهواء مُشبَّعًا بالحماس وترقّب اللقاء. أحسست بالغيرة وأنا أنظر إلى الوجوه المتلهِّفة المُبتسمة، لم يكن في انتظاري أي أحضان أو قبلات أو مصافحات، لم يكن هناك أحد ينتظر ليحييني ويرحب بعودتي إلى الوطن.

قال رييد وهو يجذبني من كمي: «ابق بقربي يا صديقي، سيكون هناك اندفاع رهيب بمجرد أن تُرفع الحواجز».

كان مُحِقًّا، فقد اندفع حشد الرُّكاب للأمام سعيًا للهرب من حواجز السفينة ضاغطين أنفسهم عبر ممرات الركاب الضيقة، كان الأمر أشبه بأن تعلق في تيار نهر جامح وتنجرف معه رُغمًا عنك. انجرفنا أنا ورييد معهم ونحن نُدفع هنا وهناك مثل الأخشاب الطافية.

همس رفيقي في أذني ونحن نُدفع بالقرب من الممر: «أنا أعد نفسي مُحبًّا لأبناء وطني، ولكني لست واثقًا أني أحبهم قريبين إلى هذه الدرجة».

بعد خمس دقائق وجدنا أنفسنا نقف على الرصيف غير مهندمين ونحن نلهث من أجل الهواء.

«حسنًا، ها نحن ذا يا ووكر، في البلدة العجوز، استنشق هذا الهواء الرطب الملوث، عظيم، أليس كذلك؟».

ابتسمت، كان رييد يجد البهجة والتسلية في أغلب الأشياء، لم يبدُ أن هناك شيئًا يمكن أن يُعكر مزاجه أو نظرته المُتفائلة للحياة، وجدت إعجابي وانبهاري برفيقي الجديد يزدادان أكثر وأكثر، ملأت صدري بالهواء، ورُغم كونه ملوثًا بخليطٍ من الأبخرة والروائح ومُختلفًا تمامًا عن هواء أفغانستان الجاف المُشبع بالغبار إلا أنه بدا رائعًا بالنسبة لي.

وقفنا على الرصيف لبعض الوقت، والركَّاب يسرعون من جوارنا، والحمَّالون ينقلون صناديق كبيرة إلى عربات النقل المنتظرة، كان الظلام قد حلَّ ولا يُضيء المنطقة سوى مجموعة من المصابيح الزيتية التي غمرتنا بضوء أصفر باهت. لم يشعر أي منا برغبة في الحديث، كُنَّا فقط نأخذ وقتنا لتقبل واقعنا الجديد. بعد أسابيع من التموج على مياه في بيئة مُصطنعة مُغلقة عُدنا أخيرًا إلى إنجلترا، وطننا، عُدنا إلى حيث ننتمي، وأحسست في قلبي أنه أيًّا كانت المشاكل المجهولة التي يجب عليَّ أن أواجهها فإنني أُفضِّل أن أواجهها هنا أكثر من أي مكانٍ آخر.

أثناء تفرُّق الحشد خرج رجلٌ طويل مهيب من الظلمة ووقف لوهلة أسفل واحدٍ من المصابيح الزيتية وأخذ ينظر إلينا، كان طوله أكثر من ست أقدام، ويزداد طوله بالقبعة التي يرتديها. لمحه رييد فرفع يده في تحية، حثَّ هذا الغريب على الاقتراب منه، كان يتحرك كالقطط، بحركة مرنة ناعمة، لم تصنع قدماه أيَّ صوتٍ على أحجار الرصيف الرطبة، لاحظت وهو يقترب منا أنه رجل أسود، بوجه وسيم على نحو ملحوظ، توقَّف على مسافة قليلة من موضعنا ولمس حافة قبعته بعصاته ذات الطرف الفضي مُجيبًا على تحية رييد.

تهلَّلت أسارير رييد وقال: «سكولر صديقي القديم، من الرائع رؤيتك مرة أخرى». ثم خطا للأمام وأمسك بيد الرجل ليصافحه بحماس.

لم يكن هناك أيُّ رد واضح، لا ابتسامة مُتبادلة ولا كلمات حميمية، بالكاد تغير التعبير المرتسم على وجه الرجل. نظر وراء رييد ناحيتي فظهر في عينيه بعض الاهتمام بوجودي، لاحظ رييد ذلك فتخشَّب جسده كله في إحراج ثم ابتسم في توتر ناحيتي وقال: «أستميحك عذرًا يا ووكر لدقيقة، لأتبادل بعض الكلمات على انفراد مع صديقي القديم».

أومأت برأسي وأنا أشعر كطفل قد تركوه خارج مكتب الناظر بينما الأساتذة والناظر يناقشون أي عقوبة ستُطبَّق.

تحرك الرجلان بعيدًا حيث راح رييد يتحدث بسرعة بطريقة مُفعمة بالحركة، لم أكن قادرًا على سماع ما يقوله ولكن كان من الواضح أنه يُخبر الغريب صارم الملامح بكل شيء عني، من وقتٍ لآخر كان الرجلان ينظران ناحيتي كأني شيء معروض في مزاد علني، يُناقش أمري اثنان من المزايدين. من الواضح أن رييد قد بالغ في تقدير الترحيب والمُساعدة التي سأتلقَّاها من أصدقائه، وكان عليه أن يقنع سكولر متحجر المشاعر بفائدتي، أحسستُ بعدم الارتياح والرغبة في المُغادرة والسير بعيدًا، ما منعني هو معرفتي بأنه ليس لديَّ مكان لأذهب إليه، خُلاصة القول كنتُ مُحتجزًا.

بعدما انتهى رييد من حديثه انتظر في توتر إجابة سكولر، ظل الرجل صامتًا لبعض الوقت ثم سأله بعض الأسئلة. في الصمت المتزايد سمعت صوته المُظلم الناعم عبر هواء الليل.

وفجأة تحرك سكولر بسرعة كالفهد، وقبل أن أنتبه وجدته واقفًا بجواري ويده المُغطاة بقفاز ممدودة ناحيتي وابتسامة عريضة مرتسمة على وجهه الوسيم الداكن. «دكتور ووكر، أنا مسرور لمُقابلتك، أنا لينكون سكولر».

أمسكت بيده في صمت وصافحته، وكما ينطفئ فتيل المصباح اختفت الابتسامة بسرعة.

«لديَّ عربة في انتظاري، علينا أن نذهب إلى ملهى ريبد من أجل الشراب والطعام، ولنوفر لك مكانًا تقيم فيه الليلة، أثناء وجبتنا سنناقش مُستقبلك، أعتقد أن هذه الترتيبات تتماشى مع رغباتك؟».

أومأت برأسي وقلت: «بالطبع». دون أن أكون واثقًا إن كانت كذلك أم لا. أنا أعرف أنه في الواقع ليس لديَّ أيُّ خيار آخر. ومرة أخرى كان قرارًا سيغير حياتي للأبد.

***

«أين هو الآن؟». كان بروفيسور موريارتي يُقدِّم لزائرَيْهِ كأسين من البراندي قبل أن يجلس وراء مكتبه الكبير.

ابتسم ريبد وهو يُمسك كأس البراندي بكلتا يديه وقال: «في مَلهاي، يُغط في النوم بلا شك، لقد حرصنا على أن يتناول الكثير من الطعام والشراب».

أومأ موريارتي برأسه ثم التفت إلى زائره الآخر وقال: «أي انطباعات؟».

مط سكولر شفتيه ثم قال: «أنا واثق أن هناك حديدًا ونارًا في طبيعته، إنه مُحبط في الوقت الحالي، ولكن مع الوقت ستنهض العنقاء».

رفع ريبد كأسه في نخبٍ ساخر ثم قال: «بمُساعدتنا، أليس كذلك يا بروفيسور؟».

لم يبتسم موريارتي ولكنه قال: «نادرًا ما تكون مُخطئًا في العثور على مُجنَّدي المُنظمة الفعَّالين يا ريبد، ولكن هذه المرة يجب أن أكون واثقًا تمامًا بشأن هذا الرجل، لديَّ في عقلي مشروع مُحدَّد من أجله.. إن كان هو الرجل الصحيح».

«لا شكَّ أن كلَّ المعلومات المتعلِّقة بسيرته الذاتية صحيحة، لقد قرأت عن قضيته في الجرائد المحلية في قندهار وفكَّرتُ حينها أنه قد يكون مُرشَّحًا مُناسبًا للتجنيد. عندما عرفت أنه سيُبحر على نفس القارب إلى هنا جعلت مهمتي هي معرفة كل شيء عنه».

ابتسم موريارتي هذه المرة وقال: «إن دقّتك جديرة بالثناء، ولكن الحقائق لا تكشف دومًا عن طبيعة الإنسان».

قال ريد وقد أحس بالإطراء: «أجل، ولكني راقبته عن كثب أثناء الرحلة، وقضيت ساعاتٍ عديدة أتحدث معه. إن لديه كل المؤهلات التي نبحث عنها في المُجنَّدين؛ النُّبل والشجاعة، ولكن حياة مُحطَّمة، وطبيعة تجيش بالمرارة. إنه جاهز، أنا واثق».

قال سكولر بهدوء مُتَّفِقًا معه: «أعتقد أن ريد مُحقٌّ، إن ووكر في حالته العقلية الآن ككلب أُنقِذَ من حياة مُدمَّرة، سيُقدِّم الطاعة والولاء لأي شخص يُظهر له أيَّ نوعٍ من العطف والكرم».

أخذ موريارتي رشفةً من البراندي وتركها مُحتجزة في فمه حتى بدأت تحرق لسانه قبل أن يطلق سراحها، ثم قال: «لقد شجَّعني حديثكما أيها السيدان، إن كان ما تقولانه صحيحًا فإنه من حسن حظنا أن هذا الرجل المُتميز قد انجرف على شاطئنا، في هذا الوقت تحديدًا، يبدو أنه لديه كل المؤهلات المطلوبة للمهمة التي أُفكِّر فيها».

تساءل ريد: «هل يمكن أن أسأل ما هي هذه المهمة؟».

ابتسم موريارتي وقال: «بالطبع يُمكنك، ولكن لا يجب أن تتوقع إجابة، ليس الآن على الأقل».

نظر ريد بعيدًا في توتر وأخذ جرعة كبيرة من البراندي.

غرقت الغُرفة في صمت، صمت يعرف كلا الزائرين أنه ليس من اللائق خرقه، كان البروفيسور يُفكِّر ويجب أن يكون أول من يتكلم. جلس سكولر وريد في سكون، والصمت يُخيِّم على الغرفة مُعززًا من صوت فرقعة الفحم في المدفأة وتكَّات الساعة الهادئة. في النهاية بدأ البروفيسور يطرق بأصابعه على المكتب في إيقاع رتيب. وأخيرًا تحدَّث قائلًا: «أنتما مُساعدان ممتازان، وأنا أثق في كلامكما وحكمكما ثقة عمياء، ولكن في هذه الحالة أحتاج أن أحكم بنفسي قبل أن نمضي قدمًا في هذه الأمر، سوف أذهب إلى ملهاك غدًا في الظهيرة يا ريد، احرص على أن يكون هناك غُرفة خاصة مُتاحة حيث يُمكنني أن ألتقي بالدكتور جون هـ. ووكر».

«سأفعل ذلك».

«جيد جدًّا، والآن أيها السيدان لا أعتقد أنني أحتاج لإبقائكما أكثر من هذا بعيدًا عن فراشيكما، أو أي هدف آخر في رأسيكما في هذه الساعة المتأخرة، لذا أتمنى لكما ليلة طيبة».

بعد أن غادر الرجلان أمسك موريارتي بنُسخة من مجلة تيمبل بار التي جلبها معه رييد هذا المساء، كانت بتاريخ ١٨٧٨، فتحها على الصفحة التي حددها رييد؛ «الخنجر المفقود» - قصة غموض بقلم جون هـ. ووكر. جلس بروفيسور جيمس موريارتي على كُرسيه وبدأ يقرأ.

## -٥-

## من مذكرات جون ووكر

لم ألتقِ بالبروفيسور جيمس موريارتي سوى مرتين، المرة الأولى كانت في غُرفة صغيرة مُظلمة في ملهى ريبد صباح اليوم التالي لعودتي لإنجلترا.

في الليلة السابقة كنت قد تناولت العشاء مع ريبد وسكولر الذي رُغم حفاظه طيلة الوقت على عدم إظهار مشاعره إلا أنه قضى الوقت كله يسألني عن حياتي وعائلتي وتوجهي السياسي ونظرتي حيال أمور عديدة مُختلفة. أدركت أنهما في الواقع يجمعان سيرتي الذاتية كنوعٍ من التمحيص، لم أُمانع ذلك، كان من الجيد أن أتحدث عن نفسي بحُرية مُجددًا دون الخوف من الاستهجان، وكنت أعرف أن أي مؤسسة أو منظمة تتسم بالجودة تكون لديها طريقتها الخاصة في تقدير قيمة الموظفين المُستقبليين، الشيء الوحيد الذي كان يُحيرني هو طبيعة المنصب الذي يفكرون في وضعي فيه، ولكنني كنت مُستعدًّا لأن أتحلى بالصبر، لم يكن هناك أيُّ شيء آخر ليشغل وقتي.

في الصباح التالي وجدت رسالة على طاولة الإفطار التي جلبها أحدهم إلى غُرفتي. كنت قد قضيت الليلة في الملهى ونمت متأخرًا مُستمتعًا برفاهية النوم في فراش مُعتبر بعد أشهر من النوم على القش والخيش في سجن الجيش، وأسابيع من النوم في فراش ضيق على متن السفينة، وتفاجأت عندما أدركت أن الساعة قد تجاوزت العاشرة.

كان الخطاب من ريبد.

عزيزي ووكر،

أتمنى أن تكون قد نمت جيدًا، هناك العديد من الأمور المُتعلِّقة بالعمل التي يجب أن أهتم بها بعد بقائي خارج البلدة لبضعة أشهر، أنا لست واثقًا متى سنلتقي مُجددًا، ولكن رئيس المُنظمة التي أُمثلها سوف يلتقي بكَ في الملهى عند الظهيرة، وأعتقد أنه سيعرض عليك دورًا مُثمرًا في منظمتنا، سيكون لقاؤكما في الغُرفة الحمراء في الطابق الثاني، أنصحك أن تكون على أُهبة الاستعداد.

اسمح لي أن أنتهز هذه الفُرصة لأتمنى لك حظًّا سعيدًا.

مع خالص مودتي،

النقيب أ. رييد (المُتقاعد)

كانت نبرة الخطاب تُوحي بأنني لن أرى رفيقي الجديد مُجددًا، كان الأمر كأن دوره في عملية التجنيد الغريبة قد انتهى وأنه قد حان الوقت ليتنحى خارج الصورة، لم أكن أعرف إلى أين يقودني كل هذا، ولكني طمأنت نفسي أنه بحلول وقت الظهيرة مع وصول ضيفي الهام سأعرف المزيد.

في ساعة اللقاء اقتادني أحد الخدم إلى الغُرفة الحمراء، غُرفة صغيرة مليئة بالكتب وبها أثاث أحمر اللون، كان هناك كرسيان كبيران موضوعان على جانبي المدفأة، التي كان بها نار هادئة يبدو أنها قد أُشعلت منذ وقتٍ قريب وتكافح لتبقى على قيد الحياة، ما أن صرت وحدي حتى بدأتُ أتصفح أرفف الكتب. ثم سمعت صوتًا يُخاطبني: «أخشى أنك لن تجد شيئًا مثيرًا للاهتمام يا دكتور، إنها مجرد مجموعة من الكتب العتيقة من الدرجة الثانية، لا يوجد بها قصص مُغامرات على الإطلاق».

التفتُّ ورائي لأجد أن الصوت ينتمي إلى شاب ساخر يجلس على الكُرسي الذي ظهره لي، ثم اعتدل واقفًا وتصافحنا، قبل أن يُكمل قائلًا وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة: «أنا أعرف ميلك لقصص المُغامرات، لقد قضيت ساعة ممتعة أقرأ قصتك «لغز الخنجر المفقود» في الليلة السابقة».

تلعثمت قائلًا ببعض الدهشة: «حقًّا؟ لقد كتبتها منذ وقتٍ طويل، عندما كنت في التدريب الطبي العام، أوقات الراحة الطويلة بين المريض والآخر...».

اتسعت ابتسامته وقال: «أنا بروفيسور جيمس موريارتي، وأنا مسرور للغاية لمُقابلتك يا دكتور جون هـ. ووكر، اجلس من فضلك».

فعلت كما قال لي.

«أنا أعرف كل شيء عنك، حسنًا، ربما هذه مُبالغة، فمن يُمكنه أن يعرف كل شيء عن أي شخص؟ هناك دومًا أجزاء خاصة مُظلمة في العقل والروح لا تنكشف أبدًا لأي شخص، لذا اسمح لي بإعادة صياغة هذه الجملة، أنا أعرف الكثير عنك، وعلى الجانب الآخر أنت لا تعرف أي شيء عني».

«عدا من اسمك وأنك على صلة بألكسندر رييد ولينكون سكولر».

لمعت عينا موريارتي في استمتاعٍ وقال: «هذا حقيقي، ولكنه قليل للغاية وغير ذي أهمية، إذا حاولت أن تبحث عن السيدين المذكورين لتأكيد ما تعرفه بشأن علاقتنا فأنا واثق أنك لن تعثر عليهما». اختفت الابتسامة وصارت عيناه باردتين.

قلت وأنا أهز رأسي: «المعذرة، أنا لا أفهمك...».

«بالطبع لن تفهمني أيها الدكتور العزيز، دعني أُساعدك قليلًا، أنا رئيس منظمة إجرامية شاسعة، إنها هيكل فعَّال يتولَّى تنفيذ عمليات السرقة والتزوير وأحيانًا القتل».

صمت ورفع أحد حاجبيه مُنتظرًا رد فعلي على هذا الكشف المخيف، لم أعرف إن كانت هذه مُزحة شنيعة أم أن هذا الرفيق مجنون، لا شكَّ أن تعبير وجهي قد أفصح عن أفكاري.

«أنا لا أقول شيئًا سوى الحقيقة، نصف الجرائم على الأقل التي تُرتكب في هذه المدينة الكبيرة الرمادية يرتكبها رجالي، وأنا العقل المُدبر والمسئول عن هذه المنظمة المُربحة».

«إما أنَّ هذا اختبارٌ غريب، أو أنه مزحة سمجة!».

هزَّ موريارتي رأسه وقال: «إنها ليست مُزحة، رُغم طبيعة مهنتي إلا أنني أؤمن بقول الحقيقة، عند الضرورة تكون الأمانة فضيلة جيدة، حتى وإن كان يجب ممارستها بشكلٍ مُقتصِد، أنا أؤكد لك أنه ليس لديَّ أيُّ نية لتضليلك».

اعتدلت واقفًا من الكُرسي والغضب يغلي بداخلي وقلت بحدة: «شكرًا لك على هذا يا سيدي، ولكن لمَ بحق السماء تشعر أنك بحاجة لأن تُخبرني بهذه المعلومات؟ أنا لا أعرف، وعلاوة على ذلك أنا لا أُريد أن أعرف، ولكن دعني أقول بوضوح لكيلا يكون هناك أيُّ سوء فهم في المسألة، إن كنت تحمل أي نوايا لتوريطي في.. أنشطتك، فدعني أنزع عنك هذه الأفكار الآن».

لم يُجب موريارتي، ظلَّت ملامح وجهه جامدة، ولكن رأيتُ لمحة من الاستمتاع في عينيه.

أكملت قائلًا: «وبناءً عليه أعتقد أنه لم يكن هناك أي جدوى مِن هذه المُقابلة، وهكذا أستميحك عذرًا...».

تحركت ناحية الباب.

«توقف عندك يا دكتور». كان صوته جافًّا وقاسيًا كفرقعة سوط «سوف تشعر بالامتنان لأن المعرفة التي تحوذها الآن بخصوص «أنشطتي» كما قلت أنت بلباقة سوف تضعك في موضعٍ يحظى بالامتياز ولكنه كما أخشى محفوف بالخطر، لقد صرتَ الآن تهددً سريتي وأمني، أؤكد لكَ يا دكتور أنك إن غادرتَ هذه الغُرفة الآن فستكون ميتًا في غضون ساعة، مُجرد جثة أُخرى تطفو على سطح نهر التيمز».

«ماذا؟!». تجمَّدت الدماء في عروقي مع تلك الكلمات، أيًّا كانت تلك المسرحية الكابوسية التي وجدت نفسي ألعب دورًا فيها فقد كنت مقتنعًا من أسلوب موريارتي أنه يعني كلَّ كلمة في تحذيره.

«صدقني، إنه ليس مجرد تهديد أجوف، والآن اجلسٍ من فضلك يا دكتور وحاول ألا تبدو غاضبًا للغاية هكذا، أنت قد ارتكبت خطأً بعدم إنصاتك للحكاية بأكملها، وهو خطأ لم أتوقع أن يرتكبه طبيب أو كاتب».

أحسست أني محاصر، عالق في شباك شيطانية لمكيدة لا أستطيع تفسيرها، أحسست أني مُخدَّر بالخوف وعقلي يترنح فألقيت بجسدي على الكرسي، ما الذي ورَّطتُ نفسي فيه بحق السماء؟ كان هناك شيء بشأن هذا الرجل، في حضوره وفي الهالة المُخيفة التي تُحيط به، أقنعني أن كلَّ ما قاله كان حقيقيًّا، وأن حياتي بالفعل كانت بين يديه.

«أنا لا أُفشي أسرار عملي لأي غريب، ولكن بالطبع بشكلٍ ما أنت لست أيَّ غريب، أنا أعرف الكثير عنك بفضل زميليّ النقيب ريبد والسيد سكولر».

حتى ذُكِرَ اسم ريبد لم يربط عقلي المشوش بينه وبين المخلوق الجالس أمامي، ولكن فجأة بدا أن هناك قطعًا صغيرة كثيرة تطفو معًا في عقلي لتُشكِّل صورة مزعجة للغاية. ريبد وتمويل صندوق طعام الجيش. ما أن تصير لصًّا حتى تظل لصًّا إلى الأبد، تبقى بصُحبة اللصوص، ولقد رأى أني ساخطٌ ومُحبط بما يكفي لأُلطِّخ يدي بالجريمة وأنضم إلى عصابته القذرة. تعاظم الغضب بداخلي مُجددًا، لو كان هذا الوغد هنا لضربته حتى أسقطته أرضًا.

أكمل موريارتي قائلًا وهو يخترق أفكاري: «كن مُطمئنًا يا دكتور، ليس لديَّ أيُّ نية في أن أضع عتلة في يدك وقناعًا أسود على وجهك وأطلب منك أن

تسرق بيتًا، أنا لديَّ في عقلي من أجلك شيئًا أكثر رقيًّا وأكثر اتساقًا مع القانون من مُجرد كسر قفل بيت». ثم ضحك.

فتحت فمي لأُجيبه ولكنه رفع يده المُغطَّاة بقفاز ليُسكتني.

«القصة كاملة يا ووكر، القصة كاملة قبل أن تقول المزيد من الكلمات المتهورة، اسمح لي أن أزوِّدك بكل الحقائق ثم يمكننا أن نناقش المسألة مثل السادة المحترمين».

***

كان أمبروز جونز عطشان وقال لنفسه إنه يجب أن يكون كذلك بعد أن سار عبر المدينة كلها طيلة الصباح زائرًا المؤسسات المختلفة التي يمتلكها كي يجمع الإيجار. كان يراها جونز مؤسسات ولكنها في الواقع كان مُعظمها مُجرد بيوت قديمة مُتداعية في أفقر أجزاء من المدينة؛ هاوندزدتش، ووايت تشابل، وبيثنال جرين. كانت الجرذان والقوارض الأخرى تتشارك السكن مع أفقر العائلات في هذه المساكن الرطبة الكئيبة. كان من المؤسف بالنسبة لأمبروز جونز أنه لا يستطيع أن يتقاضى الإيجار من الجرذان والقوارض بالإضافة لمستأجريه التعساء. كان هناك عقار واحد في حالة معقولة في قلب المدينة الكبيرة، وهو الذي يقطن فيه جونز نفسه، تاركًا الطابقين العلويين لسيديه الصغيرين المُهذبين كما يُشير إليهما. كان من المفترض أن تكون هذه محطته الأخيرة، ولكنه بالنظر إلى ساعته أدرك أن الوقت قد تجاوز الظهيرة، فقرر بما أنه قد قضى صباحًا جيدًا -لا متعثرين وتهديد واحد بالإخلاء- أنه سيكافئ نفسه بكأس من الجعة وبعض الطعام في حانته المُفضَّلة سباروز نيست في هولبورن، كانت الحانة تقع في آخر شارع ضيق متفرع من الطريق العام، وبينما جونز ينعطف في الشارع اقتربت منه على الرصيف عربة أجرة يجرها حصان ومال الراكب خارجًا ليخاطبه. كان رجلًا قوي البنية مفتول العضلات ويرتدي حسبما يرى جونز مثل العديد من رجال الأعمال في المدينة الذين يهرولون في الأنحاء كالنمل بالقرب من سانت باول.

قال الغريب: «المعذرة يا سيدي، أتساءل إن كنت تستطيع مُساعدتي».

لاحظت عينا جونز الثاقبتان أنه يُمسك بعملة في يده، فابتسم ورفع قبعته وهو يخطو للأمام قائلًا: «سأكون مسرورًا لمُساعدتك إن استطعت يا سيدي».

بادله الرجل القوي الابتسامة ثم فتح باب العربة وقال بصوتٍ مُنخفض: «سؤالي ذو طبيعة حساسة». ثم أشار لجونز كي يقترب فأطاعه مالك العقارات الطمَّاع على نحو لائق. لاحظ حينها أن هناك راكبًا آخر في العربة وملامحه غارقة في الظلال.

سأل جونز: «ما هو السؤال إذن؟». وقبل أن يعرف ما حدث طوَّقه الغريب بذراعه وجذبه من عنقه للأمام، كانت حركة خبيرة، فهي لم تأخذ جونز على حين غرة فقط ولكن الضغط على قصبته الهوائية منعه من أن يصرخ من أجل النجدة.

تمتم المُعتدي: «الآن لا تقاوم». وبجذبة أخرى رفع جونز من الأرض وسحبه إلى داخل العربة.

أُغلق الباب وأسدلت الستارة قبل أن تنطلق العربة. كان جونز مُمدَّدًا على أرض العربة وهو يلهث من أجل الهواء ويتساءل إن كانت حياته على وشك الانتهاء، كان يُفكر في المال الموجود في محفظته الذي جمعه هذا الصباح، ولكنه في لحظة نادرة فكَّر في احتمالية أن يفقد حياته على يد هذين النذلين أكثر من فقدان مكسبه الحرام.

قال في خوف: «خذا المال ولكن لا تؤذياني، أرجوكما لا تؤذياني».

«نحن لا نسعى وراء مالك يا سيد جونز».

جاء الصوت من الظلمة، لم يكن صوت الشخص الذي اعتدى عليه، كان ذا لكنة غريبة مُظلمة، ولكنه بدا أجنبيًّا بشكلٍ ما.

جعله هذا يشعر بالهلع بدلًا من أن يطمئنه، إن كانا لا يسعيان وراء ماله فهما يريدان قتله. حاول أن يعتدل واقفًا وفي الوقت نفسه أن يصرخ بأعلى صوته، «النجدة! جريمة قتل!».

أحسَّ بضربة على جانب رأسه، شيء ثقيل كمؤخرة مسدس يرتطم بصدغه، اختنقت صرخات النجدة في حلقه وتهاوى ساقطًا مُجددًا إلى الأرض دائخًا وهو يلهث من أجل الهواء.

لمع الضوء لوهلة في العربة كأن أحد الرجلين قد أشعل سيجارة، ومن خلال عينيه الغائمتين رأى جونز مختطفيه، كان هناك الرجل قوي البنية الذي اقترب منه والذي قد ضربه للتو بناءً على المسدس الذي يُمسكه بيده، كان

الرجل الآخر الذي يجلس في رُكن العربة مع سيجارته هو رجل أسود حسن المظهر.

«اهدأ يا سيد جونز، نحن لا نُريد إيذاءك».

«بحق الشيطان، لقد فعلتما، لقد كدتما أن تحطما رأسي».

«هذا رد بسيط على مقاومتك، نحن نريد أن نطلب منك خدمة وسوف يُسعدنا أن ندفع لك».

مع ذكر المال تزايدت نبضات جونز.

«خدمة؟ أيُّ خدمة؟ لمَ لم تأتيا إلى مكتبي في شارع مونتاجو، لمَ تخطفاني إن كان كل ما تطلبانه مني خدمة؟».

جاء الصوت عبر الظلمة قائلًا: «لدينا أساليبنا يا سيد جونز، بهذه الطريقة ستعرف ما يجب عليك أن تتوقعه إن لم توافق على عرضنا».

«ما يجب أن أتوقعه؟!».

«أعتقد أنك تعرف ماذا أقصد».

أحس جونز بفوهة المسدس البارد تضغط على جبهته، كان فمه الآن جافًّا في خوف، واستطاع بالكاد أن يُجيب بصوتٍ مُتحشرج: «ما الذي تُريدانه مني؟».

«الأمر يتعلق بمستأجر عندك في شارع مونتاجو».

«مستأجر؟».

«نعم، إنه رجل يُدعى شيرلوك هولمز».

## -٦-

## من مذكرات جون ووكر

«أنا أُصاب بالضجر بسهولة يا دكتور ووكر، كما ترى أنا ناجح تمامًا فيما أفعل، ومع هذا النجاح يأتي نوع من التأمين، مما يكون مُضجرًا، أنا أكره روتين الحياة الممل، أحيانًا أتوق إلى إثارة الفشل وإحباطه لكي أواجه التحدي وأتغلب عليه، كرجل في مثل قدرتي العقلية فأنا في حاجة دائمة لمثل هذه التحديات، شيء ليحفز عقلي، شيء لأناضل من أجله. أعطني خطرًا، أعطني مُجازفة، أعطني لُغزًا، وسأكون في أوج تألقي».

مال بروفيسور موريارتي إلى الوراء في كُرسيه وحدَّق إلى النار، رُغم أنه كان يتحدث إليَّ، إلا أن ملامحه وأسلوبه كانا يشيران إلى أنه في الأساس يستخدم وجودي فقط للتعبير عن أفكارٍ كانت مكبوتة بداخله لبعض الوقت، مُعظم ما قاله لي كان نوعًا من الاعتراف، ومن يُمكنك أن تعترف له أفضل من غريب تُمسك بحياته بين يديك؟ الغريب أنني بدأت أشعر بالأسف لهذا الرجل، المُحتجز -كما يبدو أنه يصدق- أعلى برجه العاجي الشاهق الفريد.

«أرجوك لا تظن أنني مغرور عندما أُشير إلى قدراتي العقلية، أنا لا أقول سوى الحقيقة ببساطة، كما ذكرت من قبل أنا أدعو بشدة إلى قول الحقيقة في الظروف المُلائمة، كوني أمتلك ذكاءً رفيعًا فهذا ليس تباهيًا أو تفاخرًا، إنها حقيقة، أنا لست واحدًا من هؤلاء الناس الذين يعدون التواضع من بين الفضائل».

صمت مُجددًا، وفجأة ضيَّق عينيه في تركيز وقد فقدتا نظرتهما الحالمة، أخرج علبة سجائر من جيبه وقدَّمها إليَّ، فرفضت وأنا أهز رأسي.

«يا للأسف، إنه مزيج أوكراني مخصوص، سجائر ممتازة».

أشعل سيجارة وأخذ نفسًا عميقًا ثم ترك الحلقات الرمادية تُحلِّق من فمه ببطء.

أخيرًا قال: «إذن كما ترى يا ووكر، فإن حياتي هي بحث دؤوب عن التحفيز العقلي، هذا الإحساس بالخطر، هذه المتعة الفريدة، شيء يحميني من الإصابة بالجنون، ففي نهاية الأمر الجنون والعبقرية وجهان لعملة واحدة، عدم الخوف من العواقب هو ما يجعل المرء يُقدم على الفعل.. ثم يفعله».

أخذ موريارتي نفسًا آخر من سيجارته ثم ابتسم لنفسه ابتسامة سرية، قبل أن يكرر بهدوء: «شيء يحميني من الإصابة بالجنون. وهل تعرف، أعتقد أنني وجدت هذا التحفيز العقلي. ألم تسمع بشابٍ يُدعى شيرلوك هولمز؟».

هززت رأسي مُجددًا.

«لا، بالطبع لا، القليل من البشر قد سمعوا عنه.. حتى الآن. ولكنهم سيسمعون عنه، أنا واثق، بمُساعدتك».

كررت الكلمات وراءه: «بمُساعدتي؟».

«القصة كاملة من فضلك يا ووكر، الأسئلة لاحقًا. شيرلوك هولمز هو مُحقق خاص، إنه أيضًا رجل عبقري، إنه أعظم عقل يُقاتل في صف القانون والنظام في لندن اليوم، إن قُدراته العقلية عظيمة مثلي، إننا توأمان، هو وأنا. ونحن نقف كعملاقين يواجه أحدهما الآخر عبر خندق عظيم، إنه يحل الجرائم وأنا أرتكبها، إنه أصغر مني -بخمس سنوات تقريبًا- ولذا أنا متفوق عليه في الوقت الحاضر، ولكن عظمته ستظهر، هذا يبهجني ولكنه يقلقني أيضًا، إن أساليبه محبوكة بجمال وتُنفَّذ ببراعة، ومن المُبهج رؤيتها ولكنه في الوقت ذاته يُسبب لي مشكلات، إنه قد تدَّخل بالفعل في بعض خططي مما جعلها تفشل، إن طبيعة هذه المفارقة تثير إعجابي، بالطبع يُمكنني ببساطة أن أتخلص من هذه الشوكة المغروزة في لحمي، كلمة مني وسيتحرر من عبء الكدح البشري، هذا لن يكون فقط سهلًا للغاية ولكنه سيمحو أيضًا التحدي والمشكلة، وهما محفزان للغاية لعقلي، مُفارقة طريفة، أليس كذلك يا ووكر؟ لقد فكرت طويلًا وعميقًا في هذا الموقف، أحسست بالثقة من أنني سأجد بعض المُقارنات الممتعة بيني وبين السيد شيرلوك هولمز، الذي بالمناسبة أنا واثق من أنه في الوقت الحالي ليس لديه أدنى فكرة عن وجودي أو الدور الذي ألعبه.

حسنًا لقد قررت أن أجري تجربة ستُعطيني متعة رؤية مواهب السيد هولمز تتطور ومشواره المهني يتقدم بينما في الوقت ذاته تُقلل من أي خطر حقيقي يُشكله تجاهي أو تجاه منظمتي، أنا أنوي أن أضعه تحت الميكروسكوب، على سبيل المجاز كما سيُحب كاتب مثلك أن يقول، وهنا يأتي دورك؛ بكلماتٍ بسيطة ستكون جاسوسي في مُعسكره، سوف تُصادقه وتتشارك السكن معه وتصير مُساعده ثم تبلغني بكل تصرفاته، سيمكنك أثناء الاستمتاع بحكايات عمله العبقري أن تكون قادرًا على تحذيري إن كان يدس أنفه قريبًا من منطقتي».

صحت: «أنت مجنون! هذه عملية احتيال سخيفة».

عقد موريارتي حاجبيه، وعندما أجاب على انفجاري كان صوته مليئًا بالغضب: «كنت آمل أنه الآن بعدما سمعتني وبغض النظر عن رأيك في طبيعتي الأخلاقية فستكون مُدركًا لدقة تخطيطي وفاعلية تدبيري وموثوقية تصوراتي، لولا هذا ما كنت لتصير مُحتجزًا معي هنا الآن أيها السيد. رجل راقبته وانتظرته منذ معرفتي بفضيحتك في أفغانستان، رجل قد استدرجته إلى شباكي من خلال عملائي، رجل هو الآن تحت رحمتي بالكامل. هل ترى أن كلَّ هذا سخيف؟».

وهو يتحدث كان يميل إلى الأمام، وجهه يُقابل وجهي، وصوته الهادر يملأ الغرفة. لم تكن أول مرة أكون فيها عاجزًا عن النطق في حضوره.

خفض صوته إلى همس جاف وقال: «خطتي جريئة وخطيرة وفريدة، ولكنها ليست سخيفة، وبينما نحن نتحدث فالأمر يجري على قدم وساق لتنفيذ ما تصورته».

«كيف يُمكن أن ينجح هذا بحق السماء؟! إن كان الرجل عبقريًّا فسيكتشف الخدعة».

«أجل، هذا هو جزء من المتعة، من التسلية، هناك دومًا خطر، ما معنى الحياة بدون خطر؟ ولكن ستكون مهمتك أن تجعل الخطر في الحد الأدنى، ستكون صديقه في كل الأشياء عدا من ولائك لي. عندما تكون الجريمة غير متعلقة بي فستفعل كل ما تستطيع لكي يضع هولمز المجرم تحت طائلة العدالة، عندما تكون الجريمة متعلقة بمنظمتي فسوف تُخبرني بالتقدم الذي يحرزه هولمز وستفعل كل ما بوسعك لعرقلته، فكِّر في الأمر يا عزيزي واطسون، أجل ستكون واطسون، سيكون قريبًا بما يكفي من اسمك الأصلي، ولكن لا يمكن ربطه بالنذل الذي ثمل أثناء أداء واجبه، أليس كذلك؟ إنها فكرة رييد، فكِّر في الأمر يا واطسون كمسرحية رائعة».

«وماذا إن رفضت؟».

«نهر التيمز يكون باردًا للغاية في هذا الوقت من العام».

قلت بهدوء وعيناي تغيمان بالخوف والإحباط: «فهمت». أردت أن أندفع ناحية هذا الرجل لأوسعه ضربًا، ولكني كنت مُدركًا تمامًا عدم جدوى هذا.

«لم يقع الاختيار عليك عشوائيًّا يا عزيزي واطسون، أنا أعرف أنك الرجل المُناسب للمهمة، أنت تتحلى بالعديد من المزايا الفريدة، وبالطبع ستُكافأ بسخاء على خدماتك، لن تحتاج مُجددًا أن تعد الفكَّة التي تملكها لتطمئن إلى أنك قادر على دفع ثمن وجبة أو غُرفة تقضي فيها ليلتك، لأول مرة في حياتك ستشعر بالاكتفاء الذاتي».

«ما الذي قد يمنعني من أن أُخبر شيرلوك هولمز أو الشرطة بخطتك؟».

«أنا أشك أن الشرطة ستُصدِّقك، إنهم يفتقرون إلى القدرة العقلية على تصور مُنظمة إجرامية كبيرة بحجمهم تقريبًا، أما هولمز ما أن يعرف ذلك فسوف ينضم إليك في المشرحة، إن حياته الآن بين يديك».

«أيها الوغد».

«ربما يا دكتور واطسون، ولكني وغد بارع وقوي للغاية، أنا واثق أنك ستتفق معي».

***

«بالطبع كما تعرف لقد أدَّيت بعض المهام للبروفيسور في الماضي، مجرد أدوار ثانوية كما أُحب أن أُفكر فيها، ولكن هذا يبدو كدورٍ كبير».

اتفق ريبد معها قائلًا: «واحد من أكبر الأدوار يا كيتي، ومن المُقدَّر أن يستمر لوقتٍ طويل». ثم ابتسم واحدة من ابتساماته الدافئة الودود.

بادلته كيتي هودسون الابتسامة وقالت: «وأنا التي كنت أظن أنني ودعت المسرح، كما تعرف آخر مرة وقفت فيها على خشبة المسرح كانت منذ خمس سنوات، إنهم لا يريدون أرملة هزيلة، وخصيصًا عندما تصل إلى الخمسين».

«حسنًا أنتِ مثالية للدور الذي اختارك البروفيسور لكي تلعبيه، ولا يوجد أيُّ تجارب أداء».

قالت كيتي هودسون: «يا للسعادة». ثم أغلقت عينيها لتؤكد هذا الشعور، فقد كانت مولعة بالمسرح منذ طفولتها، عملية ارتداء الملابس وتقمص الدور وأن تصير شخصًا آخر، كانت طريقة للهرب وترك الواقع الكئيب وراءك. عندما كانت طفلة صغيرة انضمت كيتي إلى الفرقة الموسيقية في

بهو الموسيقى لمسقط رأسها في إدنبرة، ثم صارت عضوًا في فرقة هاري سيفيلز ريفيلز الرحَّالة، التي كانت تُقدِّم مشاهد مسرحية وميلودرامية في المسارح الإقليمية الصغيرة في أنحاء البلدة. عندما كانت في ليفربول التقت بفرانك هودسون، بحَّار حسن المظهر كان يعمل مُشرفًا في شركة ليفربول -دبلن- سيتم باكت. جذبها سحر الرومانسية والزواج بعيدًا عن خشبة المسرح لبعض الوقت. عندما كان طفلها الأول لا يزال رضيعًا بدأ فرانك يعتاد على أن يثمل ويضربها، فهربت مرة أخرى إلى الحياة الخيالية وراء أضواء المسرح، تركت ليفربول وفرانك هودسون، وبمرور الوقت وجدت نفسها تلعب دورًا كوميديًا مع ستانلي دوكنز في مسرحية «الخروف المتسكع» في مسرح شارع كرافن. كانت ناجحة للغاية وحسُّها الكوميدي غير متكلف، فصارت مُفضَّلة بالنسبة لمُرتادي المسرح المعتادين. عندما يكون دوكنز في مزاج جيد يسمح لها أن تسرق الأضواء لبعض الوقت، حينها تُغني أغنية «أنا أبحث عن شرارة الحياة».

في مسرح شارع كرافن قضت كيتي وقتًا تتذكره بأنه أفضل وقتٍ في حياتها، كان هذا عندما اقتحمت الرومانسية والتراجيدية حياتها مرة أخرى، لقد أقامت علاقة مع تيد بالدوين مدير المسرح المساعد، كان رجلًا عطوفًا وحسَّاسًا، على النقيض من زوجها المتوحش، وقد أسَّسا بيتًا معًا، كما قالت كيتي في ذلك الوقت «بدا كل شيء جميلًا في باحتنا الصغيرة». ثم ذات ليلة تعرض تيد لهجوم من مجموعة من المجرمين الثملين، الذين سرقوا المال القليل الذي كان بحوزته ثم تركوه بجمجمة مهشمة، مات بعدها بيومين.

ظلَّت كيتي في حالة يرثى لها لبعض الوقت، وأخيرًا تركت المسرح، فقد كان يذكرها كثيرًا بتيد العطوف المُحب، لسنوات عديدة راحت تتخبط في الحياة، فكانت تقبل بأي وظيفة تجعلها لا تنام في الشارع. عندما صار العمل المسرحي نادرًا انجرفت إلى الجرائم البسيطة، وكان هذا عندما وقعت تحت سيطرة البروفيسور، لقد استخدمها في أدوار عديدة، خصيصًا في المراقبة، وأحيانًا كان يستخدمها لتحتجز الضحية كي لا يعود إلى بيته الذي يتعرض للسرقة، كانت ماهرة للغاية فلا تجعل الضحية يُدرك أنه يتعرض للاحتجاز، كانت كيتي تستمتع بهذه المهام لأنها كانت «أدوارًا تمثيلية مُعتبرة». ولكنها لم تعتبر أبدًا أن أنشطتها إجرامية، لذا ها هي ذا تشق شوارع غرب لندن في عربة أجرة بصحبة النقيب ريبد وعلى وشك أن تتلقى عرضًا بأكبر مهامها، أكبر أدوارها التمثيلية حتى الآن.

كرَّرت مرة أخرى: «يا للسعادة»، والعربة تقف خارج مبنى من ثلاثة طوابق في شارع سكني راقٍ.

«ها نحن ذا يا كيتي، دعينا نُلقي نظرة على بيتك الجديد».

قفز رييد من العربة ثم ساعدها لتنزل بدورها، كانت كيتي مُعجبة برييد لأنه يُعاملها دومًا كسيدة، كأنها أرملة دوق أو شيء من هذا القبيل، من وجهة نظر كيتي هذا ما يجب أن يفعله السيد المُهذب، سواء كانت سيدة حقيقية أو بائعة سمك. أخرج رييد سلسلة مفاتيح من معطفه ثم اقترب من الباب، نظرت كيتي لأعلى إلى المبنى، كان جيدًا للغاية، لم ترَ في حياتها مثل هذا المسكن الرائع، إنها حتى قد أحبَّت العنوان؛ ٢٢١ب شارع بيكر.

-٧-

## من مذكرات جون ووكر

«لا أستطيع أن أفهم كيف يُمكنك أن تُصدق أن خطتك الجامحة هذه قد تنجح، حتى لو قبلتُ هذه المُغامرة بحماس، فأنا لست ممثلًا، لا أستطيع أن أسيطر على مشاعري، إن كان شيرلوك هولمز هذا مُحققًا عظيمًا كما تقول، فإنه سيكتشف بسهولة أنني مُحتال، سأفضح اللعبة من خلال تصرفاتي».

كنتُ أصدق كل كلمة قلتها للبروفيسور موريارتي، ولكني أكَّدت عليها بشكلٍ أكبر على أمل أن أغريه بالتخلِّي عن هذه المسرحية المجنونة، عن طريق إقناعه بطبيعتها غير العملية، هكذا سأكون قادرًا على الهرب من هذه المشنقة وأن أخرج من هذه الغُرفة كرجل حر.

ولكني استطعت أن أرى من خلال تعبيرات وجهه التي لم تتغير أن ما قلته لم يلقَ أذنًا مُصغية، ثقته لم تتضاءل ولو لثانية واحدة.

أجابني ببساطة: «ولكن يا دكتوري العزيز أنت لن تكون مُحتالًا، عدا من تغيير بسيط في اسمك وبعض التعديلات في تاريخك القريب، ستكون الشخص نفسه الذي يجلس أمامي الآن؛ جراح جيش سابق فقير عاد للتو من أفغانستان ويبحث عن مسكنٍ رخيص».

«ماذا تقصد بتعديلات في تاريخي القريب؟».

«بدلًا من كونك قد سُرِّحت من الجيش، فأنت قد أُصبت بشدة في معركة مايواند وأثناء علاجك أُصبت بالحمى المعوية، لعنة مستعمراتنا في أفغانستان، ونتيجة لذلك أعفاك الجيش من الخدمة وأعادك إلى إنجلترا».

«هذا جنون».

«هذه حقيقة، بعض الأخبار الصغيرة المُتعلقة بهذا قد أُدخلت في العديد من صحف لندن هذا الصباح، من ضمنها جريدة التايمز، تأثيري يصل إلى مناطق عديدة، وكما يعرف كل رجل إنجليزي فكل ما يظهر في التايمز هو بالتأكيد حقيقة مُطلقة، وشيرلوك هولمز قارئ نهم لهذه الجريدة».

«ولكن هذا كذب».

هز كتفيه وقال: «تجميل للحقيقة، أنت تعتقد أنهم قد عاملوك بظَلم في أفغانستان، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي.

«إذن فأنا قد عدلت الميزان».

رميت برأسي بين يديَّ وقلت: «أوه يا إلهي، أتمنى لو أستطيع أن أستيقظ الآن، لا شكَّ أن هذا حُلم بشع».

«ليس حُلمًا يا واطسون، ولكن بالنسبة لك هو نوع من الخلاص، إنها فرصة رائعة وقد حان الوقت لتفتح عقلك للاحتمالات الكثيرة لهذا العرض الذي أُقدمه لك. وبالطبع هناك كتاباتك؛ قصص المغامرات التي تكتبها. ما نطاق الألغاز التي يُمكنك أن تكتبها أثناء مُصاحبة أذكى مُحقق في لندن في تحقيقاته، لن تجعله مشهورًا فقط بتسجيل قضاياه ولكنك ستخلق اسمًا لنفسك في الآن ذاته».

قلتُ باقتضاب: «ليس اسمي الحقيقي».

«مسألة صغيرة، أنت تُجادل كثيراً، أعتقد أن عقلك مُزدحمٌ الآن بالتفاصيل، وجدية هذه المُغامرة وجرأتها تُشتت أفكارك، أنت تحتاج بعض الوقت لتُفكر في الأمر جيدًا».

«ما الفائدة؟ لا يوجد خيار».

ابتسم موريارتي وقال: «هناك خيار ولكني أؤكد لك أنه محدود للغاية».

«كيف يُفترض أن أُقابل هذا الرجل؟ قلتَ إنني سأتشارك غُرفةً معه، ماذا لو لم يوافق على ذلك؟ هناك العديد من الأمور غير المؤكدة».

«لا يجب أن تشغل بالك بمثل هذه الأمور، كل شيء خضع للتخطيط والتنظيم، أؤكد لك أنه لا يوجد شيء متروك للصدفة، هذا هو أسلوبي».

ماذا يجب أن أفعل؟ حتى في حالة الخوف التي كنت فيها أدركت أنه في الوقت الحالي يجب عليَّ أن أقبل الموقف وأن أضع يدي في يد البروفيسور هذا، وإلا فلن أرى شروق شمس اليوم التالي على الأرجح، بنجاتي مؤقتًا سيكون من الممكن حينها أن أفكر في خطة للهرب، ربما أستطيع أن أطلب

مُساعدة شيرلوك هولمز هذا لكي أنقلب على سيدي الجديد! أدركت أيضًا أنني يجب عليَّ إقناع موريارتي أنني لا أدخل اللعبة بمُعارضة شديدة، وإلا سيكون من الصعب عليَّ إقناعه أن باستطاعته الوثوق بي، ومن ثم يُرخي قبضته من حولي.

قلت وأنا أميل للأمام: «لقد ذكرتَ مُكافأة».

«بالطبع، سيوضع مبلغ كبير من المال أول كل شهر في حسابك البنكي الجديد، الذي سيحمل اسم واطسون».

«مبلغ كبير؟!».

«مئة جنيه كل شهر».

بسماع هذا انفتح فمي حقًّا في دهشة، بالنسبة لحالة الفقر المُدقع التي كنت فيها فإن هذا مبلغ ضخم من المال، ولوهلة دون أن أشعر غرقت في بريق ثروتي الجديدة، حتى ذكَّرني صوت صغير بداخلي من أين يأتي هذا المال.

«أنا أُجزل العطاء لمن أثق بهم من رجالي يا واطسون، وفي منصبك الجديد ستكون واحدًا من أهم رجالي وأجدرهم بالثقة»، ثم رفع إصبعه مُحذرًا وقال: «لذا فلتحرص على أن تكون جديرًا بثقتي».

«أنا.. أنا سأبذل قصارى جهدي».

اختنقت الكلمات في حلقي وأحسست بشعورٍ جامح من عدم الارتياح يسيطر على حواسي.

«أنا واثق أن قصارى جهدك سيكون كافيًا للغاية، نادرًا ما أُخطئ في حُكمي على الأشخاص، إذن، هل اتفقنا؟».

بأكبر قدر ممكن من الإقناع رسمت ابتسامة على وجهي، ابتسامة ميتة، وقلت: «أجل، لقد اتفقنا».

صاح البروفيسور وهو يُمسك بيدي: «رائع!».

***

كان شيرلوك هولمز يقطع طريقه في المساء الباكر عائدًا إلى مسكنه في شارع مونتاجو، كان عقله مُزدحمًا بالأرقام والمعادلات، لقد قضى اليوم يعمل في واحدٍ من المعامل في مُستشفى سانت بارت في محاولة لتطوير حل سيكشف عن وجود بُقع الدماء مهما كانت متناهية الصغر. كان يأمل أن يخترع كاشفًا كيميائيًّا لا يترسب إلا في حالة وجود الهيموجلوبين فقط، وهكذا سيشكل دليلًا لا يُدحض على أن هناك دمًا بشريًّا مسفوكًا، كان اختبار جواياكوم القديم غير متقن وغير أكيد، ومن ثم لا يُمكن الاعتماد عليه في المسائل الإجرامية، إن استطاع أن يخترع اختبارًا واحدًا لا يفشل، سيعمل مهما كانت بُقع الدماء قديمة، فسيكون أهمَّ اكتشافٍ في الكيمياء القانونية منذ أعوام، وسيُعزِّز من سمعته في عالم مُحاربة الجريمة بكل تأكيد، لقد قرأ عن قضية ڤون بيشوف في فرانكفورت العام الماضي، وكان مُقتنعًا أن مثل هذا الاختبار إن كان موجودًا حينها فإن هذا الرجل كان سيُعلَّق في حبل المشنقة، ولكن لأنه لم يوجد فقد أُخلي سبيله.

كان هولمز يعتقد أنه قد اقترب من تحقيق هدفه، بضعة أيام أخرى والمزيد من التجارب باستخدام تركيبات متنوعة من المساحيق والبلورات والمقادير. كان واثقًا من أنه سيصل إلى هدفه، ولكنه كان نافد الصبر كالعادة، كانت هذه الأفكار تتقافز في عقله وهو يصعد السلم إلى مسكنه.

ما أن دلف إلى غُرفة الجلوس حتى لاحظ مظروفًا على الأرض من الواضح أن أحدهم قد دفع به من أسفل الباب، كان اسمه مكتوبًا على المظروف بخطٍّ سيئ مُتشابك، الذي تعرف عليه أنه خط مالك العقار أمبروز جونز. ألقى بمعطفه جانبًا وأشعل المصباح الزيتي ثم ألقى بجسده على أحد الكراسي ومزَّق المظروف لفتحه، كانت الرسالة بالداخل مُقتضبة ومُباشرة.

عزيزي السيد هولمز،

أرجوك اعتبر هذه الرسالة إنذارًا لإخلاء مسكنك خلال سبعة أيام من تاريخ هذا اليوم.

أمبروز جونز

داعب هولمز ذقنه مُفكرًا وعقد حاجبيه؛ ما معنى كل هذا بحق السماء؟!

كان أمبروز جونز يُسخن بعض الحساء من أجل وجبة العشاء عندما سمع طرقًا على الباب، رفع الحساء من فوق الموقد ثم ارتدى روبه القديم

البالي، ثم أجاب الطارق بأن فتح الباب بضع بوصات، رأى شيرلوك هولمز في البهو يُمسك برسالته.

قال مالك العقار بحدة: «أجل؟».

«بخصوص هذه الرسالة...».

«ماذا بشأنها؟ ألا تستطيع قراءتها؟».

«بالطبع أستطيع، بالرغم من خطك الرديء، الكلمات والرسالة واضحة، لقد استخدمت قلم رصاص إتش بي، وكنت تكتب بضع كلمات في المرة الواحدة أثناء تدوينها، وعلى الأرجح كنت تركب حافلة يجرها حصان كما هي عادتك، فقد كنت تكتب الكلمات أثناء وقوف العربة بين المحطات لتفادي اهتزاز يدك كثيرًا أثناء حركة العربة».

«لقد رأيتني!».

هزَّ هولمز رأسه وقال: «لقد استنتجت هذا».

لم يكن جونز واثقًا ما الذي تعنيه كلمة «استنتجت»، لذا كان ردُّه غاضبًا وفي الوقت نفسه لا يُفصح عن شيء «هاه!».

بدأ يُغلق الباب ولكن هولمز وضع يده عليه وأوقفه بحزم.

قال جونز بحدة: «إذن ما هي مُشكلتك؟».

«أُريد أن أعرف لمَ تُريدني أن أُغادر، حسبما أعرف فأنا لم أتسبب في أي مُشكلات وأدفع إيجاري في الوقت المُحدد».

«لست مُضطرًّا لإجابة أيٍّ من أسئلتك، أنت مُستأجر عندي ولدي كل الحق لأن أطردك من هنا بعد إنذارك بأسبوع، وهذا يا سيد مُستنتِج هو ما أفعله».

استطاع هولمز أن يرى أن جونز كان غاضبًا للغاية، ولكنه كان يُدرك أيضًا أن هذا الغضب هو مُجرد غشاء رقيق يُخفي شعورًا آخر أكثر قوة؛ الخوف.

«هذا كله مُفاجئ للغاية يا سيد جونز، رُبما يُجبرك أحدهم على فعل هذا».

احتقن وجه جونز في إحباط وقال: «لست مُضطرًّا لتبرير ما أفعله لك أو لأي شخص بخصوص ما يتعلق بممتلكاتي، أنا أُريدك أن تُغادر، هناك من يمكنهم أن يدفعوا أكثر مقابل هذه الغُرف».

«حقًّا؟ مَن؟».

تراجع جونز إلى الوراء وفتح الباب على مصراعيه، وفي الوقت ذاته أخرج سكينًا من جيب روبه، رفع السكين أمام وجه هولمز فلمع النصل في ضوء المصباح الخافت.

«اسمعني يا هولمز، لقد تلقَّيتَ أمرًا بالمُغادرة، لا تختبر صبري أكثر من هذا وإلا...».

ابتسم هولمز وقال: «وإلا؟!».

قرَّب جونز السكين من وجه هولمز وقال: «وإلا سيكون سكنك التالي ست أقدام أسفل الأرض».

رفع هولمز ذراعه في حركة سريعة مُمسكًا بمعصم جونز واعتصره بقوة، فصرخ جونز صرخة ألم حادة وأسقط السكين ثم تراجع للوراء وهو يُمسك بمعصمه.

قال هولمز بهدوء وهو يلتقط السكين من الأرض: «سوف أُغادر، خلال سبعة أيام، ولكن لا تعتقد أن هذه هي آخر مرة ستراني، في الوقت الحالي سأبقي هذه السكين كتذكار على أول شجار بيننا».

وما أن انتهى من حديثه حتى غادر عائدًا إلى غُرفته بالأعلى.

أغلق جونز الباب ثم استند إليه بظهره، وجهه شاحب مع العرق، وجسده يرتجف. في النهاية جرَّ ساقيه إلى الخزانة وأخرج منها زجاجة نبيذ أخذ منها جرعة كبيرة طويلة، لمحت عينه الحقيبة القماشية الصغيرة الموضوعة بين الزجاجات فأخذ جرعة أخرى من النبيذ ثم أمسك بالحقيبة وتفحَّص محتوياتها؛ اثنى عشر جنيهًا ذهبيًّا، فابتسم. رُغم المشكلة الأخيرة إلا أن اليوم لم يكن سيئًا بالنسبة للعمل على الإطلاق.

***

هبَّت رياح مارس العاتية لترتطم بجسد هنري ستامفورد وهو يجرُّ قدميه صاعدًا درجات السلم إلى مدخل مستشفى سانت بارت. كانت عيناه تحرقانه ورأسه ينبض في ألم من أثر ليلة طويلة أخرى لعب فيها الورق حتى وقت متأخر. دومًا في ضوء الصباح المُشرق يتساءل لمَ بحق السماء قد انغمس في مثل هذه الهواية الحمقاء، إنه نادرًا ما يكسب وقد بدأ إرهاقه يؤثر على عمله، الليلة السابقة كانت كارثية؛ لقد خسر أكثر من عشرين جنيهًا، مبلغ لا يستطيع جرَّاح مُبتدئ أن يتحمل خسارته، لم يجرؤ على التفكير في كيفية نجاته حتى موعد القبض التالي.

تقلَّصت ملامحه في ألم والنبض يزداد قوة، سيكون عليه أن يتناول مزيجًا من المسكنات قبل أن يذهب إلى العنابر. عندما وصل إلى بوابات المستشفى الكبيرة خطا رجل أسود طويل من الظلال واقترب منه.

قال الرجل بهدوء، بصوتٍ ناعمٍ ومُغرٍ: «هل يُمكن أن أتبادل كلمة معك يا سيد ستامفورد؟ من الممكن أن تكون منفعة مُتبادلة».

لاحظ ستامفورد أن الرجل يُمسك بيده المُغطَّاة بالقفاز ورقةً نقدية بيضاء.

بعد بضع ساعات كان ستامفورد -الذي صار أكثر ثراءً بعشرين جنيهًا- يقطع ممرات المُستشفى في طريقه إلى غُرفة التشريح، كان يبحث عن شيرلوك هولمز. كان يعرف هولمز بطريقة عابرة، لقد رآه في أنحاء المستشفى وخاض معه بعض المحادثات من وقتٍ لآخر. لم يكن واثقًا من رأيه فيه، لم يكن هولمز واحدًا من طاقم المستشفى، ولكنه كان قادرًا على استخدام منشآتها، إنه على الأرجح طالب في الدراسات العليا، كان ستامفورد قد استنبط أن هولمز جيد في التشريح ويبدو كيميائيًّا من الدرجة الأولى، ولكن لم يكن لديه أدنى فكرة عن الهدف من دراساته.

كان يشعر أحيانًا أن هولمز متحجر المشاعر، يخوض تجاربه بنوعٍ مُبالغ فيه من الموضوعية، حتى أنه لا يضع الحياة البشرية في الحُسبان في مثل تلك المسائل. قال ستامفورد لنفسه فليُعينا الرب إن فكَّر هذا الرجل في أن يمتهن صناعة الأدوية، يُمكن لهولمز ببساطة أن يختبر مصله الجديد على أحد المرضى سعيًا وراء المعرفة العلمية دون أي اعتبار للتأثيرات التي قد تحدث على المسكين الذي يستخدمه كفأر تجارب. ابتسم ستامفورد ابتسامة باهتة عند تلك الفكرة، وكان مُضطرًّا لأن يعترف لنفسه -إنصافًا لهولمز- أنه على الأرجح سيأخذ المصل بنفسه إن اعتقد أن التجربة ستفيد أبحاثه.

أثناء اقتراب ستامفورد من غُرفة التشريح سمع صوتًا غريبًا ينبعث من الداخل، كان الصوت كتصفيق عنيف تتبعه صيحة إرهاق خشنة.

فتح الباب على مصراعيه فرأى أغرب مشهد وقعت عليه عيناه؛ هناك على الطاولة كانت تستلقي جثة عارية بينما شيرلوك هولمز -الذي خلع سترته وشمر كمَّيه- كان يضربها بعكاز مشي.

صاح ستامفورد: «ما هذا بحق الشيطان؟! هل أُصبتَ بالجنون؟!».

توقف شيرلوك هولمز والعصا مرفوعة في الهواء، والتفت إلى ستامفورد، كان وجهه مُحتقنًا وغارقًا في العرق.

قال: «ستامفورد، لم أسمعك». ثم ألقى بالعصا على الطاولة بجانب الجثة ومسح العرق من على جبهته بكُمِّ قميصه.

«ما الذي تظن أنك تفعله بحق السماء؟! هل فقدتَ عقلك؟!».

ضحك هولمز وقال: «على النقيض تمامًا. يجب عليَّ أن أعترف أنني قد بدوت كذلك بلا شك ولكني أؤكد لك أني أُجري تجربة علمية».

«تجربة علمية؟ أن تضرب جثة بعُكَّاز؟».

أومأ هولمز برأسه وقال: «في محاولة لمعرفة إلى أي مدى يُمكن أن تظهر الكدمات بعد الموت، هذه المعلومة قد تكون حيوية في قضايا القتل». ثم صفع صدر الجثة وقال: «وهذا الرفيق لم يُمانع مُساعدتي في دراساتي».

هزَّ ستامفورد رأسه وقال: «حسنًا، هذا غريب إلى أقصى حد».

«نادرًا ما تأتي الحقيقة ببساطة أو بالوسائل الطبيعية، المعذرة إن كنت قد أزعجتك بتصرفاتي».

«حسنًا، يجب أن أعترف أنني كنت مصدومًا بشكلٍ ما، ولكن الآن وقد شرحتَ لي...».

«ما زلتَ تعتقد أنني معتوه!».

ضحك كلا الرجلين وهدأت حدة الجو بينهما.

«هل كنت تريد استخدام الغُرفة يا ستامفورد؟».

«لا، كنت أبحث عنك في الواقع».

«عني؟».

«أجل، لقد سمعت أنك تبحث عن مسكنٍ جديد».

«كيف عرفت هذا؟».

«لقد أخبرني واحد من أمناء السجلّات على ما أظن، أليس هذا حقيقيًّا؟».

«أوه أجل، إنه حقيقي، يجب أن أترك مسكني الحالي في نهاية الأسبوع».

«آه، حسنًا، قد أكون قادرًا على مُساعدتك، لقد سمعت عن جناح رائع شاغر في شارع بيكر».

«جناح؟ هذا يبدو باهظًا للغاية بالنسبة لمحفظتي الشحيحة».

«ما زال الأمر يستحق زيارة، خصيصًا وأنت في مسيس الحاجة».

«في مسيس الحاجة؟ أجل أفترض أنني كذلك، كان من المفترض حقًّا أن أكون الآن متجولًا في الشوارع أبحث عن سكنٍ جديد لأنام فيه هذه الليلة، بدلًا من ذلك أنا هنا، ولكني كنت شغوفًا للغاية بالعمل على فرضيتي بخصوص الكدمات».

«حسنًا، لمَ لا تتجول في شارع بيكر الآن وربما سينتهي كل قلقك؟ هاك، لقد كتبت لك العنوان على قطعة من الورق؛ ٢٢١ب شارع بيكر. مالكة العقار تُدعى السيدة هودسون».

## -٨-

## من مذكرات جون ووكر

كانت ذاكرتي عمَّا حدث بعد لقائي بالبروفيسور جيمس موريارتي ضبابية في الغرفة الحمراء، ضبابية بعض الشيء، لم يكن الأمر أنني قد نسيت، ولكن بالأحرى لأن عقلي كان في دوامة عنيفة في هذا الوقت ولم يُسجل أي تفاصيل حقًّا، كان الأمر كأنني قد عبرت من الواقع إلى حُلم مُظلم خيالي لم أكن قادرًا على الاستيقاظ منه، لقد أعطوني حسبما أتذكَّر بعض المال، وأسكنوني في فُندقٍ خاص في شارع ستراند، وأخبروني بأن أنتظر حتى يستدعوني، رُغم أنني لم ألتقِ بالبروفيسور موريارتي بعدها إلا مرَّة واحدة بعد سنواتٍ عديدة، إلا أن ظلَه كان قد خيَّم على حياتي وقُدِّر له أن يبقى هناك إلى الأبد.

خلال اليومين التاليين تمشَّيت طويلًا في أنحاء لندن لأعتاد مُجددًا على المدينة العظيمة، أحسست بالبهجة لعودتي إلى التربة البريطانية، ولقدرتي على التجول في شوارعها مجهولًا وغير ملحوظ، لم أكن أُدرك كم افتقدت مناظر إنجلترا وأصواتها، قعقعة الحافلات التي تجرها الخيول، صياح الباعة في حي كوفيت جاردِن التجاري، والزحام وهم يدفعون أنفسهم عبر شارع ستراند، كنت مأخوذًا بالضوضاء الرمادية لكل هذه الأشياء، وبالمتع البسيطة مثل شراء كوب شاي في مقهى صغير، أو مشاهدة الأطفال يُطعمون الحمام في ميدان ترافالجار. في المساء ذهبت إلى بهو ويلتون الموسيقي واستغرقتُ في بريق العرض الدافئ المتوهج، وأغني بنشوة عندما يُشجعنا رئيس الجوقة لكي ننضم إليهم في بعض المقاطع المألوفة.

في اليوم الثالث بعد لقائي بموريارتي تلقَّيت تعليماتي، بحلول هذا الوقت كنت قد بدأت أستمتع بوقتي، مُزيحًا السر المظلم إلى مؤخرة عقلي، أعتقد أنني كنت آملُ بطريقة طفولية أنني إن تجاهلته فسوف يختفي، ولكن هذا بالطبع لم يكن ما حدث.

بعد عودتي من تمشية طويلة في متنزه سان جيمس اكتشفتُ وجود مظروف ينتظرني على الطاولة الجانبية، كان موجهًا إلى جون هـ. واطسون، كان هذا اسمي الجديد، الاسم في سجل الفندق، الاسم في حسابي البنكي الجديد، الاسم الذي سيُناديني موريارتي به، هذا من يجب عليه أن أكون لكي أحتفظ بعقلي وأنجو بحياتي. وأنا أُمزق المظروف لفتحه ودَّعت جون ووكر للمرة الأخيرة. كانت الرسالة بالداخل بسيطة:

«هذا الفندق هو مجرد تدبير مؤقت، تذكر أنك بحاجة إلى سكن دائم، المُساعدة ستأتي قريبًا، تناول مشروبَ الغداء في بار كريتِريون غدًا. م».

***

«ما أخبار الجناح؟».

كان شيرلوك هولمز يجلس في مقصف مستشفى سانت بارت يُنهي إفطاره بينما هو يقرأ نسخة من جريدة التايمز عندما قطع الصوت أفكاره، التفت ليرى وجه هنري ستامفورد المتلهف يطل عليه، كانت له ملامح عريضة ممتلئة مع عينين زرقاوين خاويتين أسفل شعرٍ أسود أشعث مموج.

قبل أن يجد هولمز وقتًا للرد جلب ستامفورد كُرسيًا وجلس معه على الطاولة.

«أفترض أنك قد ذهبت لرؤية منزل السيدة هودسون في شارع بيكر».

ابتسم هولمز وطوى جريدته ثم قال: «أجل لقد فعلت، شكرًا لك، المكان مثالي من نواحٍ عديدة ولكن لسوء الحظ لن أكون قادرًا على استئجاره».

«أوه يا للأسف، ما هي المشكلة؟».

«المكان كبير بعض الشيء بالنسبة لشخصٍ واحد، على الرغم من كتبي ومعداتي الكيميائية إلا أنني أعتقد أنني سأشعر بالوحدة هناك، مع ذلك هذا شيء يُمكنني التعايش معه بسهولة، ولكني أخشى أن السيدة هودسون تبحث عن مستأجرين ليتشاركا المكان، وهذه الحقيقة تنعكس على المبلغ المطلوب».

«أهو كبير للغاية؟».

«بالنسبة لجيب رجل واحد».

«إذن عليك أن تبحث عن شخص ليتناصفه معك».

عقد هولمز حاجبيه قليلًا، لم يكن قد فكَّر في هذا الاحتمال، ثم قال: «أتقصد مشاركة الجناح؟».

«أجل، يبدو لي هذا كموقف مثالي، ستدفع نصف الإيجار وسيكون هناك من يصحبك إن كنت في حاجة إلى ذلك».

«أنا لست واحدًا من هؤلاء الذين يحبون مُصاحبة الآخرين، أنا أميل للعزلة، كما أعتقد أنه سيكون من الصعب أن أجد من يتعايش مع عاداتي الغريبة وفوضويتي».

ضحك ستامفورد من قلبه وقال: «تعني أنَّك رجل أعزب! بحق السماء يا رجل، سيكون من الصعب كثيرًا أن تجد رجلًا غير متزوج قد تصفه بأنه غريب العادات وفوضوي للغاية».

ابتسم هولمز ابتسامة شاحبة مُتفهمة وقال: «أعتقد أنك مُحق».

«بالطبع أنا مُحق، كل ما تحتاجه هو شخص جيد ليتشارك المكان معك وستصير شقة السيدة هودسون ملكًا لك، بحق السماء، كنت لأُشاركك بنفسي إن لم أكن مُستريحًا كثيرًا في مسكني في شيسوك».

شكر هولمز الرب على رحمته، كان يعرف القليل عن ستامفورد، ولكن القليل الذي يعرفه قد أقنعه أنه آخر شخص قد يتمنى أن يتشارك السكن معه، كان من الواضح لهولمز أن الرجل مقامر ميئوس من حالته، كانت ملابسه تشي بحالته المادية المتذبذبة، معطف باهظ الثمن يتناقض مع الحذاء الذي كان في حاجة ماسة إلى الإصلاح، كما أن الأظافر المقروضة والظلال السوداء أسفل العينين كانت تشي بليالٍ من السهر الطويل والإحباط. ومع ذلك كان ستامفورد مُحقًّا، إن استطاع أن يجد شخصًا متوافقًا معه إلى حدٍ معقول ليشاركه الجناح في شارع بيكر فسيكون قد وجد حلًّا لأكثر مشاكله إلحاحًا. اعترف بهذه الحقيقة لستامفورد.

سأله ستامفورد: «أليس لديك أي صديق مستعد لأن يأتي للعيش معك؟».

هزَّ هولمز رأسه، إن كان عليه أن يقول الحقيقة فسيعترف أنه لا يمتلك أي صديق، كانت الصداقة أمرًا يتناقض مع العلم، فهي تتطلب مشاعر وتصرفات غير عقلانية، وكان هو ينأى بنفسه عن ذلك، ولكن كان من الحقيقي أيضًا أن شيرلوك هولمز أحيانًا يتوق إلى شخصٍ ليتحدث معه، ليناقش تجاربه معه، أو تحقيقاته، شخص يستطيع أن يشارك معه أفكاره ونظرياته ومُعتقداته.

«سأضع الأمر في بالي من أجلك، فمن يدري؟».

قال هولمز بهدوء: «بالطبع». ثم أمسك بالجريدة مُجددًا مُشيرًا إلى أن المُحادثة قد انتهت.

لم يحتج ستامفورد إلى إشارة أخرى، فاعتدل واقفًا مُبتسمًا وقال: «لا داعي لليأس يا صديقي هولمز». ثم بدأ يشق طريقه ناحية باب الخروج.

ما إن اختفى ستامفورد عن ناظريه حتى خفض هولمز جريدته مُجددًا وهو يحدق إلى الفراغ وقد غرقت عيناه الثاقبتان الحادتان في الأفكار.

***

كان بار كريتِريون الذي يقع في بيكاديلِّي يعج بالضوضاء أثناء دخول هنري ستامفورد بعد ظهيرة هذا اليوم، كان متأخرًا عن موعده ولكن عربة الأجرة التي استقلها قد علقت في الزحام الكثيف بالقرب من سيرك أوكسفورد، لذا قرَّرَ أن يقطع ما تبقى من الطريق مشيًا، وقف عند الباب وهو يمسح العرق من على جبينه ويلتقط أنفاسه بينما يحدق بنظره عبر ضباب الدخان ناحية البار. لم يمضِ وقت طويل قبل أن يلحظ الرجل الذي قد جاء لرؤيته.

صاح بحرارة: «مرحبًا يا دكتور!». وهو يقترب من الرجل الذي يجلس مُنحنيًا عند البار.

التفت الرجل الذي ناداه بحدة لينظر إليه، بدا مُتحيرًا في البداية ثم تعرف عليه وقال: «بحق السماء إنه ستامفورد!».

«إنه أنا بالطبع يا دكتور...».

قال على الفور وهو يصافحه: «واطسون، جون واطسون. لم أرك منذ أربعة أعوام، منذ أن كنت تعمل ممرضًا في مستشفى سانت بيرت».

«ما زلت هناك ولكني طبيب مبتدئ الآن».

«تهانّي الحارة، دعني أحضر لك شرابًا، من الجيد أن أرى وجهًا مألوفًا في هذه المدينة الكبيرة الجامحة».

«كأس من الكلاريت سيكون مُناسبًا».

بينما واطسون يولي اهتمامه للنادل راح ستامفورد يتفحَّص صديقه القديم، كان بالتأكيد أنحف مما اعتاد أن يكون عليه، ورُغم أن بشرته قد سفعتها

الشمس إلا أن وجهه كان مشدودًا ويبدو غير صحي، لقد بدا أكبر من عمره بكثير، قد غزت بعض الشعيرات الرمادية شعر فوديه الأسود، كان يُفكر في ووكر القديم -كان ووكر حينها لا واطسون- وتذكَّر رجلًا نشيطًا بابتسامة مُبتهجة وخطوات سريعة راسخة، هذا الرجل الذي يُعطيه كأس النبيذ الأحمر كان مُجرد نسخة شاحبة من صديقه القديم.

رفع ستامفورد كأسه وقال: «نخب المستقبل».

أومأ واطسون برأسه في خجل، مُكررًا النخب، ثم تجرَّع كأسه دُفعة واحدة قبل أن يقول: «انظر يا ستامفورد، المكان مزدحم وصاخب للغاية، دعنا نتناول الغداء في هولبورن، على حسابي، ما رأيك؟».

«أوه، لا أستطيع...».

«هراء، سيكون من المُبهج لي أن أتحدث معك عن الأيام الخوالي في مستشفى سانت بارت، أنت أول صديق حقيقي أُقابله منذ وقتٍ طويل».

«حسنًا يجب أن أعترف هذا سيُناسبني أيضًا، أعطني ثانية لأنتهي من هذا الكلاريت عديم الطعم، ثم ننطلق إلى هولبرون».

ما أن ركبا عربة أُجرة حتى أمسك ستامفورد بذراع واطسون وقال: «أتمنى ألا تظن أنني فظ يا صديقي، ولكن تبدو كأنك كنت مريضًا، أنت نحيف للغاية وتبدو في أسوأ حالاتك، ما الذي كنت تفعله بنفسك؟».

«سأخبرك ونحن نتناول الغداء».

استمع ستامفورد إلى النسخة المُعدَّلة من حكاية واطسون في أفغانستان. تحدَّث واطسون بالتفصيل عن معركة مايواند، ولكنه تحدث بسرعة واقتضاب عن إصابته ونقله إلى إنجلترا بعد إصابته بالحمى المعوية. رغم اعتقاد واطسون أنه ليس بارعًا في التظاهر إلا أنه ما أن شرع في الحكي حتى اندمج في دور راوي القصص ووجد نفسه يستمتع بمهمة مزج الحقيقة بلمسة من الخيال ليصنع حكاية مثيرة.

قال ستامفورد بعد أن استمع إلى سوء الحظ الذي ألمَّ بصديقه: «أيها المسكين، لا عجب أنك تبدو مريضًا، ولكن هذا كله في الماضي، إذن أخبرني ما الذي ستفعله الآن؟».

«لا شيء تقريبًا! لا يستطيع المرء فعل شيء بمعاش الجيش؛ أحد عشر شلنًا وستة بنسات في اليوم، همي الشاغل الآن هو البحث عن سكن، أحاول أن أعثر على حل للمشكلة بأن أجد مسكنًا مريحًا بمبلغٍ مُناسب».

أحس ستامفورد أنه يلعب دورًا في مسرحية وأن أحدهم قد أعطاه إشارة البدء فقال بحماس: «هذا غريب، أنت ثاني رجل اليوم يُخبرني بنفس الشيء».

«من كان الأول؟».

«زميل يعمل في معمل الكيمياء في المستشفى، كان يرثي حاله هذا الصباح لأنه لا يستطيع العثور على شخص ليتشاطر معه جناحًا رائعًا قد عثر عليه، ولكنه باهظ بالنسبة لمحفظته وحده، رجل يُدعى شيرلوك هولمز».

مع ذكر الاسم أحس واطسون بالشعر ينتصب في مؤخرة عنقه، تذكَّر على الفور أنه لا يزال جزءًا من المسرحية وأن أحدهم يحركه كالدمية ببراعة شديدة نحو الهدف المحتوم، لم يخطر على باله أن ستامفورد قد يكون جزءًا من اللعبة حتى ذكَرَ اسم شيرلوك هولمز، كان واطسون ساذجًا بما يكفي ليعتقد أن لقاءهما كان مُصادفة وليس موعدًا مُرتَّبًا، تساءل ما المقدار الذي يعرفه ستامفورد من الخطة الكُبرى، ولكنه خمَّن أنه لا يعرف إلا أقل القليل، إنه مجرد بيدق صغير يلعب دورًا ضئيلًا، لا شكَّ أنه قد قبض ثمن الدور، يبدو أنه لا يستطيع أن يثق في أي شخص بشكلٍ كامل.

تنهَّد واطسون وأخذ يُجاريه في اللعبة قائلًا: «بحق السماء! إن كان يُريد حقًّا رجلًا ليُشاركه السكن والإيجار فأنا الرجل المُناسب، سأُفضل أن يكون لي شريك في السكن بدلًا من أن أعيش بمُفردي».

«ألا تعرف شيرلوك هولمز؟».

هزَّ واطسون رأسه وقال: «هل هناك شيء يُشينه؟».

«إنه رجل صالح حسبما أعرف، ولكنه غريب الأفكار بعض الشيء، ومتحمس في بعض أفرع العلم».

«هل تقصد الدراسات الطبية؟».

«لا، لأكون صادقًا ليس لديَّ أدنى فكرة بماذا يُسميه، إنه بارع في التشريح وكيميائي من الدرجة الأولى، ولكن حسبما أعرف فإنه لم يدرس الطب بشكلٍ ممنهج، إن دراسته غير منهجية وغريبة، ولكنه قد جمع قدرًا كبيرًا من المعرفة غير المألوفة مما سيبهر الأساتذة».

«ألم تسأله قط ما الذي يسعى إليه؟».

«لا، إنه ليس من النوع الذي يُفصح بسهولة، رُغم أنه قد يُسهب في الحديث أحيانًا إن رغب في ذلك».

«إنه يبدو مثيرًا للاهتمام، إن كنت سأسكن مع شخص فأفضل أن يكون مثيرًا للاهتمام لا مثيرًا للضجر، كيف يُمكنني أن ألتقي بصديقك هذا؟».

«إنه بالتأكيد في المعمل الآن، هو إما أن يتجنب المكان لأسابيع وإما يعمل هناك من الصباح وحتى المساء، إذا أردت فيمكننا أن نذهب إليه معًا بعد الغداء».

ابتسم واطسون وقال: «رائع».

بعد تناول وجبتيهما في هولبورن أوقف الرجلان عربة أجرة وانطلقا متجهين إلى مستشفى سانت بارت. متأثرًا بالنبيذ الذي تناوله مع الغداء أحسَّ ستامفورد بالرغبة في أن يخبر واطسون المزيد عن شيرلوك هولمز، أحسَّ بالتعاطف ناحية هذا الطبيب المنزعج والمتعب، وبإعطائه تحذيرًا كافيًا عن هولمز يرى أنه لن يخون الرجل الأسود الذي أعطاه مهمة ترتيب لقاءٍ بين الرجلين، لم يخبره أحد أن عليه أن يحرص على إعجاب الرجلين ببعضهما، فقط أن يجعلهما يلتقيان ليناقشا مسألة السكن في شارع بيكر.

استرخى ستامفورد إلى الوراء في العربة وقال: «لا تلُمني إن لم تتفق مع هولمز هذا، أنا لا أعرف عنه أكثر مما عرفته من لقاءاتنا العابرة في المستشفى، تذكَّر أنت من عرضت هذا الاتفاق، لذا لا تحملني المسؤولية».

«إن لم نتفق فسيكون من السهل أن ننهي هذه الشراكة، ولكن أخبرني يا ستامفورد، يبدو أن لديك سببًا يجعلك تُخلي مسؤوليتك عن هذا الأمر، هل مزاج هذا الرجل صعب الاحتمال أم ماذا؟ أخبرني بصراحة».

«ليس من السهل شرح ما لا يمكن شرحه». صار حديث ستامفورد غامضًا بعض الشيء وقد رمش بجفنيه في توتر ثم ضحك ضحكة قصيرة قبل أن

يُكمل «الأمر هو أن هولمز هذا علمي أكثر من اللازم بالنسبة لي. بارد الدماء.. كالزواحف. يُمكنني أن أتخيله يُعطي صديقًا جرعة صغيرة من أحدث القلويات النباتية، ليس بدافع الضغينة أنت تفهمني، أوه لا، ولكن فقط من باب البحث العلمي ليُشكل معرفة صحيحة عن تأثيرها، ولكن لأكون مُنصفًا فإن هولمز قد يتناول هذا الشيء بنفسه بنفس الجاهزية».

«يبدو لي أن لديه شغفًا للمعرفة الدقيقة والمُحددة».

«هذا صحيح يا واطسون، ولكن...». مال ستامفورد للأمام واقترب من وجه واطسون وقد خفض صوته حتى صار همسًا «ولكنه قد يتخطَّى حدوده، عندما يصل الأمر إلى ضرب الجثث بالعصا في غُرفة التشريح فإن تعطشه للمعرفة يأخذ مسارًا غريبًا حقًّا».

«يضرب الجثث؟».

«أجل، من المفترض أن هذا لمعرفة إلى أي مدى يُمكن أن تظهر الكدمات بعد الموت، لقد رأيت هذا بأم عيني».

«غريب حقًّا».

«مع هذا يجب عليك أن تُقرِّر بنفسك يا واطسون، ظننت فقط أنك يجب أن تعرف.. آه ها نحن ذا، مستشفى سانت بارت».

اقتاد ستامفورد واطسون عبر ممرات المستشفى العظيم إلى معمل الكيمياء حيث كان مُتيقنًا أنه سيجد هولمز يعمل هناك، كان المكان مألوفًا بالنسبة لواطسون ولم يشعر أنه يحتاج حقًّا إلى إرشاد، ولكنه مع ذلك سار وراء رفيقه ببضع خطوات.

أخيرًا وصلا إلى ممر طويل جدرانه مطلية باللون الأبيض وأبوابه رمادية، بالقرب من نهايته تفرع منه ممر منخفض مقوس يقود إلى معمل الكيمياء، كان المعمل غُرفة مرتفعة مليئة بعددٍ لا يُحصى من الزجاجات تحتوي على سوائل بألوان مُختلفة ومُتنوعة، كانت الطاولات العريضة المنخفضة مُتناثرة هنا وهناك، تمتلئ بالمعايرات وأنابيب الاختبار ومواقد بنزن الصغيرة بألسنة اللهب الزرقاء المُتراقصة.

كان هناك شخص واحد في الغُرفة، شاب طويل ينحني على إحدى الطاولات مُستغرقًا في عمله، عند سماع خطوات أقدامهما التفت وراءه، وعندما

تعرَّف على ستامفورد اعتدل واقفًا وصاح في بهجة بصوتٍ عالٍ مُرتفع ملأ الغُرفة: «لقد وجدتها!». ثم ركض ناحيتهما بأنبوب الاختبار في يده «لقد وجدتها يا ستامفورد، لقد اكتشفت كاشفًا كيميائيًّا لا يترسب إلا في حالة وجود الهيموجلوبين فقط، ولا شيء آخر».

لم يشعر ستامفورد بأهمية هذا الخبر، وبدأ على الفور يتحدث عن سبب زيارته. تراجع خطوة للوراء ثم مد ذراعيه إلى كليهما وقال بلهجة رسمية هزلية: «أيها السيدان، دكتور واطسون، السيد شيرلوك هولمز».

في مكانٍ ما في المدينة كان البروفيسور جيمس موريارتي جالسًا يُحدق إلى رقعة شطرنج كبيرة، ابتسم وهو يميل إلى الأمام ويحرك إحدى القطع قائلًا: «الطابية تأكل الحصان، ربحت الجولة».

## -٩-

## «دكتور واطسون، السيد شيرلوك هولمز».

وهكذا أخيرًا وقفت وجهًا لوجه أمام الرجل الذي تشابك معه مصيري. كان طويلًا للغاية، أكثر بقليل من ست أقدام، ونحيلًا إلى حدٍ كبير، شعره الأسود مُصفف إلى الوراء بعيدًا عن وجهه، الذي كان شاحبًا ونحيفًا مع عظمتي وجنتين بارزتين، وعينين رماديتين مُخيفتين، تلمعان على جانبَي أنف رفيع كالصقر.

نظر إليَّ نظرة سريعة ومشتَّتة الانتباه تقريبًا، أحسست أن وجودي غير هام وأنه لا يطيق صبرًا كي يشرح اكتشافه الكيميائي، ولكنه حينها أمسك بيدي وصافحني بحزم وبقوة تتعارض مع مظهره الهزيل.

قال بود: «كيف حالك؟ أرى أنك كنت في أفغانستان».

تجمَّدت الدماء في عروقي، هل انتهت اللعبة قبل حتى أن تبدأ؟!

قلت في دهشة: «هل تعرفني؟».

ضحك هولمز وقال: «بالطبع لا، لقد استنتجت هذا من مظهرك، ولكن هذا لا يهم الآن، السؤال الآن هو عن الهيموجلوبين، لا شكَّ أنك ترى أهمية اكتشافي؟».

لم ينتبه عقلي بالكامل إلى سؤاله، كنت مشغولًا أكثر بكيفية معرفة هذا الرجل بأني كنت في أفغانستان، لا شك أن أحدهم قد أخبره، ولكن من؟ نظرت إلى ستامفورد ولكن وجهه الشاحب لم يفصح عن شيء.

قال هولمز: «بالله عليك، كرجل طب يجب أن تكون قادرًا على رؤية أهمية هذا الكاشف الكيميائي».

قلت بخجل: «حسنًا إنه مثير للاهتمام، من الناحية الكيميائية بكل تأكيد، ولكن بالنسبة لاستخدامه العملي...».

أخبرتني الابتسامة المرتسمة على وجه شيرلوك هولمز أنني قد أجبت عن سؤاله بالطريقة التي كان يتمناها، لقد أعطيته الفرصة لكي يشرح بالتفصيل أهمية اكتشافه.

صاح في حماس: «بربك يا رجل، إنه أهم اكتشاف في الكيمياء القانونية منذ سنوات! إنه اختبار لا يفشل للكشف عن بقع الدماء. تعالَ هنا الآن!». ثم أمسكني من كُم معطفي في حماس وجذبني إلى الطاولة التي كان يعمل عليها.

قال: «دعنا نحصل على بعض الدماء الطازجة». وبدون تردد غرز إبرة طويلة في إصبعه وأسقط قطرة من الدماء في أنبوب كيميائي، «الآن لاحظ هذا، لقد أضفتُ مقدارًا ضئيلًا من الدماء إلى لتر من الماء، إن نسبة الدماء لا يمكن أن تكون أكثر من واحد في المليون، ولكن لا شكَّ عندي أننا سنكون قادرين على الحصول على التفاعل المُحدد».

بينما هو يتكلم ألقى بضع بلورات بيضاء في الوعاء ثم أضاف قطرات من سائل شفاف، كان التأثير لحظيًّا، على الفور اتخذت المحتويات لونًا ماهوجنيًّا داكنًا، ثم بدأ غبار بني يترسب في قاع الوعاء الزجاجي.

تورَّد وجه هولمز في بهجة ثم صاح في انتصار: «انظرا، ما رأيكما في هذا أيها السيدان؟».

قلتُ: «إنه اختبار دقيق للغاية ولكنه فعَّال».

«فعَّال؟ إنه جميل! جميل! إن اختبار جواياكوم القديم غير متقن ولا يُمكن الاعتماد عليه، وكذلك الاختبار المايكروسكوبي لكرات الدم، الأخير يكون بلا فائدة إن كانت بقع الدماء قد مضى عليها بضع ساعات، الآن يبدو أن هذا الاختبار يعمل سواء كانت الدماء قديمة أو جديدة، لو كان اختباري متاحًا قديمًا فهناك مئات من الرجال الذين يمشون على الأرض الآن كانوا سيدفعون ثمن جرائمهم منذ زمنٍ طويل».

تمتمتُ قائلًا وقد تأثَّرتُ بحماسه: «أجل، أرى ذلك».

«حقًّا يا واطسون؟ دعني أقول لك هناك العديد من الجرائم التي تتوقف على هذه الجزئية الواحدة، قد يُتهم رجل أنه قد ارتكب جريمة ربما بعد شهور من ارتكابها، فيفحصون ملابسه ويكتشفون عليها بقعًا بنية، هل هي بقع دماء، أم بقع طين، أم بقع صدأ، أم بقع فاكهة، أم ما هي؟ هذا هو السؤال الذي حير العديد من خبراء الجرائم، ولماذا؟ لأنه لم يكن هناك اختبار يُمكن الاعتماد عليه لتحليل وجود الدماء، الآن لدينا اختبار شيرلوك هولمز، ولن يصير هناك أيُّ صعوبات بعد الآن».

كانت عيناه تلمعان وهو يتحدث، ثم وضع يده على صدره وانحنى كأنما لجمهور مُصفق قد اختلقته مخيلته. لم أستطع منع نفسي من التأثر بنشاط الرجل وحماسه، وأحسست بنفسي أشاركه بهجة الاكتشاف، فقلت: «أنت تستحق التهنئة».

«عندما تفكر في الجرائم التي كان الاختبار سيكون مُفيدًا فيها، فهناك ڤون بيشوف في فرانكفورت العام الماضي، ثم كان هناك ميسون من برادفورد، ومولر سيئ السمعة، وليفيفر من مونبلييه، وسامسون من نيو أورلينز، أوه، باستطاعتي ذكر العديد من القضايا التي كان من الممكن أن تُحسم».

قال ستامفورد وهو يضحك: «يبدو أنك موسوعة جرائم متحركة، يجب عليك أن تؤسس جريدة لهذه الأخبار، فلتُسَمِّها جريدة أخبار الشرطة من الماضي».

أجابه شيرلوك هولمز وهو يضع قطعة صغيرة من اللاصق على جرح إصبعه: «ستكون جريدة مُثيرة للاهتمام». ثم التفت لي مُبتسمًا وقال شارحًا: «يجب عليَّ أن أكون حريصًا، فأنا أتعامل مع السموم في أوقاتٍ كثيرة».

رفع يده وهو يتحدث فلاحظت أنها مليئة بقطع صغيرة مُتشابهة من اللاصق، وقد تغيَّر لونها بفعل الأحماض القوية. كان قد شمَّر كُمَّيه حتى مرفقيه فلاحظت أيضًا وجود وخزات إبر وندبات صغيرة على باطن ذراعيه البيضاوين، كان هناك أيضًا آثار لمحاقن تحت جلدية. نظرت مُجددًا إلى ملامحه المُفعمة بالحيوية وعينيه المُتقدتين فأدركتُ أنه على الأقل جزء من هذه الحيوية مصدره المنشطات غير الطبيعية.

جلس ستامفورد على كرسي مُرتفع ذي ثلاثة أرجل، ودفع آخر ناحيتي بقدمه، ثم قال: «لقد جئنا لمُناقشة أمر هام، كما ألمحت هذا الصباح عندما قلت إنني سأضع الأمر في بالي بخصوص السكن».

رفع هولمز حاجبه في تساؤل.

«صديقي واطسون هنا في حاجة إلى سكن، وهو لا يُعارض فكرة المُشاركة، لذا فكَّرت أنه من الأفضل أن أجمعكما معًا».

بدا شيرلوك هولمز مُبتهجًا لفكرة مُشاركتي السكن معه مما فاجأني، رُبما حدسه الثاقب الذي أخبره أنني قد عُدتُ مؤخرًا من أفغانستان قد أعطاه معلومات كافية عني تسمح له بأن يكون مُتقبلًا لهذا الوضع.

قال وهو يغسل يديه: «لقد وضعت عيني على جناح في شارع بيكر، سيكون مُناسبًا لكلينا تمامًا، أتمنى أنَّك لا تُمانع رائحة التبغ القوية».

أجبته قائلًا: «أنا أيضًا أُدخن أنواعًا قوية من التبغ دائمًا».

أومأ برأسه موافقًا وقال: «هذا جيد. عادة ما تكون هناك مواد كيميائية حولي، وأحيانًا أجري بعض التجارب، هل سيزعجك هذا؟».

«على الإطلاق».

«دعني أُفكر، ما هي عيوبي الأخرى...؟».

بينما هولمز يعترف بتقلبه المزاجي وكآبته كنت بالكاد أسمعه، فقد كنت مشغولًا باستيعاب أن هذا سيحدث حقًّا، لقد جرى الأمر كما وعد موريارتي وخطط له، سأتشارك السكن مع هذا الشاب الغريب العبقري ذي العينين الثاقبتين والحماس الغريب، وسأبدأ حياتي كجاسوس. جثامة هذه الحقيقة كادت أن تخنق أنفاسي.

قال هولمز: «ما الذي تود أن تعترف به يا واطسون؟ من الأفضل لكلينا أن نعرف عيوب أحدنا الآخر قبل أن نبدأ في العيش معًا».

ضحكت لهذا الاستجواب المضاد، كانت له طبيعة هزلية تتعارض مع طبيعة الموقف، لاحظت أيضًا أن قائمة هولمز لعيوبه المُفترضة لم تتضمن أنه يتعاطى المخدرات وعلى الأرجح مُدمن.

أجبته قائلًا: «أنا سهل المراس إن كان لي أن أقول، ولكني لا أحب الأصوات المُزعجة، لأن أعصابي لا تزال متوترة بعض الشيء، أنا أستيقظ في ساعات متأخرة وكسول إلى حد كبير، لديَّ مجموعة أخرى من العيوب عندما أكون أفضل حالًا، ولكن هذه هي العيوب الأساسية في الوقت الراهن».

سألني ببعض الاهتمام: «هل تعد عزف الكمان من ضمن قائمتك للأصوات المزعجة؟».

قلت له: «هذا يعتمد على العازف، إذا عُزِفَ الكمان جيدًا فإنه يكون هبة من الرب، أما إذا عُزِفَ بشكلٍ سيئ...».

قال بارتياح: «أوه، هذا جيد إذن، أعتقد يا عزيزي الدكتور أننا قد حسمنا الأمر، هذا بالطبع إن أعجبك الجناح».

أدركت أنني لم أبدُ مُتحمسًا بلا شكٍّ، أنا أعرف أنه من الآن وصاعدًا كل تصرفاتي يجب أن تكون حذرة ومحسوبة «متى يُمكننا رؤيته إذن؟».

«قابلني هنا في الغد عند الظهيرة وسنذهب معًا ونحسم الأمر».

قلت وأنا أُصافحه: «حسنًا إذن، الظهيرة بالضبط».

تركناه أنا وستامفورد يخط اكتشافاته في مذكرة كبيرة، وبعد مُغادرة المستشفى سرنا لبعض الوقت في اتجاه الفندق الذي أبيت فيه.

توقفت فجأة والتفت إلى ستامفورد قائلًا: «بالمناسبة، أنت لم تُخبره أنني قد عدت للتو من أفغانستان، أليس كذلك؟».

«بالطبع لا، كيف يُمكنني ذلك؟!».

«إذن كيف عرف بحق الشيطان؟!».

ابتسم رفيقي ابتسامة غامضة وقال: «هذه إحدى مميزاته الغريبة، العديد من الناس يريدون أن يعرفوا كيف يكتشف هذه الأشياء».

«أوه، إنه لغز، أليس كذلك؟».

«إذا أردت حل اللغز يا واطسون فسيكون عليك أن تدرس الرجل، ستجد أنه شخصية متشابكة ومعقدة، أُراهن أنه يعرف عنك أكثر مما تعرفه عنه».

«لا أتمنى ذلك بصدق، أُريد أن تبقى أسراري في بئر عميقة». كنت أتحدث بطريقة مازحة ولكني كنت جادًّا تمامًا.

افترقت أنا وستامفورد عند بيكاديللي ثم أكملت الطريق سيرًا إلى الفندق وأنا أسترجع في عقلي مقابلتي الأولى مع شيرلوك هولمز في محاولة يائسة لمعرفة المزيد عن الرجل، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل.

التقينا أنا وشيرلوك هولمز في اليوم التالي كما اتفقنا، وذهبنا لرؤية الجناح. كان مُجرد إجراء روتيني من جانبينا، كان هو مُتحمسًا لإتمام الاتفاق وأنا لم يكن لي خيار في المسألة على أي حالة.

ولكن مع ذلك وجدت أن الجناح في ٢٢١ب شارع بيكر مثالي، كان يتكون من غرفتي نوم مريحتين وحمَّام وغُرفة جلوس كبيرة مُتجددة الهواء أثاثها مُبهج ومضاءة بنافذتين واسعتين.

كانت السيدة كيتي هودسون مالكةُ العقار أرملة قصيرة وأنيقة ذات شعر أشقر بدأ يغزوه الشيب، وقد بدت امرأة مُبهجة ولطيفة. وكانت مسرورة لفكرة أن يأتي «شابان مهذبان مُحترمان» للسكن تحت سقفها. كانت شروطها مُعتدلة عند تقسيم الأمر بين كلينا، وهكذا عُقد الاتفاق في التو واللحظة.

في هذا المساء نقلت أمتعتي القليلة من الفندق، وفي صباح اليوم التالي لحق بي شيرلوك هولمز مع عدد كبير من الصناديق وحقيبة سفر ضخمة. قضينا اليوم نفرغ أمتعتنا ونضعها في الأماكن المُناسبة. ما أن انتهينا حتى جلسنا وبدأنا نعتاد على المكان الجديد.

كان إتمام الاتفاق بهذه البساطة -مُقارنة بالستة أشهر الماضية من حياتي- موضع ترحاب لديَّ، لقد بدأت حقًّا أستمتع بالعيش في ٢٢١ب. لم يكن من الصعب مشاركة شيرلوك هولمز السكن بالتأكيد، كان أسلوبه هادئًا وعاداته منتظمة. عادة ما يتناول الإفطار ويُغادر قبل أن أستيقظ، وغالبًا ما يخلد إلى النوم في العاشرة مساءً، بينما أنا عادة ما أظل مستيقظًا حتى بعد منتصف الليل أقرأ وأدخن وأستمتع بكأسٍ من البراندي.

تلقَّيت أول استدعاء بعد سكني في شارع بيكر بأسبوع، جاءني الاستدعاء عبر رسالة بريدية، كانت الرسالة تحتوي على اليوم والساعة والمكان:

اليوم ١٢ مارس، الساعة ١١.٣٠ صباحًا، ناصية شارع ويجمور وشارع الدوق.

حفظت الرسالة عن ظهر قلب ثم ألقيتها في النار وشاهدتها تحترق حتى تحولت إلى رماد أسود ناعم.

في موعد اللقاء كنت أقف عند ناصية شارع ويجمور عندما اقتربت مني عربة يجرها حصان وسمعت صوتًا من الداخل يطلب مني أن أنضم له.

قال الرجل الغارق في الظلام بمجرد أن جلست: «سعيد لرؤيتك يا دكتور واطسون، أنا العقيد سباستيان موران، كبير موظفي البروفيسور موريارتي».

أمسك بيدي الهزيلة وصافحني قائلًا: «لمَ لا نذهب في جولة قصيرة؟».

ثم نقر سقف العربة بعصاه فانطلقنا بسرعة منتظمة.

«الغرض من هذا اللقاء كما تعرف هو لمجرد تلقي تقرير عن التقدم الذي تُحرزه بخصوص الاتفاق المتعلق بشيرلوك هولمز، كيف تجري الأمور بينكما؟ هل هي ودية؟ والأهم من ذلك، هل تظن أن السيد هولمز لديه أي فكرة عن... كيف أقول ذلك... دوافعك الخفية؟».

لم يُفاجِئني السؤال على الإطلاق، لقد كنت أتوقع نوعًا من الاستجواب وكنت مُستعدًّا له. بشكلٍ بديهي بذلت قصارى جهدي لمُراقبة هولمز في الأيام القليلة التي عشناها معًا، وكنت قد بدأت بالفعل في تكوين صورة عن الرجل، من باب الإنصاف بسبب طبيعتي الفضولية وميلي لاستقاء كتاباتي من واقع الحياة، أعتقد أنني كنت لأفعل هذا على أي حال لو لم يكن لديَّ سبب لفعل ذلك، كانت هناك أشياء عديدة مُتعلقة بطبيعة هولمز وتصرفاته تُثير حيرتي، ولكن الشيء الوحيد الذي أنا واثق منه هو أنه ليس لديه أي شكوك ناحيتي، رغم كل ما قيل عن عبقرية الرجل كمُحقق، كنت وما زلت بقعته العمياء الوحيدة.

لقد جاء ثلاثة أشخاص بحثًا عن السيد هولمز في عنواننا الجديد؛ شابة صغيرة متأنقة الملبس يبدو عليها التعجل وقد بقيت قرابة نصف الساعة، رجل أبيض الشعر يبدو عليه أنه رجل دين، ورجل شاحب ذو وجه كالفأر قد عرَّف نفسه باسم السيد ليستريد، هذا الأخير قد جاء مرتين وتصرَّف بطريقة مراوغة عند لقائي في كلتا المرتين. عندما يصل الزائرون يطلب مني هولمز استخدام غُرفة الجلوس على انفراد، كنت أوافق وأذهب إلى غُرفة نومي.

لقد أثار اهتمامي هؤلاء الزائرون الذين يأتون ويذهبون، ولكني كنت أعرف أنني يجب أن أكون صبورًا.

بالرغم من مُحادثاتنا على الغداء من آنٍ لآخر إلا أن شيرلوك هولمز لم يُفصح لي عن طبيعة مهنته، ورأيت أنه من باب التهذيب في هذه المرحلة المُبكرة ألا أبدو فضوليًّا للغاية. كنت واثقًا أنه في الوقت المُناسب سيُفصح عن كل شيء.

نقلت كل هذه المعلومات إلى العقيد موران الذي أنصت إليَّ بصمت حتى انتهيت.

قال أخيرًا: «عظيم، أعتقد أنك مُحق في مُراقبة فريستك عن بُعد في الوقت الحالي، يجب أن تتكون رابطة من الثقة والاعتماد على أحدكما الآخر بينكما أولًا، وهذا لن يحدث إلا عندما يشعر هولمز بالارتياح التام معك، لقد تمرَّست على تعقب النمور في الهند يا واطسون، أنا شيكاري قديم وأعرف قيمة الصبر والسماح لفريستك أن تشعر بالارتياح والثقة في مأمنها. يجب أن تعرف أن هذا المدعو ليستريد الذي وصفته بأن له وجهًا كالفأر، هو مُفتش في سكوتلاند يارد، ويستخدم هولمز منذ بضعة أشهر. عندما يشعر بأنه عالق -وهذا يحدث كثيرًا- يذهب مُسرعًا إلى صديقنا من أجل المُساعدة، يُمكنني أن أُخبرك أن منظمة البروفيسور لم تكن لتصل إلى نصف نجاحها لو كان هناك أيَّ شخص في سكوتلاند يارد بنصف عقله، لهذا يُمثل شريكك في السكن خطرًا كبيرًا».

تلا ذلك صمت طويل غير مريح، أحسست خلاله بأنه من المفترض أن أُعلق على ما قاله موران، ولكن لم أعرف ماذا يجب أن أقول، أو بالأحرى ما يتوقع مني أن أقوله، في النهاية قلت بإحراج:

---

*شيكاري: كلمة هندية تعني الدليل في رحلات الصيد.

«هل هذا هو كل شيء الآن؟». كنت أرغب في الهرب بأي شكل

من ظلمة العربة الخانقة وصحبة هذا الرجل المخيف. ذكَّرتني هذه المحادثة بحقيقة موقفي الكئيبة والكذبة التي أعيشها. طيلة الأسبوع الماضي كنت مسترخيًا وقانعًا، أُراقب زميلي في السكن بدافع من الفضول لا هذا الدافع الخفي المهين بأن أتجسس عليه.

«أجل يا واطسون، ولكن أرجوك لا تكن فظًّا هكذا، أنت تقبض جيدًا مُقابل مجهوداتك، تذكر هذا».

ملت للأمام والغضب يتعاظم بداخلي، أردت أن أخبره أني لم يكن لديَّ خيارٌ في هذا الأمر، وأن هذا السيناريو برمته مفروض عليَّ، ولكن الكلمات وصلت إلى شفتيَّ ثم تلاشت، كنت أعرف أنه من العبث أن أحتج، كنت ذبابة ضعيفة الحيلة عالقة في شباك عنكبوت وهذا العنكبوت لن يُطلق سراحي بالتأكيد.

أعطاني موران قطعة من الورق، نظرت إليها في الضوء الخافت فأدركت أنها تحتوي على عنوان في غرب لندن.

«يود البروفيسور أن تجمع تقارير دورية عن نشاطاتك مع شيرلوك هولمز ثم تُرسلها بالبريد إلى هذا العنوان أول كل شهر، إن كان هناك أمر عاجل تعتقد أن البروفيسور يجب أن يعرفه على الفور فعليك أن ترسل برقية إلى نفس العنوان، هل هذا مفهوم؟».

«أجل».

«جيد، والآن احفظ هذا العنوان جيدًا ثم أعطني الورقة مُجددًا».

فعلت كما طلب مني.

نقر موران سقف العربة بعصاه مُجددًا فأبطأت حتى توقَّفت.

«سوف نفترق هنا يا واطسون، نحن لسنا بعيدين كثيرًا عن مسكنك».

بينما أقف مدَّ موران يده لي مُجددًا، فصافحته ببعض النفور.

«سررتُ لرؤيتك يا دكتور، نحن نتوقع أشياء عظيمة منك، احرص على ألا تُخيب أملنا».

غادرت العربة على الفور دون أن أُجيبه، وقد أحسست بالسعادة لخروجي إلى الهواء البارد المُنعش مرة أخرى.

كان الانتقام شعلة تحترق بثبات وعنف في قلب جيفرسون هوب لعشرين عامًا، لم تخفت أبدًا ولو للحظة واحدة طيلة هذا الوقت الذي عقد فيه العزم على قتل الرجلين اللذين دمَّرا حياته وتسببا في موت محبوبته لوسي، كان قد سخَّر ما تبقى من حياته لهذه المهمة، وما أن تنتهي فسيسعده أن يلقى خالقه بضمير مستريح. أحسَّ بالارتياح وهو ينظر خارج نافذة مسكنه المُظلمة إلى الغسق الداكن وظلال المارة المسرعة بالأسفل. كان يعرف أخيرًا أنه قد اقترب من هدفه، لقد استطاع أن يتعقب دريبر وستانجرسون إلى لندن، كان يعتقد دومًا أنها مسألة وقت قبل أن يضع يديه عليهما، ولكن هذا الوقت كان قصيرًا للغاية الآن، كان يدعو الله ألا تخذله صحته المتدهورة في اللحظة الأخيرة. من الممكن أن يكون القدر قاسيًا؛ بالفعل، لقد كان قاسيًا معه ولكنه بالتأكيد لن يكون بمثل هذه القسوة.. بعد كل هذا الوقت.

رفع المفتاح أمام ضوء المصباح الزيتي وتفحَّصه كأنه حجر كريم ثم ابتسم، لقد تصادف منذ بضعة أيام أن أحد الركاب في عربته مسؤول عن حراسة بعض المنازل الشاغرة في طريق بريكستون قد أسقط مفتاح أحدها على أرضية العربة، لقد عاد واسترده في نفس المساء ولكن ليس قبل أن يستطيع هوب أن يصنع نسخة منه. كان لديه الآن وسيلة لولوج أكثر مكان في المدينة بأكملها لن يتعرض فيه لأي عرقلة أثناء تنفيذ خطته الوحشية، ومع ذلك تظل المشكلة هي كيف يُمكنه أن يأخذ دريبر إلى هناك.

هذه الليلة جاء الحلم مُجددًا إلى جيفرسون هوب، كان يهرب إلى مدينة كارسون مع محبوبته لوسي وأبيها، كانوا يهربون من قبضة المورمون قاطعين الجبل العظيم الذي يعزل مدينة سالت ليك عن العالم المُتحضر. في الحلم كان يشعر بحرارة الشمس الحارقة والعطش الشديد الذي يُجفف الحلق ويجعل اللسان يتورم، وبينما هم يتسلقون الجبال مقتربين من ارتفاع خمسة آلاف قدم تقريبًا صار الهواء عنيفًا وحادًّا مُخترقًا ثيابهم بقسوة كسكاكين حادة، ولكن قلقه كله كان مُنصبًّا على لوسي، محبوبته لوسي. في الحلم كما في الواقع كان يلعن نفسه على تركها، كان يومهم الثاني في الهرب، وقد نفدت منهم المؤن، كصياد مُحترف كان هوب يعرف أن هناك فرائس من الممكن العثور عليها في الجبال، لذا اختار كهفًا منزويًا كمأوى لمحبوبته وأبيها المريض. كان قد أشعل النار لهما ببعض الأغصان الجافة، ثم انطلق بحثًا عن الطعام.

بينما هوب يتقلّب في نومه المُضطرب كان الحلم الواضح يتكشف بثبات، كما حدث مرَّات عديدة، بعد ساعتين أو ثلاث من البحث العقيم بدأ يفقد الأمل، ولكنه حينها لمح كبشًا جبليًّا وحيدًا، لم يحتج إلى وقتٍ طويل لقتله ولكن كان من الصعب حمله، لذا استخدم مهارته كصيَّاد قديم ليقطع فخذًا وقطعة من الخصر ثم ألقى بها على كتفه وأسرع عائدًا إلى المعسكر المؤقت.

مع اقتراب ذروة الحلم بدأ جيفرسون هوب يئن بصوتٍ عالٍ في نومه المعذب، كان يجر قدميه فوق الصخور الجافة الباردة وينزلق عبر الوديان الصخرية الضيقة، حتى وصل أخيرًا إلى البقعة التي ترك فيها لوسي وأباها، كان ما رآه هو كومة متوهجة من الرماد هي كل ما تبقى من النار، ولم يكن هناك أي مخلوق حي بالجوار، لوسي وأبوها والأحصنة اختفوا. وقف هناك في رعب وصمت الجبال القاسي يخنقه.

بينما هو يقترب من المعسكر رأى آثار حوافر أحصنة عديدة توحي بأن مجموعة كبيرة من الرجال قد أمسكوا بالهاربين، لا شك أن هذه العصابة كان يقودها دريبر وستانجرسون المُتلهفان للإمساك بالفتاة، المُتلهفان لوضع أيديهما الجشعة على ممتلكات أبيها. على مسافة بعيدة بعض الشيء من المعسكر لاحظ هوب وجود جزء بارز من الأرض تُغطيه تُربة حمراء، لا شكَّ أن هذه هي مقبرة حُفِرت منذ وقتٍ قليل، سار ناحيتها بخطوات مُتعثرة وجسده يرتجف من الترقب والتخوف، رأى قطعة من الورق مُثبتة بمسمار إلى صليب مصنوع بشكلٍ بدائي موضوع على مقدمة المقبرة، وكان ما كُتِبَ عليها مُختصرًا:

جون فيرير

من مدينة سالت ليك سابقًا

مات في ٤ أغسطس ١٨٦٠

لقد قتلوا الرجل العجوز. أي عقيدة، أي ديانة تسمح بمثل هذا الفعل؟ أحسَّ هوب بعينيه تحتقنان بالدموع؛ دموع الغضب واليأس. تلفت حوله بحثًا عمَّا إن كانت هناك مقبرة ثانية، كان شبه يتمنى وجود واحدة أُخرى، واحدة تحتوي على حبيبته لوسي، على الأقل سينتهي ألمها وعذابها. أخذ يبحث عبثًا، لم يكن هناك أيُّ مقابر أُخرى.

كان الأمر واضحًا حينها؛ لقد اختطف دريبر وستانجرسون لوسي، وعندما حاول أبوها أن يمنعهما قتلاه، ستكون لوسي حينها في طريقها عائدة إلى مدينة سالت ليك لتلقى ما قُدِّرَ لها منذ البداية؛ أن تتزوج دريبر أو ستانجرسون -من سيختاره كبير الطائفة من بين الاثنين- ويجبروها على الالتحاق بواحدٍ من حرملك المورمون الملعونين. كان يعرف أنه عاجز عن منع هذا من الحدوث، لقد فقد حب حياته. هوى جيفرسون هوب على رُكبتيه وراح ينتحب.

استيقظ منتفضًا كما يحدث عادة عندما يصل إلى هذا الجزء من الحلم، كان جسده غارقًا في العرق ويداه مضمومتين بقوة على جانبيه، استلقى هناك يعب الهواء عبًّا في محاولة يائسة لتهدئة نبضات قلبه المُتسارعة، لقد حذَّره الأطباء أن أيَّ إجهادٍ غير طبيعي قد يُنهي حياته. إن تمدد الشريان الأورطي الذي أُصيب به منذ فقدان لوسي قد ازداد سوءًا بشكلٍ كارثي في الشهور القليلة الماضية حتى أنه كان يعرف أنه لا يتبقى له من الوقت إلا القليل. بالطبع لقد حذَّره الطبيب منذ أسبوع واحد فقط أنه يعيش أيامه الأخيرة.

في النهاية اعتدل واقفًا وحدَّق خارج النافذة إلى أسطح البيوت التي بدأت تظهر بالتفصيل في ضوء الصباح الباكر. إنه لا يستطيع أن ينتظر أكثر من هذا، قد لا ينجو من ليلة أخرى وحلم آخر، يجب عليه أن يتصرف على الفور، يجب عليه أن يتصرف في هذا اليوم تحديدًا. أراح رأسه المُتعرق على زجاج النافذة البارد وابتسم، إن عذابه أوشك أن ينتهي.

## -١١-

## من مذكرات جون ووكر

كما يحدث عادةً تدخَّل القدر ليكسر تحفظ شيرلوك هولمز بخصوص مهنته، كان هذا يوم الثلاثاء الماضي، كالعادة كان شيرلوك هولمز قد ترك مسكننا قبل أن أتناول إفطاري، وهكذا لم يكن لدي شيء أفضل لأفعله فأخذت نفسي إلى منتزه ريجينت لأُراقب تأثير ازدهار الربيع على الحدائق هناك. رؤية مثل هذه الحياة الجديدة وهي تتبرعم كان يتناقض مع صحراء أفغانستان الساخنة القاحلة، ولكن في منتصف الصباح تلبَّدت السماء بالغيوم ووجدت نفسي عالقًا في مطرٍ غزير، التمست المأوى لبعض الوقت أسفل شجرة بلوط كبيرة، ولكن عندما محت السحب الرمادية المُظلمة أي أثر للون الأزرق أدركت أن المطر سيستمر لبعض الوقت، ركضت إلى الشارع، أوقفت عربة أجرة واتجهت عائدًا إلى شارع بيكر فوصلت قبل الظهيرة بوقتٍ قصير.

المشهد الذي رأيته عندما دخلت غُرفة الجلوس المُشتركة جعلني أشهق في دهشة، كان شيرلوك هولمز مُستلقيًا على الكرسي الموضوع أمام المدفأة وقدماه ممددتان على السجادة، كان كمُّه الأيسر مُشمَّرًا، وهناك محقن تحت جلدي يتأرجح بشكلٍ غير مُستقر من يده المُتدلية بجواره.

انفتحت عيناه ببطء مع صوت دخولي والتفت برأسه ناحيتي، ثم تمتم وهو يحاول الوقوف بلا جدوى: «الدكتور العزيز قد عاد مُبكرًا بعض الشيء اليوم».

أسرعت ناحيته وأخذت المحقن من يده قبل أن يسقط على الأرض.

«أنت لم تعترف لي أنك تُسيء إلى نفسك بهذه الطريقة عندما كنا نتناقش في عيوبنا».

«أعترف. أُسيء لنفسي. عيوب. يا لها من لغة عاطفية يا واطسون!».

سألته: «ما هذا؟ كوكايين؟ مورفين؟».

تجهَّم وجهه وقال: «مورفين! هراء، إنه كوكايين يا عزيزي واطسون، تركيبة مُهدئة بشكلٍ رائع، محلول بنسبة ٧ بالمئة، ما يكفي لإثارة المخيلة وعلاج الملل دون أن يُضعف الجسدٍ والعقل».

انتزعت معطفي المُبلل وعلّقته على المشجب، ثم قلت: «لم أكن أعرف أنك تحتاج أيًّا منهما».

صاح هولمز في انزعاج، وهذه المرة نجح في جذب نفسه للاعتدال في وضع الجلوس: «ما الذي تعرفه أنت عن هذه الأشياء بحق السماء؟ حياتي مُسخرة لتجنب الملل، وربَّاه؛ كم أصاب بالملل بسهولة».

جلست قبالته وقد أدركت أنه في هذه الحالة قد يكشف المزيد عن نفسه أكثر من كونه في الظروف الطبيعية.

«لمَ هذا؟ لمَ تُصاب بالملل بسهولة؟».

ابتسم بطريقة حالمة وقال: «لأنني نادرًا ما أحصل على غذاء العقل الذي أحتاجه، عقلي يتمرد على الخمول، أعطني مشكلات، أعطني أكثر الشفرات غموضًا، أو أكثر جرائم القتل تعقيدًا وسأكون حينها في منتهى الحيوية ولن أحتاج لأي منشطات صناعية».

«جريمة قتل؟».

«أجل، جريمة قتل أو سرقة أو تزوير. أنا مُحقق يا واطسون كما ترى، هذه هي مهنتي، أنا المُحقق الاستشاري غير الرسمي الوحيد في لندن، يوجد هنا في لندن الكثير من محققي الحكومة وعدد لا بأس به من المُحققين الشخصيين، وعندما يضل هؤلاء الطريق يأتون إليَّ للنصيحة».

قلت ساخرًا: «إنهم يأتون أفواجًا».

«لا، إنهم لا يأتون أفواجًا، ليس بعد، هذه هي المُشكلة، ولكنهم سيفعلون عندما أُثبت نفسي، في الوقت الحاضر ليس لديَّ أيُّ قضايا بين يديَّ، وعقلي يشعر بالخمول، ولكن عندما أكون مشهورًا سأصير قادرًا على انتقاء القضايا».

كان هولمز الخامل قد اختفى وحلَّ محله مُجددًا الشخص النشيط متقد العينين وهو يتحدث في موضوعه المفضل، أكمل قائلًا: «كما ترى أنا أحوز جزءًا كبيرًا من المعرفة الاستثنائية، وقد درَّبت نفسي على أن أُلاحظ وأستنتج مما أراه، هذا ما يجعلني مُختلفًا. أنت لا تبدو مُقتنعًا».

«هذا زعم جريء».

«تحتاج إلى دليل، أليس كذلك؟ تحتاج إلى برهان على قدراتي، هذا سهل، أتذكر أنك بدوت مندهشًا عندما أخبرتك في لقائنا الأول أنَّك قد عدت للتو من أفغانستان».

«لا شكَّ أن أحدهم قد أخبرك بهذا».

تجاهل هولمز تعليقي بإشارة منزعجة من يده وقال: «لا شيء من هذا القبيل، لقد عرفت، عرفت أنك قد جئت من أفغانستان. إنها عادة قديمة لديَّ، حبل أفكاري يتدفق بسرعة من خلال عقلي حتى أصل إلى استنتاج دون أن أكون واعيًا بالعملية، الأمر بالنسبة لي أشبه بربط أحدهم لحذائه في الصباح، تجري العملية بشكلٍ تلقائي دون أن يفكر المرء في ما يفعله، إنها غريزة».

«إذن كيف عرفت أنني قد جئت من أفغانستان؟».

«لقد تدفق حبل الأفكار في رأسي هكذا، أمامي رجل يمتهن الطب، ولكنه يوحي بأنه رجل عسكري أيضًا، لا شكَّ أنه طبيب جيش إذن. لقد أتى من منطقة مدارية؛ فوجهه داكن اللون، ولكن هذا ليس لونه الطبيعي فمعصماه بيضاوان. لقد مرَّ بالكثير من الصعاب وعلى الأرجح المرض. أين في الوقت الحالي يُمكن لطبيب جيش إنجليزي أن يخدم في منطقة مدارية ويمر بمثل هذه الصعاب؟ أفغانستان بالطبع. لم يحتج حبل أفكاري لأكثر من ثانية».

كنت أستمع في دهشة إلى هذا التحليل، ثم قلت بإعجابٍ حقيقي: «بحق السماء، هذا عبقري».

«بديهي».

«عندما تشرح الأمر يبدو بسيطًا بما يكفي، ولكني أشك أن هناك شخصًا آخر يستطيع أن يقوم بمثل هذا التشخيص».

«هذا لأني دربت نفسي على القيام بمثل هذا التشخيص، على حد تعبيرك. ربما يجب أن أضيف أنني قرأت في جريدة التايمز عن ضابط جيش يُدعى واطسون قد أُعفي من الخدمة في الجيش وأنه قد عاد من أفغانستان، هذه المعلومة أكَّدت فقط استنتاجي».

هذا الكشف قد أزال الكثير من السحر عن زعمه السابق، وكان التلميح الأول الذي أحصل عليه على أن شيرلوك هولمز يتظاهر أحيانًا بكونه أكثر

عبقرية مما هو عليه، لا شكّ أن ملامح وجهي قد أفصحت عن أفكاري.

«المُحصلة النهائية واحدة، في حل الجرائم يجب على المرء أن يستخدم كل وسيلة مُتاحة له ليصل إلى استنتاج مُرضٍ، الجرائد هي مصدر هام للمعلومات، أنا أتصفح الجرائد كل يوم، لحسن الحظ فقد وُهبت ذاكرة فوتوغرافية، وباستطاعتي تذكر أكثر المعلومات غرابة وتسجيلها في عقلي حتى أحتاجها. أنا واثق أنه في الأيام التالية سأجد الكثير من الفرص لأستعرض مهاراتي كمُحقق لأُقنعك بقدراتي وأثبت لك أنني لست دجالًا. ولكن مع ذلك دعني الآن أضيف أنك هذا الصباح قد زرت متنزه ريجينت واحتميت أسفل شجرة عندما أمطرت ثم ركبت عربة أجرة عائدًا إلى هنا».

فغرت فاهي في ذهول.

«هناك آثار من الطين والعشب بنعلَي حذائك، مما يشير إلى أنك كنت تسير في واحد من المتنزهات. بما أن متنزه ريجينت هو الأقرب فيمكن استنتاج أنك كنت هناك، بالإضافة إلى أن هناك قطعة من ورق البلوط عالقة بإحدى ثنايا بنطالك. وبما أنها أمطرت بغزارة وبشكلٍ مُفاجئ فعلى الأرجح أنك احتميت أسفل واحدة من أشجار البلوط العملاقة في المتنزه. إنها لا تزال تمطر بغزارة ولكن معطفك رطبًا بدلًا من أن يكون منقوعًا بالماء، إذن فمن الواضح أنك لم تمشِ عائدًا إلى شارع بيكر. الملاحظة والاستنتاج يا دكتور واطسون».

ومع هذه الكلمات استلقى للوراء مُجددًا في كرسيه وأغلق عينيه عني وعن العالم الحقيقي، ليغرق في نومٍ من أثر المخدرات.

***

كان العمل كسائق عربة أجرة في لندن قد منح جيفرسون هوب القدرة على تتبع ستانجرسون ودريبر أينما ذهبا، كان يشعر بالمتعة من كونه في أعقابهما وهو يعرف أنهما يجهلان وجوده، لقد استقل الرجلان عربته حتى في بعض الأوقات، ولكنه لم يكن يخشى من تعرفهما عليه، مع لحيته الكاملة والقبعة التي يخفضها حتى جبهته، لقد مرَّ عشرون عامًا منذ أن رأياه، كما يعتقد أنه لا أحد ينظر إلى سائقي عربات الأجرة حقًّا على أي حال. كان يتمنى بشكلٍ غريبٍ خفي لو أنهما قد تعرفا عليه، لم يكن يستطيع أن ينتظر لكي يرى نظرة الصدمة والرعب على وجهيهما عندما يدركان أن عدوهما أمامهما. هذا اليوم سيأتي، ولكنه سيأتي عندما يُخطط له وليس قبل هذا.

كان هوب قد تعقَّب دريبر وستانجرسون عبر نصف العالم؛ من سانت بطرسبرج إلى باريس ثم إلى كوبنهاجن. بشكلٍ ما كانا يشعران أن هناك من يتعقبهما، وكان ترحالهما الدؤوب دليلًا واضحًا على إحساسهما بالذنب، وأخيرًا لحق بهما في لندن. كان هوب قد اكتشف أنهما يعيشان في منزل إيواء في كامبرويل، لم يكن الرجلان يُغادران وحدهما، ونادرًا ما يغادران بعد حلول الظلام، كانت هذه هي العقبة أمام هوب، كان يعرف أنه لا يستطيع أن يتعامل معهما في الوقت ذاته، يجب عليه أن ينتظر ليُمسك بكل واحد منهما على حدة.

ولكنه الآن كان يعرف أنه لا يستطيع الانتظار أكثر من هذا، لا يستطيع أن يُغامر بأن يخذله قلبه، ليس الآن وقد اقترب كثيرًا من حلمه، كان قد قرر أن اليوم يجب أن يكون هو اليوم، يجب عليه أن يتصرف بشكلٍ سريع. ثم صار الحظ في جانبه، كان ذلك لاحقًا بعد الظهيرة وهو يقود عربته عبر شارع توركواي تيراس الذي يقطن فيه الرجلان، عندما رأى عربة أجرة تقف أمام بابهما، في ذلك الوقت كان هناك من يخرج متاعًا، وبعد بعض الوقت ظهر دريبر وستانجرسون. لقد وقفا على الرصيف مشغولين في مناقشة حامية، كالعادة كلما رأى هوب الرجلين تسارعت نبضات قلبه، إنهما الشيطانان المسؤولان عن قتل جون فيرير ومحبوبته لوسي. ولم تفعل السنوات العشرون شيئًا لتبديد الكراهية العميقة التي يشعر بها ناحيتهما.

كان دريبر أطول الرجلين، كان يسير في خيلاء، وقد ساهم شعره الناعم المصفف للوراء وشاربه الرفيع في تعزيز الانطباع بالغرور الذي يمنحه. على النقيض كان ستانجرسون قصيرًا ومحني الكتفين ويُعطي دائمًا انطباعًا بالمكر.

بينما هما يتحدثان اندفع عبر الشارع ناحيتهما شاب يرتدي قميصًا وقد احتقنت الدماء في وجهه في غضب، كان يصيح في دريبر بطريقة توحي بالتهديد، الذي أجابه بأن لوح بقبضته ناحيته، تبادل الرجلان المزيد من الكلمات الغاضبة، وفي غضون ثوانٍ اشتبكا بشكلٍ عنيف. كان هوب بعيدًا للغاية فلم يسمع ما قيل في الشجار، ولكن الرجلين كانا غاضبين للغاية وتبادلا اللكمات بشكلٍ عنيف.

ببعض المجهود استطاع ستانجرسون أن يفك اشتباك الرجلين وهو يدفع زميله إلى داخل العربة. صاح الشاب بالمزيد من الكلمات القاسية إلى دريبر ثم عاد مُكرهًا إلى منزل الإيواء.

بدا لهوب أن الرجلين قد طَردا من البيت بسبب تصرف مسيء قد ارتكبه دريبر الأرعن، وهما الآن في طريقهما للسفر مُجددًا. زمجر في إحباط عندما سمع دريبر يطلب من سائق العربة أن يأخذهما إلى محطة يوستون. لا شكَّ أنهما يخططان لأن يستقلا القطار المتجه إلى الميناء ومن هناك يغادران القارة، ما أن يكونا هناك فقد يفقد أثرهما مرة أخرى. تبعهما هوب من مسافة آمنة وهو يشعر بإحساس من اليأس ينهش معدته.

في يوستون ربط عربته ولحق بالرجلين الهاربين على الرصيف المزدحم. هنا اندلعت مشاجرة أُخرى بين الرجلين، اقترب هوب قدر ما يستطيع في الزحام الصاخب لكي يقدر على استراق السمع لمحادثتهما. كان دريبر يوبخ ستانجرسون لأنه أخطأ في قراءة جدول المواعيد، لقد فاتهما القطار المتجه إلى الميناء ولن يصل الثاني قبل ساعتين على الأقل.

كان دريبر يقول: «أيها الأحمق اللعين». ومن وجهه المحتقن وطريقة حديثه الثقيلة بعض الشيء كان من الواضح أنه ثمل.

أجابه ستانجرسون برفق: «إنها مجرد بضع ساعات، يمكننا أن نجلس في غرفة الانتظار، سيمر الوقت بسرعة».

«اللعنة، بالطبع سيمر! فلتجلس أنت في غرفة الانتظار وتُراقب المتاع، أنا لديَّ أمر صغير يجب أن أتولاه».

«أيُّ أمرٍ هذا؟ أنت لن تعود إلى منزل الإيواء، أليس كذلك؟».

«لا تشغل بالك، فلتعتنِ أنت بالمتاع».

«أنا لا أحب فكرة افتراقنا هكذا، هذا قد لا يكون آمنًا».

«توقف عن الجدال، أنت تُشبه الدجاجة أحيانًا».

«ماذا لو لم تعد في الوقت المناسب لتلحق بالقطار؟ إنه آخر قطار اليوم».

«سوف أعود، ولكن إن حدثت مشكلة فسوف ألتقي بك في فندق هاليداي الخاص، أنت تعرف المكان».

أومأ ستانجرسون برأسه.

وبدون كلمة أُخرى اِستدار إينوك دريبر وسار مترنحًا خارجًا من المحطة.

قال هوب لنفسه، أخيرًا اللحظة التي انتظرتها؛ كل واحد منهما وحده، وبعد حلول الظلام. ولكن اللعبة كانت طويلة وشاقة، ولم يكن هوب مستعدًا لإفساد الأمر بالتصرف بتعجل غير مطلوب. لحق بدريبر في عربته وسرعان ما تكشف طبيعة الأمر الذي يريد أن يتولاه؛ على بعد خمس دقائق من محطة يوستون، دلف دريبر إلى حانة وبقي هناك قرابة ساعة، وعندما خرج كان ثملًا أكثر من الأول بكثير.

زيارة أخرى لحانة أخرى حسمت مصير دريبر، لقد طرده صاحب الحانة الغاضب بعد ثلاثين دقيقة تقريبًا.

قال مُزمجرًا وهو يسقط على الرصيف: «لم أكن أعرف أن الفتاة ابنتك».

صاح صاحب الحانة: «لا أُريد حثالة مثلك في حانتي، إن رأيتك هنا مُجددًا فسوف أكسر عنقك اللعين».

ظلَّ دريبر مُستلقيًا على الأرض لبعض الوقت، كأنه لا يقدر على الحركة، ثم ببعض المجهود استطاع أن يعتدل واقفًا على قدميه وهو ينفض الغبار عن نفسه.

تمتم قائلًا لنفسه: «هذا الوغد، لقد كنت أحاول فقط أن أكون لطيفًا مع الفتاة».

ما أن اعتدل واقفًا وهو يترنح حتى نظر في ساعته وقال: «اللعنة! فاتني القطار».

«تحتاج إلى عربة يا سيدي؟».

نظر دريبر لأعلى فرأى عربة أجرة بجانب الرصيف، كان السائق الذي يُحدق إليه رجلًا عريض المنكبين بوجهٍ متورد ولحية رمادية كبيرة.

فكَّر دريبر لوهلة، كان عقله بطيئًا بسبب الكحول، وكان عليه أن يركز بقوة لكي يستطيع أن يؤدي أي فعل بسيط.

قال: «اللعنة، ليس أمامي حل آخر، هل تعرف فندق هاليداي الخاص في شارع ليتل جورج؟».

«أجل يا سيدي».

«رائع، فلتأخذني إلى هناك».

وببعض المجهود تسلق دريبر إلى العربة وهوى على الكرسي، وفي غضون ثوانٍ من حركة العربة كان قد غرق في نومٍ ثمل عميق.

تحرَّكت العربة بعيدًا عن يوستون، بعيدًا عن شارع ليتل جورج، كانت العربة تتجه إلى بريكستون. ابتسم جيفرسون هوب بحرارة لم يشعر بمثلها منذ أكثر من عشرين عامًا.

استيقظ إينوك دريبر من نومه بهزة عنيفة، وعندما فتح عينيه الغائمتين رأى وجه سائق عربة الأجرة يطل عليه.

«لقد وصلنا».

«حسنًا أيها السائق». كان صوته ثقيلًا وغير مفهوم، وبمُساعدة السائق خطا دريبر على الرصيف ولكن بدا حينها أن ساقيه ستخذلانه. تمتم وهو يستند بثقل على السائق: «أحتاج بعض المُساعدة».

أجابه قائلًا: «بالتأكيد يا سيدي».

أمسك هوب بذراع دريبر واقتاده عبر الممر المؤدي إلى البيت الشاغر، ثم فتح الباب وساعد الرجل على الدخول.

قال دريبر: «إن الظلام حالك هنا. أهذا فندق هاليداي الخاص؟». كانت هناك نبرة من الشك، اختلطت بصوته الثمل.

قال هوب: «سوف نُشعل الضوء الآن». ثم أشعل عود ثقاب أضاء به شمعة قد أحضرها معه. امتلأت الحجرة بضوء أصفر كئيب، مُظهرًا أن البيت شاغر ومهجور. في البداية حدَّق دريبر بدهشة، ثم بدأ يشعر بالخوف.

«ما الذي... ما الذي يحدث هنا بحق الجحيم؟ أين أنا؟».

قرَّب هوب الشمعة من وجهه وألقى قبعته العريضة، قائلًا: «لا تشغل بالك بأين أنت يا إينوك دريبر، أنت من سيجيب على سؤالي، من أنا؟».

حدَّق دريبر إليه بفمٍ مفتوح وعينين ثملتين غائمتين، ثم اتسعتا في رعب، وتقلَّصت ملامحه كلها، تراجع للوراء بخطوات متعثرة وقد وضع يده على فمه ليكتم صرخته.

قال هوب بثبات: «أنت تعرفني إذن؟».

بالنسبة لدريبر كانت هذه أكبر كوابيسه رعبًا وبشاعة. بالطبع هو يعرف الرجل، إنه أكثر رجل في العالم يخشى لقاءه، اجتاح الرعب جسده وجعله يفيق من سُكره على الفور. فجأة بدأ عقله يعمل بوضوحٍ شديد، لقد اختطفه أكبر أعدائه وجلبه إلى هذا البيت الملعون.

قال بصوت ضعيف: «لديَّ مال، الكثير من المال، يُمكنني أن أُعطيك مالًا».

أجابه جيفرسون هوب بضحكة عالية.

«ما الذي تريده؟».

أجابه هوب ببساطة: «الانتقام، أريد الانتقام».

## -١٢-

## من مذكرات جون ووكر

في الصباح التالي لاعتراف هولمز الانفعالي بشأن تطلعاته كمُحقق عثرتُ عليه في حالة أكثر بهجة وعينين أكثر اتقادًا، كنت قد خرجت من غُرفتي لتناول الإفطار كالعادة، فوجدته -لدهشتي- مُرتديًا روبًا بنفسجيًّا ضخمًا وجالسًا إلى طاولة الطعام، وأمامه طبق من الخبز المُحمص بالزبد. كان يبتسم بالفعل وهو يفكر في شيء ما، وعندما رآني اتسعت ابتسامته وقال: «آه، واطسون صديقي، لديَّ أخبار جيدة لكلينا».

قلت ببعض القلق: «حقًّا؟». ثم جلست معه على الطاولة وصببت كوبًا من القهوة.

أمسك بورقة ولوح بها في انتصار أمام وجهه وقال: «غذاء العقل أخيرًا، هل تذكر بالأمس كيف كنت في أسوأ حالات اكتئابي لأنه لا يوجد تحقيق جنائي يتحدى عقلي؟».

أومأت برأسي، مرر الورقة إليَّ وقال: «حسنًا، لقد تحقَّقت أمنيتي». ثم صاح بلهفة: «هيا يا رجل اقرأها».

وهكذا فعلت. كان الخطاب كالتالي:

عزيزي السيد شيرلوك هولمز،

لقد حدث أمرٌ سيئ أثناء المساء في ٣ شارع لوريستون جاردينز المُتفرع من طريق بريكستون. لقد رأى رجل الدورية ضوءًا هناك قُرابة الساعة الثانية صباحًا، ولأن البيت كان شاغرًا فقد شكَّ أن هناك أمرًا ما. لقد وجد الباب مفتوحًا، وفي الحجرة الأمامية -التي كانت فارغة من الأثاث- عثر على جثة رجل متأنق الملابس، وهناك بطاقة في جيبه تحمل اسم إينوك ج. دريبر، من كليفلاند، أوهايو، الولايات المتحدة الأمريكية.

لم تكن هناك سرقة، كما لم يكن هناك أيُّ دليل على الطريقة التي لقي بها الرجل حتفه. كانت هناك علامات دماء في الحجرة، ولكن لم يكن هناك أيُّ جروح في جسد الرجل. نحن لا نعرف كيف وصل هذا الرجل إلى البيت الشاغر، الأمر كله مُحير بالفعل. إن استطعت أن تأتي إلى البيت اليوم في أي وقت قبل الثانية عشرة فسوف تجدني هناك.

لقد تركت كل شيء كما هو حتى أعرف رأيك. إن لم تستطع الحضور فسوف آتي إليك في المساء لأُعطيك تفاصيل الأمر بشكلٍ أشمل، وآمل حينها أن تتفضل بإعطائي رأيك.

المخلص لكم،

توبياس جريجسون

أعدت الخطاب إلى هولمز وقلت: «الأمر يبدو مُحيرًا للغاية».

«أجل، لا سرقة، لا سبب واضح للوفاة، لا جروح على الجسد، ولكن آثار دماء في الحجرة. تركيبة مثالية».

«جريجسون هذا...».

قال هولمز: «رجل شرطة، مُحقق، هو وليستريد أذكى اثنين من بين رجال سكوتلاند يارد». ثم ابتسم ساخرًا وأكمل: «ولكن هذا لا يعني الكثير، إنهما أفضل السيئين، إنهما يتصرفان بسرعة ونشاط، ولكنهما تقليديان ومحدودا الأفق».

من سخرية القدر أن يتشارك هولمز والبروفيسور موريارتي نفس النظرة تجاه رجال الشرطة.

قلت: «يبدو جريجسون هذا حريصًا للغاية على أن تُساعده».

«إنه يعرف أنني متفوق عليه، ويعترف بهذا لي، ولكنه سيقطع لسانه قبل أن يعترف بهذا لأي شخص آخر». ثم ضحك هولمز بصوتٍ عالٍ.

«هل تنوي مُساعدته؟».

«بالطبع، لن أُضيع هذه الفرصة بأي ثمن، إن بها كل مقومات قضية رائعة، يجب علينا أن نستقل عربة أُجرة على الفور إلى لوريستون جاردينز».

«يجب علينا؟».

صاح هولمز: «أجل، أنت أيضًا يا دكتور، أنا مُصر». ثم نهض من طاولته وهو ينزع روبه. «أنا أُريدك أن تُشاهد عبقريتي بنفسك، لا يُمكنني أن أتركك تعتقد أنني لست قادرًا سوى على ألعاب الحواة، مُجرد استنتاجات بسيطة مثل؛

من أين أتى شخص ما، وماذا كان يفعل. يجب أن ترى بنفسك الطبيعة العملية لمهاراتي، أعتقد أنك لن تُمانع مُصاحبتي».

لم أستطع منع نفسي من الابتسام على هذا الاقتراح، لقد كان هذا بالطبع هو السيناريو الذي كنت آمل فيه.

في غضون خمس دقائق كنا في عربة أجرة مُتجهين إلى شارع لوريستون جاردينز المُتفرع من طريق بريكستون، وقد بدأت أولى مُغامراتي مع شيرلوك هولمز.

كان صباحًا ضبابيًّا باردًا، وقد تعلَّق الضباب الرمادي على أسطح البيوت، كان رفيقي في مزاج متحمس، وكان طيلة الطريق مُنحنيًا للأمام ناظرًا من نافذة العربة ليطمئن على التقدم الذي تُحرزه رحلتنا، وكان مُتلهفًا للغاية للوصول إلى وجهتنا.

سألته: «هل كوَّنت أيَّ نظرية بخصوص هذا الأمر الغريب؟».

هزَّ هولمز رأسه بحيوية وقال: «ليس هناك معلومات كافية بعد، من الأخطاء الجوهرية أن تبدأ في تكوين نظريتك قبل أن تحصل على كل القرائن، هذا يجعل حكمك على الأمر مُتحيزًا، لهذا من المهم أن أزور مسرح الجريمة لأتحقق منه بنفسي، لا شكَّ أن جريجسون قد فاته العديد من القرائن التي يُمكن أن تقودنا إلى الحقيقة. آه، ها نحن ذا أخيرًا، لوريستون جاردينز».

اعتدل هولمز واقفًا وطلب من السائق أن يتوقف على الفور، كُنَّا على مسافة مئة ياردة تقريبًا من البيت المقصود، فأكملنا رحلتنا سيرًا على الأقدام.

كان البيت رقم ثلاثة بشارع لوريستون جاردينز ذا مظهر مُقبض وكئيب، كان واحدًا من أربعة منازل مُتداعية، جميعها شاغر، وعلى الباب الأمامي لكل منزل توجد لافتة مُتشققة مكتوب عليها للإيجار. كانت النوافذ المُظلمة المُتسخة تطل بنظرة خاوية كئيبة على الشارع الفارغ. كانت حديقة البيت رقم ٣ مُحاطة بجدار من القرميد طوله ثلاث أقدام يعلوه سياج خشبي قصير، وعلى الحائط يتَّكئ رجل شُرطة قوي البنية مُحاط بزمرة صغيرة من المتسكعين الذين اشرأبَّت أعناقهم وحدَّقوا بنظرهم على أمل أن يروا أيَّ شيء مما يجري بالداخل.

كنت أتوقع أن يقطع شيرلوك هولمز ممر الحديقة ليدخل البيت كي يدرس مسرح الجريمة، ولكن هذا لم يحدث، بنوع من اللا مُبالاة بدأ يمشي على الرصيف وهو يحدق بخواء إلى الأرض والسماء والمنازل المُقابلة وصف الأسيجة. لحقت به وقد تركت بيني وبينه مسافة وأنا أشعر ببعض الإحراج وعدم الارتياح.

بعد أن تبادل كلمة قصيرة مع الشرطي أشار إليَّ كي ألحق به، ثم سرنا ببطء عبر الممر. لم يرفع هولمز عينيه من على الأرض، كانت هناك آثار أقدام عديدة على الأرض الطينية الرطبة، لا شكَّ أن عددًا كبيرًا منها ينتمي إلى رجال الشرطة الذين كانوا يروحون ويجيئون. من وجهة نظري لم يكن هناك شيء يُمكن لرفيقي معرفته من هذا التمحيص، رُغم ذلك راح يستعرض، وقد كان استعراضًا حقًّا بتعبيرات وجهه وتمتماته، لقد توقَّف مرتين ورأيته يبتسم وسمعته يصيح في رضا. كنتُ مُتيقنًا أن هذه الأفعال كانت مقصودة والهدف منها إثارة انبهاري واهتمامي.

عند الباب التقينا برجل ذي شعر كتاني يُمسك بمفكرة في يده، وما أن رأى صديقي حتى أسرع ناحيته وصافحه في ترحاب، ثم قال بصوتٍ أجش: «إنه لطف منك حقًّا أن تأتي، لقد تركتُ كلَّ شيء كما هو».

أجابه هولمز ببعض الغضب وهو يشير ناحية الممر: «ما عدا هذا! لو مرَّ قطيع أبقار من هنا لما صنع مثل هذه الفوضى، ولكن لا شكَّ أنك قد وصلت إلى نتائجك الخاصة يا جريجسون قبل أن تسمح بهذا».

احمرَّ وجه الشرطي خجلًا وقال: «كان لديَّ الكثير من الأمور لأعتني بها داخل البيت.. هنا يكمن أساس اللغز الغامض. زميلي السيد ليستريد هنا أيضًا، لقد كنت أعتمد عليه في أن يعتني بهذا الأمر».

نظر إليَّ هولمز ورفع حاجبيه ساخرًا ثم قال بسلاسة: «حسنًا، عندما يتولى رجلان مثلك ومثل ليستريد القضية فإنهما لا يتركان الكثير لكي يكتشفه طرف ثالث».

«لقد بذلنا قصارى جهدنا، ولكني لست واثقًا من أننا اكتشفنا كل ما هو ممكن، إنها قضية غريبة وأنا أعرف حبك لمثل هذه الأمور».

مال هولمز ناحيتي وهمس في أُذني: «ماذا قلت لك؟ إنهما عالقان».

قال ليستريد: «هل ترغب في النظر إلى الحجرة؟».

«أجل، ولكن أولًا؛ هل أتيت في عربة أجرة؟».

هز جريجسون رأسه.

«ولا ليستريد؟».

هز الآخر رأسه.

«لقد وصلتما معًا في عربة الشرطة؟».

«أجل بالطبع».

«لقد خمَّنت هذا، لقد تعرَّفت على آثار العجلات العريضة، أعرض بكثير من عجلات عربة الأجرة، جيد لقد حُسم هذا الأمر، حسنًا فلنبدأ العمل».

ومع هذه الكلمات خطا إلى داخل البيت يتبعه جريجسون الذي ارتسم على وجهه الانبهار التام.

كان هناك ممر صغير أرضيته مُغطاة بالتراب، يقود إلى المطبخ وحجرات الطابق الأرضي الأخرى. كان به بابان يطلان عليه، على اليمين وعلى اليسار، أحدهما من الواضح أنه مُغلق منذ أسابيع عديدة والآخر يؤدي إلى حجرة الطعام التي عُثر على الجثة فيها. دلف هولمز إلى الداخل فلحقتُ به بهذا الإحساس المُقبض في القلب، الذي يشعر به المرء في حضرة الموت.

كانت غُرفة مربعة كبيرة وتبدو أكبر حجمًا بسبب خلوها من أي أثاث. كانت الجدران مُغطاة بورق حائط مبتذل، ولكنه مُبقع بالعفن في أماكن عدة، وهنا وهناك قد انفصلت شرائح كبيرة من الورق وتدلَّت مُظهرة الطلاء المُتداعي وراءها. في الناحية المُقابلة للباب كانت هناك مدفأة يعلوها رف موقد من الرخام المُقلَّد، في أحد أركانه بقايا شمعة حمراء.

كانت النافذة الوحيدة مُلطَّخة بالأوساخ حتى أن الضوء الذي تسلل إلى الغُرفة قد صبغ كل شيء بوهج رمادي قد تعاظم بفعل طبقة الغبار التي تكسو البيت بأكمله.

كل هذه التفاصيل قد كتبتها لاحقًا. عند دخولي الغُرفة لفت انتباهي على الفور الجسد الهامد المُمدد على الأرض بعينين خاويتين تحدقان إلى السقف الباهت. كان الجثمان لرجلٍ في أوائل الأربعينيات، متوسط الحجم، بشعر

أسود لامع مصفف للوراء، وشارب مُشذب بعناية. كان يرتدي معطفًا صوفيًّا ثقيلًا من الجوخ وصدرية وبنطالًا فاتح اللون وياقة وكُمَّين نظيفين. كانت هناك قُبعة موضوعة على الأرض بجواره. كانت قبضتاه مضمومتين ولكن ذراعيه مفرودان على اتساعهما كأن نزعات الموت كانت قاسية للغاية، كان وجهه المُتصلب يحمل تعبير رعب شديد.

ما أن رأيت الرجل حتى أحسست بالدوار، ولمع أمام عينيّ ضوء مُفاجئ حارق أغشى بصري، ولوهلة عدتُ إلى أفغانستان في خيمة المُستشفى الحارة أنظر إلى زملائي الموتى، كانت عيناه تحملان نفس الرعب وعدم التصديق، وكانت جثته مُتقلصة في ألم بنفس الطريقة.

كدت أسقط أرضًا فمددت يدي لأستند إلى الجدار. هززت رأسي وأخذت نفسًا عميقًا في محاولة لطرد هذه الرؤية من عقلي. لحُسن الحظ كان الآخرون في الغُرفة مستغرقين للغاية فيما يشغلهم فلم يلاحظوني.

كان الرجل الذي عرفت أنه ليستريد يقف بجانب الجثة يخط بعض الأشياء بشكلٍ سريع في مُفكرة، كان نحيفًا ويُشبه الفأر بعينين خرزيتين لامعتين لا تتوقفان عن الحركة.

قال مُخاطبًا هولمز: «أنا واثق أن هذه المُشكلة سوف تتسبب لنا في مُشكلات، إنها تفوق أيَّ شيء رأيته من قبل».

قال جريجسون: «لا يوجد أيُّ طرف خيط».

وافقه ليستريد قائلًا: «لا يوجد على الإطلاق».

قال هولمز: «سوف نرى، سوف نرى». دون أن يحاول إخفاء الغرور في صوته.

اقترب من الجثة وانحنى على رُكبته إلى جوارها وهو يفحصها باهتمام، ثم سألهما وهو يشير إلى آثار الدماء العديدة على الأرض حول الجثة: «هل أنتما واثقان أنه لا توجد جروح؟».

قال المُحققان في صوتٍ واحد كأنهما جزء من جوقة موسيقية: «بالتأكيد!».

«إذن فالدم ينتمي إلى شخص آخر، على الأرجح القاتل، إن كان ما حدث هنا حقًّا هو جريمة قتل. هذا يُذكرني بالظروف التي أحاطت بمقتل فان جانسن

في أوترخت عام ٣٤، هل تذكر القضية يا جريجسون؟».

«لا يا سيد هولمز».

«إذن فلتقرأ عنها، يجب عليك هذا حقًّا، لا جديد تحت الشمس، كل شيء قد حدث من قبل».

بينما هو يتحدث كانت أصابعه النحيفة تتحرك هنا وهناك وفي كل مكان؛ تتحسس، تضغط، تفك أزراراً، تتفحص. ورغم سرعة الفحص إلا أنه كان من الواضح لي أنه يفعل ذلك بدقة يُحسد عليها. وأخيرًا انحنى هولمز على جُثة الرجل وتشمم شفتيه، ثم نظر إلى نعلَي حذائه الجلدي.

عندما اعتدل واقفًا ليواجهنا لم تُفصح تعبيرات وجهه عن أي شيء من أفكاره أو استنتاجاته.

«يُمكنكما أن تأخذاه إلى المشرحة، لا يُمكن معرفة المزيد».

كان جريجسون قد أعدَّ محفَّة وأربعة رجال قد جاؤوا إلى الغُرفة عندما ناداهم فوضعوا الجثة على المحفة وغطوها بغطاء أسود ثم حملوها بعيدًا. وبينما هم يفعلون ذلك سقط خاتم مُصدرًا رنينًا وهو يتدحرج على الأرض.

أمسك به ليستريد ورفعه بالقرب من الضوء، ثم صاح: «لقد كانت هنا امرأة! إنه خاتم زواج امرأة».

كان يُمسك به وهو يتحدث فتجمعنا كلنا حوله وحدقنا إليه، لا شكَّ أن هذا الخاتم الذهبي البسيط قد زيَّن ذات يوم إصبع عروس.

عقد جريجسون حاجبيه وحكَّ رأسه ثم قال: «هذا يُعقد الأمور، والله وحده يعلم كم كانت مُعقدة من قبل».

«عزيزي جريجسون لا يوجد شيء مُعقد كثيرًا حيال هذا الأمر، تعالَ، تعالَ، لن تعثر على حل اللغز بالتحديق إلى هذا الخاتم اللعين». قالها هولمز بخيلاء أحسست أنها مقصودة لإبهاري بنفس الطريقة التي يتعامل بها مع حمقى سكوتلاند يارد. «ما الذي عثرتم عليه في جيوبه؟».

قال جريجسون وهو يقتادنا إلى البهو ويشير إلى كومة من الأشياء على درجة السلم السُّفلية: «لدينا كل شيء هنا؛ ساعة ذهبية رقم ٩٧١٦٣ صناعة

بارود في لندن. سلسلة ذهبية للساعة، ثقيلة وسميكة. خاتم ذهبي مزخرف برمز ماسوني. دبوس ذهبي على شكل رأس بولدوج، مع ياقوتتين موضع العينين. حقيبة جلدية روسية بها بطاقة تحمل اسم إينوك دريبر من كليفلاند، قماشها مُطرَّز بأحرف إ. ج. د. لا توجد محفظة ولكن توجد أموال سائبة بقيمة سبعة جنيهات وثلاثة عشر شلنًا. نسخة جيب من رواية ديكاميرون تأليف جيوفاني بوكاتشيو، وعلى الصفحة الأولى مكتوب اسم جوزيف ستانجرسون. هناك خطابان أحدهما إلى إ. ج. دريبر، والآخر إلى جوزيف ستانجرسون».

سأله هولمز وهو ينظر إلى الأشياء نظرة سريعة: «ما هو العنوان؟».

«مكتب التبادل الأمريكي شارع ستراند، أن يُترك هناك حتى يطلبه صاحبه. الخطابان من شركة جويون للسفن البخارية، بخصوص الإبحار على متن سفنهم من ليفربول، من الواضح أن هذا المسكين كان على وشك السفر إلى نيويورك».

«هل أجريت تحقيقات بشأن الرجل الآخر؛ ستانجرسون؟».

تهلَّلت أسارير جريجسون وقال: «لقد فعلت هذا على الفور، لقد أرسلت إعلانات إلى كل الصحف وذهب أحد رجالي إلى مكتب التبادل الأمريكي ولكنه لم يعد بعد».

«هل أرسلتم إلى كليفلاند؟».

«لقد أرسلنا برقية لهم هذا الصباح».

«كيف صغت استفساراتك؟».

«لقد وصفنا الحادث بالتفصيل، وقلنا إننا سنكون سعداء لمعرفة أي معلومات من الممكن أن تُساعدنا».

«لم تطلب منهم أيَّ تفاصيل مُحددة عن أي نقطة تعتبرها محورية؟».

بدا أن جريجسون قد أحس بالحرج بعض الشيء من هذا السؤال، وقال: «حسنًا لقد سألتهم عن ستانجرسون».

قلب شيرلوك هولمز عينيه في إحباط ثم قال: «لم أحصل على الوقت الكافي بعد لكي أتفحص الحجرة، ولكن إذا سمحت لي فسوف أفعل هذا الآن».

خطا عائدًا إلى الحجرة التي لم تعد مُقبضة كذي قبل بعد إزالة نزيلها المروع. ثم أخرج من جيبه شريط قياس وعدسة مُكبِّرة كبيرة. بدأ يهرول في أنحاء الحجرة جيئة وذهابًا، أحيانًا يتوقف وأحيانًا ينحني على ركبتيه، وفي إحدى المرَّات استلقى تمامًا على وجهه. كان مُستغرقًا تمامًا فيما يفعله حتى بدا أنه قد نسي وجودنا، فقد كان يتحدث مع نفسه بنبرة خفيضة عصبية طيلة الوقت، أحيانًا يطرح على نفسه سؤالًا ثم يُجيبه. وأنا أُراقبه ذكَّرني هذا رُغمًا عني بكلب صيد مُدرَّب جيدًا يقفز للأمام والوراء في حماس حتى يصل إلى الرائحة المنشودة. كان شيرلوك هولمز الآن في أوج تألقه، لا توجد مخدرات أو منشطات يمكنها أن تثير نشاط وحماس هذا الرجل مثل هذا البحث المحموم عن طرف خيط. وهكذا لما بدا أنه خمس عشرة دقيقة وقفنا نُراقب هذا الاستعراض الاستثنائي وهو يقيس المسافة بين علامات كانت خفية تمامًا بالنسبة لي وأحيانًا يضع شريط القياس على الجدران بطريقة أعجز عن فهمها أيضًا. في أحد الأماكن جمع بحرص كومة صغيرة من الغبار الرمادي من الأرض ووضعها في مظروف. وأخيرًا تفحَّص المدفأة ثم صاح في ابتهاج وهو يختطف الشمعة التي قد وُضِعت على طرف المدفأة ثم أشعلها وقرَّبها من الركن القريب.

صاح بحماس رجل مسرح يُقدِّم أحدث عروضه: «ما رأيكم في هذا أيها السادة؟».

أضاء الضوء المتراقص جزءًا من الجدار حيث نُزِعت قطعة كبيرة من ورق الحائط مُظهرة مُستطيلًا شاحبًا من الطلاء الخشن، وفي تلك المنطقة الفارغة كُتِبَت بحروفٍ من دماء كلمة واحدة:

راشي.

أسرعنا لنتفحص الكتابة.

«إن الزائر الآخر لهذه الحجرة -ومن الواضح أنه كان هناك رجلان هنا في الليلة الماضية- قد كتب هذا بدمائه. انظروا إلى اللطخات التي سالت عبر الجدار».

سألته: «لمَ كُتِبَت هناك؟».

قال هولمز شارحًا: «الشمعة الموضوعة على رف المدفأة كانت مشتعلة في ذلك الوقت، وهذا سيكون أكثر رُكن مُضيء في الحجرة».

صاح ليستريد: «أوه، يُمكنني أن أُجيب على هذا، هذا يعني أن من كتبها كان يُريد أن يكتب اسم راشيل، ولكن شيئًا ما منعه من إكماله. تذكَّروا كلماتي جيدًا؛ عندما تحل هذه القضية ستجدون أن هناك امرأة تُدعى راشيل لها علاقة بالأمر. يُمكنك أن تضحك كما تشاء يا سيد هولمز، أنت تظن أنك ذكي وبارع للغاية، ولكنك ستكتشف في النهاية أن كلب الصيد العجوز هو الأفضل».

حاول هولمز الذي قد انفجر في ضحك فظ أثناء حديث ليستريد أن يكبح إحساسه التلقائي بالاستمتاع، ثم ابتسم وقال بنبرة ساخرة: «أنا واثق أنك مُحق، أرجوك دعني أعرف كيف تجري تحقيقاتك، سأكون سعيدًا لمُساعدتك بأي شكل إن استطعت، في الوقت الحالي أُريد أن أتحدث مع الشرطي الذي اكتشف الجثة».

قال ليستريد: «إنه في البيت الآن».

«هل يُمكنك أن تُعطيني اسمه وعنوانه؟».

نظر ليستريد إلى مُفكرته ثم قال: «جون رانس، سوف تجده في ٤٦ شارع أودلي كورت، بوابة كينينجتون بارك».

كتب هولمز العنوان ثم قال وهو يُمسك بذراعي: «هيا بنا يا دكتور، يجب أن نذهب لنبحث عنه».

خطا جريجسون للأمام وقال: «قبل أن تذهب يا سيد هولمز، هل عرفت أي شيء من تحقيقاتك هنا يُمكنه أن يُساعدنا؟».

«أوه، بالتأكيد».

نظر ضابطا الشرطة أحدهما إلى الآخر، ثم نظرا إلى هولمز منتظرين كلماته التي ستساعدهما على حل هذه القضية.

«يُمكنني أن أُخبركما أن هناك جريمة قتل قد حدثت حقًّا، والقاتل كان رجلًا، طوله أكثر من ست أقدام، في منتصف العمر، لديه قدمان صغيرتان بالنسبة لحجمه، يرتدي حذاءً خشنًا ذا مقدمة مُربَّعة، ويدخن سيجارًا من نوع

تريكينوبولي. لقد جاء إلى هنا مع ضحيته في عربة ذات أربع عجلات يجرها حصان بثلاث حدوات قديمة وحدوة جديدة في إحدى قدميه الأماميتين. على الأرجح أن القاتل له وجه متورد وأظافر يده اليُمنى طويلة بشكلٍ ملحوظ، هذه بعض المُلاحظات القليلة ولكنها قد تُساعدكما».

لوهلة كان رجلا الشرطة عاجزين عن النطق على إثر هذا التقرير الدقيق، ثم قال جريجسون أخيرًا: «إن كان هذا الرجل قد قُتل فكيف حدث هذا؟».

قال شيرلوك هولمز باقتضاب وهو يسير مُبتعدًا: «بالسُّم». ثم وقف عند الباب والتفت إليهما وقال: «هناك أمر آخر، كلمة راشي هي كلمة ألمانية تعني الانتقام، فلا تضيعا وقتكما في البحث عن سيدة باسم راشيل، وداعًا أيها السيدان».

## -١٣-

## من مذكرات جون ووكر

لم أُشارك شيرلوك هولمز استمتاعه بإرباك جريجسون وليستريد ونحن نُغادر البيت رقم ٣ بشارع لوريستون جاردينز، ولكني أيضًا كنت أشعر بالحماس للاحتمالات العظيمة التي اختمرت في عقلي وأنا أشاهد وأستمع إلى صديقي الجديد وهو يستعرض قُدراته الاستثنائية. رُغم خيلائه وحبه الذي لا يحاول إخفاءه في أن يكون أسفل دائرة الضوء، إلا أن شيرلوك هولمز لم يكن شخصًا فريدًا فقط، ولكن لديه سمات شخصية مُثيرة للاهتمام، التي إن قُدِّمت في سرد مثير ستجعله رمزًا بطوليًّا. مع بعض التعديلات المُناسبة لسماته الشخصية أعتقد أن باستطاعتي تصوير شيرلوك هولمز كمُحقق بطل مُفعم بالحيوية، بالطبع هذه القضية التي يعمل عليها الآن ستكون مُقدمة ممتازة لجمهور القراء. كتابة سرد شبه خيالي لتحقيقاته ستُضيف بعض الإثارة إلى حياتي وستُعطيني سببًا معقولًا لدراسته ودراسة أساليبه.

أحسست بتوهج دافئ من الرضا لهذا الاكتشاف، في الوقت الذي سيتلقى فيه موريارتي تسجيلات غير مُعدَّلة لما يفعله شيرلوك هولمز، سأحولها في الوقت ذاته إلى قصص درامية. لقد كان هذا هدفًا نبيلًا إلى حدٍّ كبير بالنسبة لحياتي البائسة. من الآن فصاعدًا يجب عليَّ أن أتذكر كل المُحادثات والحوادث وأحتفظ بمُفكِّراتٍ عديدة. أنا على وشك أن أصير كاتب السيرة الذاتية لأعظم مُحقق في لندن.

ظنَّ هولمز أن ابتسامتي العريضة سببها إعجابي بعمله التحقيقي العظيم أمام مُحقِّقي الشرطة فاغري الفاه.

قال ونحن نجلس في مؤخرة عربة أُجرة: «أعتقد من تعبيرات وجهك يا واطسون أنك لم تصدق كل ما قلته لجريجسون وليستريد هناك».

أجبته بصدق: «أعتقد أنك نمَّقت الحقيقة قليلًا، وانغمست في بعض التخمينات لإضفاء التأثير المطلوب».

«لا على الإطلاق، كل ما قلته كان حقيقيًّا، كانت استنتاجاتي مبنية بشكلٍ راسخ على ما لاحظته، أول شيءٍ جذب اهتمامي عندما وصلنا إلى شارع لوريستون جاردينز أن هناك عربة أُجرة قد صنعت أخدودين بعجلاتها بالقرب من الرصيف. حسنًا لم يكن هناك مطر حتى الليلة السابقة لمدة أسابيع، إذن

لا شكّ أن العجلات التي تركت مثل هذا الأثر العميق قد كانت هنا أثناء الليل. كان هناك أيضًا آثار حوافر حصان، كانت إحداها قد تركت أثرًا أكثر وضوحًا من البقية مما يُشير لأن هناك حدوة جديدة. بما أن عربة الأجرة قد كانت هناك بعد أن بدأ المطر، ولم تكن هناك في الصباح -كما قال جريجسون- فهذا يعني أنها كانت هنا أثناء الليل وبالتالي أحضرت كلًّا من القاتل وضحيته إلى البيت».

قلت: «حسنًا، هذا يبدو بسيطًا بما يكفي، ولكن ماذا عن طول الرجل الآخر؟».

«لأن طول أي رجل -في كل تسع من عشر حالات- يُمكن تحديده بطول خطوته، كنت قادرًا على قياس طول خطوة الرجل على الطين بالخارج وعلى الأرضية المُغطاة بالتراب في الداخل، لتعزيز هذا الاستنتاج فإنه لدينا الكتابة على الحائط، عندما يكتب رجل بمثل هذه الطريقة فإن غريزته تجعله يكتب في مستوى عينيه تقريبًا. حسنًا هذه الكتابة كانت فوق الست أقدام بقليل».

سألته وأنا عازم على تسجيل كل ما يقوله بحرص في ذاكرتي: «وماذا عن عمره؟».

قال هولمز شارحًا: «حسنًا إن كان الرجل باستطاعته أن يخطو أربع أقدام ونصف دون أدنى مجهود فلا يمكن أن يكون في أواخر العُمر، لقد كان هذا هو اتساع البركة في ممر الحديقة، هناك آثار حذاء جلدي فاخر وهو الذي يرتديه ضحيتنا قد دار من حولها، وهناك حذاء ذو مقدمة مربعة قد قفز من فوقها. لا يوجد أي لغز في هذا، لقد كنت فقط أجمع الملاحظات وأتوصل إلى استنتاجات منطقية من خلالها، هل هناك أيُّ شيء آخر يثير حيرتك؟».

«أجل، طول أظافره والسيجار التريكينوبولي على سبيل المثال».

«لقد كتب الرجل على الحائط بسبابته بعد أن غمسها في الدماء، لقد أظهرت عدستي المُكبِّرة أن الطلاء كان مخدوشًا قليلًا حول الحروف؛ لأن الرجل لديه أظافر طويلة. لا شكَّ أنك رأيتني أجمع بعض الرماد المُتناثر من على الأرض، لقد كان داكن اللون وأقرب للقشور، وهذا الرماد لا ينتج إلا عن سيجار تريكينوبولي».

صحت قائلًا: «أوه، بالله عليك، كيف يُمكن أن تكون واثقًا هكذا؟ هذا الرماد قد ينتج عن أي نوع من السجائر».

ابتسم هولمز ابتسامة مُتفهمة وقال: «من دواعي فخري أنني قادر على تمييز رماد أي نوع مشهور من السجائر أو التبغ بنظرة واحدة. بمثل هذه التفاصيل الصغيرة يختلف المُحقق الماهر عن أمثال جريجسون وليستريد».

«وماذا عن الوجه المتورد؟».

«آه، حسنًا، هذا مُجرد تخمين، رُغم أنني أشك في كوني مُحقًّا، سوف أحتفظ بهذا لنفسي في الوقت الحالي».

«كل هذه الحقائق مثيرة للاهتمام بالطبع، ولكنها لا توصلنا كثيرًا إلى حل هذا اللغز. كيف وصل هذان الرجلان إلى البيت الشاغر؟ إن كان أحدهما هو القاتل فكيف أقنع ضحيته بالدخول؟ أنت لم ترَ أي آثار لاستخدام القوة».

هز هولمز رأسه فأكملت قائلًا: «وماذا عن سائق عربة الأجرة الذي أوصلهما؟ كيف يُمكن لرجل أن يُجبر آخر على تناول السم؟ من أين أتت الدماء؟ ما الغرض من القتل؟ ما الدلالة التي يحملها خاتم زواج المرأة؟ وفوق كل هذا، لمَ قد يكتب رجل كلمة راشي على الجدار؟».

«أحسنت يا واطسون، أنت لديك ذهن متقد، لقد لخصت الصعوبة بشكل يثير الإعجاب. أنا أتفق معك أنه لا يزال هناك الكثير من الغموض، رُغم أني قد حسمت أمري بالفعل بشأن الحقائق الأساسية».

أدهشني هذا الادعاء المُتفاخر فقلت: «حقًّا؟».

«أوه، بالتأكيد، ولكن لا تطلب مني أن أُفصح لك عنه الآن، لا تزال هناك قطع من اللغز أُريد أن أراها في موضعها قبل أن أكشف كل شيء. أنت تعرف أن الساحر المسرحي لا ينال أي ثناء بمجرد أن يشرح خدعته، وإذا شرحت لك الكثير من أسلوبي في العمل فقد تصل إلى استنتاج أنني مجرد شخص عادي».

هذه الحيلة بأن يثير فضولي ببعض تفاصيل قضية، ولكن يحجب عني التفاصيل الهامة، هي حيلة سيُمارسها شيرلوك هولمز بشكلٍ متكرر ومزعج أثناء تعاوننا معًا. كان من المناسب أن يشير لنفسه كساحر استعراضي، فهناك نزعة قوية للأداء المسرحي تجري في دماء شخصيته المتكبرة، إنه يتمنى دومًا أن يكون محط الأنظار، وأن يُمسك بزمام الأمور، وأن يثير الحيرة والإبهار، لقد اعتدت تدريجيًّا على تقبل أسلوبه.

أضاف وهو يتقمص دوره في إثارة فضولي: «ولكن دعني أخبرك شيئًا آخر، إن كلمة راشي هي ببساطة محاولة لتشتيت انتباه الشرطة ووضعهم على المسار الخاطئ، بالإيحاء بوجود الاشتراكية والمنظمات السرية، هذه الكلمة لم يكتبها شخص ألماني. حرف أ إذا لاحظت مكتوب بشكلٍ ما بالطريقة الألمانية، ولكن أي ألماني حقيقي سيكتب دومًا بالحروف اللاتينية. ولهذا أعتقد أن باستطاعتنا أن نقول بثقة إن هذه كتبها مُقلد غير بارع كخدعة لصرف أنظار التحقيق نحو الاتجاه الخاطئ، لا شكَّ أنه كان ناجحًا مع ليستريد وجريجسون».

***

كان جوزيف ستانجرسون مرعوبًا. لم يكن مُتفاجئًا أو قلقًا عندما لم يظهر دريبر في المحطة، لا شكَّ أن امرأة هي السبب كما هو الأمر دومًا مع دريبر، أينما يذهبان لا يستطيع أن يُبعد عينيه أو يديه عن امرأة جميلة، لا يستطيع ستانجرسون أن يُحصي عدد الورطات التي وقعا فيها بسبب رغبات دريبر الجنسية. إن اهتمامه غير المرغوب الذي أولاه لابنة السيدة شاربنتاير هو ما تسبب في طردهما من مسكنهما الأخير، لقد هدد أخو الفتاة بأن يقتل دريبر إذا رآه مرة أخرى.

قال ستانجرسون لنفسه إن دريبر بلا شكَّ قد عثر على عاهرة ما في إحدى الحانات وانغمس في المتع مرة أخرى. ولكن عندما لم يظهر شريكه مع حلول الفجر بدأت قبضة الخوف الباردة تعتصر قلبه. لطالما أحس في قلبه الجبان أن القصاص سينالهما ذات يوم بسبب أفعالهما الطائشة في تلك الصحراء القاحلة منذ عشرين عامًا عندما أطلقا النار على العجوز فيرير في ظهره واختطفا لوسي عائدين إلى مدينة سالت ليك. لم يستطع أن يتجاهل الإحساس بالذنب باستخدام الكحول كما يفعل دريبر. لم يتحدث أحدهما إلى الآخر قط عن هذا اليوم، ولكن كليهما كان يعرف أن الذكريات الملعونة لهذه الأحداث ليست بعيدة عن تفكيره.

لطالما أحس ستانجرسون أن هناك شخصًا ما يُلاحقهما، فلم يستطيعا أن يبقيا في مكان واحد لوقتٍ طويل خوفًا من أن تلحق بهما قوة الانتقام، والآن لقد اختفى دريبر.

جذب ستانجرسون ستائر نافذة غرفته في فندق هاليداي الخاص ونظر خارجها إلى الشارع الرمادي، كان خاليًا إلا من عربة أجرة وحيدة تقف على بعد عشر ياردات تقريبًا من المدخل، لم يكن هناك أدنى أثر لرفيقه. كان

يعرف أن عليه الانتظار، أن ينتظر ليومٍ آخر على الأقل، جالسًا في غرفته وهو يأمل ويدعو الله أن يعود دريبر بتفسير بريء لتأخره. فقط لو لم يكن الإيمان قد غادره لكان من الممكن أن يصلي، ولكن حتى في حالته اليائسة هذه كان يعرف أن هذا سيكون بلا طائل. احتضن نفسه ليطمئنها ثم ألقى بنفسه على الفراش وحدق بخواء إلى السقف.

بالخارج في الشارع كان جيفرسون هوب يجلس منحنيًا في مقعد السائق في عربته، يُراقب الفندق وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة رفيعة وحشية. بعد كل هذه السنوات صار قريبًا للغاية من الانتقام لمقتل محبوبته، لقد مات أحد الوغدين، الآن لم يتبقَّ سوى ستانجرسون. كان يعرف أن الجبان لن يجرؤ على مُغادرة الفندق أثناء النهار، سوف ينتظر ستانجرسون ليرى إن كان شريكه سيعود ثم سيحاول الهرب تحت جنح الظلام.

ألقى عقب سيجارته إلى الشارع وبصفعة رقيقة من اللجام بدأت عربته في الحركة، سوف يعود عند الغسق ليكمل مهمته.

## -١٤-

## من مذكرات جون ووكر

ما أن غادرنا لوريستون جاردينز حتى اتجهنا أولًا لأقرب مكتب تليغراف، حيث أودع هولمز برقية طويلة، ثم أكملنا رحلتنا إلى شارع أودلي كورت للالتقاء بجون رانس، الشرطي الذي عثر على الجثة.

قال هولمز ونحن ننزل من عربة الأجرة: «أشك أننا سنعرف أي شيء من هذا الرجل، إن متوسط ذكاء رجال شرطة الدوريات ليس مرتفعًا للغاية».

لم يكن شارع أودلي كورت مكانًا جذَّابًا، كان ممرًّا ضيقًا قادنا إلى باحة مرصوفة بالبلاط وتتراص بها منازل وضيعة. شققنا طريقنا بين مجموعة من الأطفال القذرة وصفوف من الملابس الرمادية والباهتة، حتى وصلنا إلى البيت رقم ٤٦، كان الباب يحمل قطعة متسخة من النحاس نُقش عليها اسم رانس. أخبرتنا امرأة نحيفة -خمَّنتُ أنها زوجة رانس- أن الشرطي لا يزال في الفراش، ثم اقتادتنا إلى حجرة استقبال ضيقة رثة لننتظر بينما توقظه.

سرعان ما ظهر وقد بدا منزعجًا لإزعاجه في نومه.

قال في حدة كأنما يحسم الأمر: «لقد قدَّمت تقريري إلى المكتب».

أخرج هولمز نصف جنيه ذهبي وأخذ يلعب به في مكر، ثم قال وهو يقلب العملة في الهواء: «ظننا أننا يجب أن نسمع الأمر منك مباشرة».

لوهلة لمعت نظرة جشعة في عيني الشرطي المستاء وقال: «سأكون سعيدًا لإخبارك بأي شيء أستطيعه».

«فقط دعني أسمع الأمر منك كما جرى».

جلس رانس على أريكة مغطاة بمفرش مصنوع من شعر حصان وعقد حاجبيه كأنما هو عازم على ألا يغفل أي تفصيلة في حكايته، ثم قال في حماس: «سوف أخبرك بكل شيء من البداية».

لقد التزم بكلمته حقًّا، ولخمس دقائق أخذنا عبر مسار ليلته، منذ أن بدأ الخدمة حوالي العاشرة مساءً، لقد تحدَّث حتى عن إبعاد بعض المجرمين من أمام مكتب رهنيات، ومُساعدته في فض شجار في حانة الأيل الأبيض.

انتظر هولمز بصبر أثناء سرد هذه الحوادث غير المُتعلقة بالموضوع، حتى وصل رانس في سرده إلى ما جئنا لنسمعه: «لقد جاء المطر بعد الساعة الثانية بالضبط، وفكَّرت حينها أن أُلقي نظرة لأرى إن كان كل شيء على ما يرام في طريق بريكستون، إنه طريق قذر ومنعزل بشكلٍ استثنائي، لم ألتقِ بأي شخص أثناء سيري رُغم أن هناك عربة أُجرة أو اثنتين قد مرتا بجواري، لقد كنت مبتلًّا وبائسًا أيها السيدان، وبينما أسير فكَّرت بيني وبينكما كم من الرائع أن أحصل على كأس ساخن من النبيذ، عندما لفت نظري فجأة بريق ضوء في نافذة ذلك البيت، أنا أعرف أن هذه المنازل في لوريستون جاردينز مهجورة، لأن مالكها يرفض إحضار أحد لإصلاح المصارف، رغم أن آخر مستأجر قد مات بالحمى التيفودية. لذا كنت مندهشًا عندما رأيت ضوءًا في النافذة، وشككت أن هناك خطبًا ما».

«لم يكن هناك أي شخص آخر في الشارع في ذلك الوقت؟».

«ولا أي شخص يا سيدي، ولا حتى كلب».

«أكمل من فضلك».

«سرت عبر الممر ودفعت الباب لفتحه، يُمكنني أن أُخبركما أن قلبي كان ينبض بقوة داخل زيي الرسمي. بدا كل شيء هادئًا للغاية لذا ذهبت إلى الحجرة التي كان ينبعث منها الضوء. كانت هناك شمعة يتراقص لهبها على رف المدفأة، شمعة حمراء، وعلى ضوئها رأيت...».

«أجل أجل، أعرف ما رأيته، لقد سرت في أرجاء الحجرة عدة مرات وانحنيت على ركبتك بجانب الجثة، ثم خرجت وحاولت فتح باب المطبخ، ثم...».

تقلَّب جون رانس في جلسته متوترًا وقال: «أين كنت تختبئ لترى كل ذلك؟ يبدو أنك تعرف الكثير عن هذه المسألة، أكثر مما يجب!».

ابتسم هولمز وقال: «أنا مُحقق أُساعد السيد جريجسون والسيد ليستريد، أنا واحد من كلاب الصيد ولست الثعلب». ثم مال للأمام وخفض صوته لتأكيد ما يقوله: «لقد استنتجت أفعالك، والآن من فضلك أكمل».

عاد رانس لإكمال حكايته ولكن احتفظت ملامحه بتعبير من الريبة: «لقد عدت إلى البوابة وأطلقت صافرتي، فجاء ثلاثة رجال شرطة آخرون إلى المكان».

«هل كان الشارع لا يزال فارغًا؟».

«حسنًا لقد كان خاليًا تقريبًا».

«ماذا تعني؟».

تحوَّلت ملامح الشرطي إلى ابتسامة عريضة وقال: «لقد رأيت سُكارى كثيرين في حياتي، ولكنني لم أرَ أيَّ سكير مثل هذا اللعين، كان عند البوابة عندما خرجت مُتكئًا على السياج ويغني بصوتٍ مُرتفع النشيد الوطني الأمريكي، أو شيئًا من هذا القبيل، لم يكن يستطيع الوقوف من دون مُساعدة».

سأل شيرلوك هولمز: «أي نوع من الرجال كان هو؟».

بدا جون رانس مُنزعجًا بعض الشيء لتغيير الموضوع، ولكنه قال: «كان رجلًا سكيرًا بشكلٍ غير معتاد، كان من الممكن أن يجد نفسه في مخفر الشرطة لو لم نكن مشغولين للغاية».

قال هولمز في نفاد صبر: «وجهه، ملابسه، ألم تُلاحظهما؟».

«أعتقد أنني قد لاحظتهما، لأنني كنت من ساعده على الوقوف. كان رجلًا طويلًا بوجهٍ أحمر، وكان الجزء السفلي محاطًا بـ...».

قاطعه هولمز: «حسنًا هذا يكفي، ماذا حدث معه؟».

قال الشرطي بصوتٍ حانق: «كان ما لدينا ما يكفي لنفعله من دون الاعتناء به، أعتقد أنه قد عثر على طريقه إلى البيت في نهاية المطاف».

«ماذا كان يرتدي؟».

«معطفًا بنيًّا طويلًا».

«هل كان يُمسك بسوط في يده؟».

«سوط؟ لا».

تمتم رفيقي قائلًا: «لا شكَّ أنه قد تركه وراءه، ألم تسمع صوت عربة بعد ذلك؟».

«لا».

تنهَّد هولمز وقال: «هذا نصف جنيه ذهبي من أجلك». ثم اعتدل واقفًا وهو يرتدي قبعته قائلًا: «أخشى يا رانس أنك لن تترقى كثيرًا في الشرطة، يُمكن استخدام رأسك هذا كقطعة من الزينة، كان من الممكن أن تنال رتبة عريف الليلة الماضية إن كنت ذكيًّا بعض الشيء، الرجل الذي اعتبرته مجرد ثمل بريء هو الرجل الذي يحمل مفتاح هذا اللغز، الرجل الذي نبحث عنه».

«هل تعني القاتل؟».

«هذا هو ما أعنيه، هيا بنا يا دكتور». ثم خرجنا لنستقل عربة أجرة معًا تاركين الشرطي في حيرة وشك.

قال هولمز بحنق ونحن في طريقنا عائدين إلى مسكننا: «هذا الأحمق الساذج!».

كنت ما زلت أشعر ببعض الحيرة، أنا أعرف أن الرجل السكير يُطابق وصف هولمز للقاتل، ولكن لمَ قد يعود إلى البيت بعد ارتكاب جريمته؟ قرأ رفيقي أفكاري فقال: «ليسترجع الخاتم بالطبع، لهذا عاد رجلنا، من الواضح أنه هام للغاية بالنسبة له، حتى أنه كان مُستعدًا للمُخاطرة بأن يقبض عليه من أجل استرجاعه، وباستخدام هذا الخاتم سوف نُمسك به».

«كيف؟».

«باستخدامه كطعم، سوف ترى». ثم ضحك للحيرة المُرتسمة على وجهي، قبل أن يربت على ذراعي وقد أشرقت ملامحه بابتسامة وهو يضيف: «ولكن يا دكتور أنا سعيد للغاية لأنك أتيت معي لتُشاركني هذا الأمر، إنها أفضل دراسة تُصادفني، دراسة في اللون القرمزي، لم لا نستخدم بعض المُصطلحات الفنية المُنمقة. هناك خيط قرمزي يجري عبر ضفيرة الحياة الشاحبة ومهمتنا هي فك هذا الخيط وعزله وكشف كل بوصة منه».

لاحقًا بعد ظهيرة هذا اليوم، كان جيفرسون هوب يُريح عظامه المُتعبة في حانة رأس التُّرك بينما يرتشف إبريقًا من الجعة ويقرأ الجريدة في تكاسل. كان ينتظر المساء، الظلمة الدامسة حيث يستطيع أن يُكمل مهمته. بينما عيناه تتصفحان الجريدة الصغيرة رأى إعلانًا صغيرًا في عمود المفقودات جعل قلبه ينبض بقوة:

هذا الصباح عُثر على خاتم زواج ذهبي في طريق بريكستون ما بين حانة الأيل الأبيض وبُستان هولاند. للمُطالبة به يُرجى مُقابلة دكتور واطسون، ٢٢١ب شارع بيكر، ما بين السابعة والثامنة هذا المساء.

أخذ هوب جرعة كبيرة من الجعة، إن هذا هو خاتمه بلا شك، الخاتم الذي خاطر بكل شيء لاستعادته الليلة الماضية. اختفت ابتسامته تدريجيًّا وهو يفكر في الوقت المُحدد. بحلول الثامنة مساءً سيكون الظلام قد حل وقد يقرر ستانجرسون المُغادرة. هل يُمكن أن يخاطر بالذهاب إلى شارع بيكر قبل أن يعود إلى فندق هاليداي؟ إن لم يفعل ذلك فقد يفقد الخاتم، أحدهم قد يغتنم الفرصة ويُحاول إقناع دكتور واطسون أنه خاتمه. لا شكَّ أن ستانجرسون سينتظر حتى تصير الشوارع هادئة قبل أن يُبادر بالهرب؟ نظر مرة أُخرى إلى الإعلان، لقد كانت مُخاطرة مستعد لخوضها.

## -١٥-

## من مذكرات جون ووكر

ونحن نقترب من المدينة بعد مُغادرة منزل رانس أوقف هولمز عربة الأُجرة، ابتسم وهو يرتدي قفازه قائلًا: «كفى إرهاقًا للذهن اليوم يا واطسون، أشعر بالحاجة لإراحة عقلي. ستقدم نورمان نيرودا حفلًا بعد ظهيرة هذا اليوم وقد وعدت نفسي أني سأراها مُجددًا، إن عزفها على الكمان رائع للغاية، سوف أراك في مسكننا قُرابة السادسة مساءً». وما أن قال ذلك حتى لوح لي ببهجة ثم قفز على الرصيف واختفى.

سعدت بهذه الفرصة لكي أبقى بعض الوقت وحدي، هذا سيمنحني فرصة لكتابة مذكرات عن أحداث هذا الصباح، وبعد عشاء خفيف كان هذا ما فعلته. ولكن عندما وصلت إلى وصف الجثة الشنيعة في البيت المهجور في بريكستون فوجئت عندما وجدت يدي ترتجف وأنا أكتب، إن مشهد هذا الوجه الشاحب المتلوي في ألم قد أيقظ ذكريات غير محببة في عقلي الباطن، انسابت إلى عقلي أفكار بغيضة وصور واضحة لرفاقي الصرعى والمحتضرين في مايواند. أدركت فجأة أن عيني تغيضان بالدموع، مهما كانت قوة الوعي فإنها لا تستطيع كبح القوة الجامحة الكامنة وراء العقل. كنت أعرف حينها أنني مهما حاولت فلن أقدر على محو تلك التجربة المخيفة. ببعض المجهود وبجرعة من البراندي أكملت مسودة أولية من المذكرات، نُسخة يُمكنني أن أقدمها إلى موريارتي، كنت أعرف أن نُسختي الخيالية ستحتاج للمزيد من المجهود لصقل السرد والمُحقق لجعل كليهما أكثر جاذبية.

عاد هولمز في الساعة التي حددها، ولكني كنت أعرف أن الحفل ليس هو ما أخَّره كل هذا الوقت، لقد عاد للعمل مُجددًا وأحتاج لأن أعرف كل شيء عنه، ولكني كنت واثقًا للغاية أن أيَّ سؤال مُباشر لن يمنحني الإجابة، يجب أن أنتظر الوقت المناسب اندفع إلى الداخل وهو يلقي بمعطفه على الكُرسي ويدندن مقطوعة من تلحين شوبان.

صاح قائلًا: «لقد كان الحفل مُذهلًا، يا لها من فنانة! هل تتذكر ما قاله دارون عن الموسيقى؟ إن القدرة على إنتاجها والإعجاب بها موجودة بين العرق البشري قبل القدرة على الكلام بوقتٍ طويل. إنها تُخاطب طبيعتنا البسيطة البدائية، هناك ذكرى مُبهمة في أرواحنا عن تلك القرون الغابرة عندما كان العالم لا يزال في طفولته».

قلت: «حسنًا إنها فكرة جامحة».

«يجب أن تكون أفكار المرء جامحة كالطبيعة إذا أردنا أن نفسر الطبيعة».

جلس قُبالتي وفجأة راح يتفحص وجهي ثم قال: «إن وجهك شاحب للغاية يا واطسون، آه فهمت، إن هذا الأمر في طريق بريكستون قد أزعجك».

هززت رأسي ولكني لم أقنع رفيقي الذي ابتسم لمُحاولتي المراوغة وقال: «كان يجب أن أفكر في هذا قبل أن أجرك معي لترى رجلًا ميتًا، لا شكَّ أنها قد أعادت إليك ذكريات من أفغانستان، أنا أعتذر».

«لا حاجة للاعتذار، من المفترض أن أكون قد تخطيت هذا الأمر، ولكني أُخذت على حين غرة، هذا كل شيء».

ابتسم هولمز ابتسامة صغيرة تشي بأنه قد أغلق الموضوع ثم قال: «هل وجدت فُرصة لقراءة صحيفة المساء؟».

«لا».

«إنها تُعطي فكرة جيدة عمَّا حدث في بريكستون، ولكن لحُسن حظنا لم تذكر أن هناك خاتم زواج قد عُثر عليه في مسرح الجريمة، لا شك أن هذين الأحمقين ليستريد وجريجسون لم يُدركا كم هو هام».

«ولماذا لحُسن حظنا؟».

«انظر إلى هذا الإعلان، لقد أرسلت واحدًا إلى كل الصحف هذا الصباح».

ألقى بالجريدة ناحيتي فنظرت إلى الموضع الذي أشار إليه، كان الإعلان الأول في عمود المفقودات، قرأت بصوتٍ عالٍ: «هذا الصباح عُثر على خاتم زواج ذهبي في طريق بريكستون ما بين حانة الأيل الأبيض وبُستان هولاند. للمُطالبة به يُرجى مُقابلة دكتور واطسون، ٢٢١ب شارع بيكر، ما بين السابعة والثامنة هذا المساء».

قال هولمز ببساطة: «اعذرني لاستخدام اسمك، إذا استخدمت اسمي فسوف يأتي ليستريد وجريجسون مُسرعين إلى هنا رغبة في التدخل في خططي».

قلت له: «لا بأسِ، ولكن ماذا إن جاءِ شخص بالفعل؟ ليِس لديَّ أيُّ خاتم».

ابتسم قائلًا: «أوه، بل لديك». ثم أعطاني خاتمًا ذهبيًّا لامعًا. «هذا سيفي بالغرض، إنه نُسخة طبق الأصل تقريبًا».

«ومن تظن أنه سوف يأتي على إثر هذا الإعلان؟».

رفع هولمز إصبعه مُعاتبًا وقال: «يجب أن تتخلص من عادة طرح الأسئلة غير الضرورية، إنه القاتل بالطبع، رفيقنا ذو الوجه المتورد والحذاء ذي المقدمة المربعة، لا شكَّ أن هذا الخاتم يعني الكثير له، لقد كان مُستعدًّا للمُخاطرة بالقبض عليه عندما عاد من أجله في الليلة الماضية، أعتقد أنه قد أسقطه وهو ينحني فوق جثة دريبر ولم يشعر بفقدانه في ذلك الوقت، بعد أن غادر البيت اكتشف ضياعه وأعاد اقتفاء خطواته على أمل أن يعثر على الخاتم، عندما وصل إلى البيت الشاغر اكتشف أن الشرطة هناك بالفعل بسبب حماقته بأن ترك الشمعة مُشتعلة، كان يجب عليه أن يتظاهر بكونه سكيرًا لكي يبعد عنه الشبهات، لحُسن حظه أن قد قابل الشرطي العبقري رانس». ثم ضحك هولمز.

«وأنت تعتقد أنه سوف يقرأ الصحيفة هذا المساء على أمل أن يُعلن أحد العثور على الخاتم؟».

«بالطبع، وسيكون مسرورًا للغاية لدرجة أنه لن يشك في وجود فخ».

كررت ببعض الحذر: «فخ؟».

«أجل بالطبع، سوف نُحاصره ونُجبره على الاعتراف بالحقيقة». ثم فتح درجًا وأخرج منه مُسدسًا قبل أن يقول: «هل معك سلاح؟».

«معي مسدس الخدمة القديم وبعض الطلقات».

«إذن من الأفضل أن تُنظفه وتحشوه بالذخيرة، إنه سيكون رجلًا يائسًا، ورغم أني سآخذه على حين غرة إلا أنه من الأفضل أن نكون مُستعدين لأي شيء».

ذهبت إلى غُرفة نومي وفعلت كما نصحني، رُغم أنني كنت أخشى فكرة الاضطرار لاستخدام السلاح، كنت أظن أنني تركت هذه الأيام ورائي، ولكني فكَّرت أنني إن كنت سأصير رفيقًا مُقرَّبًا لمُحقق خاص فلا شكَّ أنه ستكون هناك لحظات من الخطر، ومن الضروري أن أكون مُستعدًّا، بهذه الفكرة في رأسي أديت مهمتي بنشاط.

عندما عدت مع مسدسي وجدت هولمز يعزف على آلة الكمان، تجاهلني لبعض الوقت ثم وضع آلته الموسيقية جانبًا، قال لي: «إن عزفي سيكون أفضل بأوتار جديدة. ضع المسدس في جيبك، عندما يأتي رفيقنا تحدث معه بطريقة عادية، لا تخيفه بالتحديق إليه أكثر من اللازم أو التصرف بغرابة، ثم اترك البقية لي».

قلت وأنا أنظر إلى ساعتي: «إنها السابعة الآن».

«أجل، سيكون هنا في غضون بضع دقائق على الأرجح، سيحرص على أن يكون أول من يُطالب به، افتح الباب قليلًا، هذا سيفي بالغرض، والآن ضع المفاتيح بالداخل، شكرًا لك».

بدأ هولمز يتحدث بصوت مُنخفض مُتقطع وقد احتقن وجهه قليلًا، كان هدوؤه يتبخر بينما بدأ الحماس والخطر المُحتمل الذي على وشك أن نواجهه يُسيطران عليه. في توتر جذب كتابًا من على رف المدفأة وقال: «هذا مجلد غريب قديم، اشتريته من كشك بالأمس -القانون بين الناس- نُشر باللاتينية في لياج في لولاندس سنة ١٦٤٢، كان رأس الملك تشارلز لا يزال على كتفيه عندما طُبع هذا الكتاب الصغير ذو الغُلاف البُني».

أومأت برأسي في تهذيب، كنت أعرف أنه يحاول أن يشغل عقله بمُحادثة ثقافية عابرة، ولكن نبرة صوته كانت تشي بوضوح أنه يفشل في ذلك.

«على ورق الغُلاف بحبر باهت مكتوب باللاتينية من مكتبة ويليام وايت. هل ترى؟». ثم قرَّب الكتاب مني لكي أرى وكانت يده ترتجف.

قال وهو يعيد الكتاب إلى رف المكتبة: «ترى من يكون ويليام وايت هذا، أعتقد أنه مُحامٍ برجماتي من القرن السابع عشر، إن كتاباته تحمل نمطًا قانونيًّا».

قاطعه فجأة رنين جرس الباب بالأسفل.

قال هامسًا وهو يقترب من الباب: «لقد طلبت من السيدة هودسون أن تُرسل كل الزوار للأعلى».

سأل صوت واضح من الأسفل: «هل الدكتور واطسون يعيش هنا؟».

سمعنا السيدة هودسون تطلب من الغريب أن يصعد إلى جناحنا بالأعلى، ثم سمعنا صوت خطوات أقدام ثقيلة على السلم، بعد ذلك بوقت قصير كان هناك طرق على بابنا.

ناديته قائلًا: «ادخل».

على إثر ذلك دخل زائرنا، اضطررت لمنع نفسي من الصياح في دهشة، فمن يقف أمامنا كان الرجل الذي وصفه شيرلوك هولمز لنا بالتفصيل هذا الصباح في لوريستون جاردينز، كان زائرنا يرتدي زي سائق عربة أجرة رث، طوله أكثر من ست أقدام، بوجه متورد، وينتعل حذاءً ذا مُقدمة مُربعة باليًا ومُغطى بالطين.

نظر إليَّ هولمز نظرة انتصار خاطفة.

نقل الغريب نظره بين كلينا ثم قال: «أيكما هو واطسون، الشخص الذي عثر على الخاتم؟».

خطوت للأمام وقلت: «أنا دكتور واطسون».

خطا الرجل ناحيتي وصافح يدي بحرارة قائلًا: «لا أستطيع أن أشكرك بما يكفي يا سيدي، هذا الخاتم يعني العالم بالنسبة لي».

تفاجأت بعض الشيء من أسلوبه المُفعم بالمشاعر، وأحسست لوهلة أنني لا أجد ما أقوله، ولكن هولمز تدخل قائلًا: «اسمي هولمز، وأنا أتشارك مع صديقي السكن هنا، وأنت...؟».

«هاوكنز.. إدوارد هاوكنز».

قال هولمز: «حقًّا؟ حسنًا يا سيد هاوكنز، أنت تعرف بالطبع أننا لا نستطيع أن نُعطي الخاتم لأي توم أو ديك أو هاوكنز يأتي إلى هنا ويزعم أن الخاتم ملكه، يجب أن نرى دليلًا ما على ملكيته».

ضيَّق هاوكنز عينيه وقال: «دليل؟ وكيف يُمكنني أن أقدم هذا؟».

ابتسم هولمز وقال: «على رسلك، نحن لا نشك فيك يا سيد... هاوكنز، ولكن ربما يُمكنك أن تصف الظروف المُتعلقة بفقدان الخاتم ومَن مالك الخاتم الحقيقي».

«مالكه الحقيقي؟».

«حسنًا إنه خاتم زواج امرأة على كل حال.. زوجتك؟».

أومأ هاوكنز برأسه في حرج، من الواضح أنه لم يكن مُستعدًّا لمثل هذا التحقيق عندما يأتي لاستعادة الخاتم.

«واطسون، من فضلك أكرم ضيفنا وصب له كأسًا من النبيذ، وأنت يا سيدي من فضلك اجلس بجانب المدفأة واحكِ لنا حكايتك».

فعلت كما قال لي، بينما اتجه هاوكنز بخطوات متثاقلة مترددة ليجلس حيث أشار هولمز، مرر هولمز كأس النبيذ إليه فتجرعه في جرعة واحدة.

«والآن يا سيدي، كيف فقدت خاتمك؟».

«لا أعرف بالضبط، لقد كنت أشرب في حانة الأيل الأبيض الليلة الماضية، وعلى الأرجح شربت كثيرًا أكثر من اللازم، وأعتقد أنني كنت في طريقي إلى بيتي عندما سقط من جيبي».

سألت بينما هولمز يتحرك ليقف وراء كرسي زائرنا: «ولكن لمَ كنت تحمل خاتم زواج زوجتك منذ البداية؟».

تشتت نظر هاوكنز لوهلة ثم تنهَّد بعمق وبدأ يقدم تفسيره: «إنه تذكار أيها السيدان، زوجتي ماتت منذ سنوات عديدة وهذا الخاتم هو كل ما أملكه ليذكرني بها».

صاح هولمز في سخرية: «جيد، جيد! قريب من الحقيقة ولكن أخشى أنه ليس قريبًا بما يكفي».

حاول هاوكنز أن يعتدل واقفًا من كرسيه ولكن هولمز جاء من ورائه ووضع مُسدسه على جانب رأسه وقال: «اجلس يا سيدي، والآن فلندع هذه الحكايات الخيالية جانبًا، اتفقنا؟ واطسون، دعني أُقدِّم لك جيفرسون هوب، قاتل إينوك دريبر».

## -١٦-

## من مذكرات جون ووكر

«من أنت بحق الجحيم؟».

كان وجه هوب مُحتقنًا في غضب، ولكنه بقي جالسًا ويداه متشبثتان بحافة الكرسي حتى ابيضت مفاصلهما.

«اسمي شيرلوك هولمز، لن يعني هذا شيئًا لك».

«هل أنت من الشرطة؟».

«لا، أنا مُحقق استشاري غير رسمي، في هذه القضية أنا أعمل لصالح الشرطة، ولكن فوق كل شيء أنا مهتم بالعدالة».

«العدالة! هراء، لا توجد عدالة في هذا العالم، إن كانت هناك عدالة فلم أكن لأضطر لملاحقة دريبر وستانجرسون».

سألته: «أنت تعترف إذن أنك قتلت إينوك دريبر؟».

«أنا لا أعترف بأي شيء، لقد اختار القدر أن يموت بدلًا مني، أفترض أن هذا نوع من العدالة».

تحرَّك هولمز ليواجه هوب ومسدسه لا يزال مصوبًا ناحيته ثم قال: «كن جيدًا وأخبرنا بما حدث الليلة الماضية».

ظهرت ابتسامة غريبة على وجه زائرنا، لم يكن بها أي مرح، مُجرد مرارة ساخرة قاتمة أثارت أعصابي.

قال: «سيكون هذا من دواعي سروري، لقد أبقيت الكثير من الألم مكبوتًا بداخلي أيها السيدان، وسيكون من مصلحتي أن أنفث عن بعضه الآن، ليس لديَّ شيء لأخسره الآن. لقد تعقَّبت دريبر وشريكه ستانجرسون حول العالم لسنوات عديدة، لقد كانا ثريين وأنا كنت فقيرًا، لذا لم تكن مُلاحقتهما أمرًا هينًا بالنسبة لي، لقد استطاعا دائمًا أن يسبقاني بخطوة حتى وصلا إلى لندن».

سأل هولمز: «لمَ كنت تُلاحقهما؟».

«كنت أسعى للانتقام بالطبع، لن يهمك كثيرًا أن تعرف لمَ كرهت هذين الرجلين، يكفيك أن تعرف أنهما المسؤولان عن مصرع شخصين طيبين؛ أب وابنته، كانت المرأة التي أحببتها والتي بادلتني الحب. كنا على وشك أن نتزوج، ولكنهم انتزعوها مني وأجبروها على زواج صوري، الزواج من دريبر. المورمون!».

قال هذه الكلمة الأخيرة كأنها وحدها ستُفسر سبب ألمه وإحساسه بالظلم. بعد أن توقف قليلًا أكمل قائلًا: «كسر هذا قلب المسكينة لوسي، ففارقت الحياة. لقد أخذت خاتم الزواج من إصبع جثتها وأقسمت أن عيني دريبر المُحتضرتين ستحدقان إلى هذا الخاتم وأن آخر ما سيُفكر فيه هو الجريمة التي يُعاقب من أجلها. أنا لا أثق في إنصاف القانون، لذا قررت أن أكون أنا الحكم والمُحلف والجلاد، جميعهم في شخصٍ واحد. إن كان لديكما أي قطرة من الإنسانية في روحكما أيها السيدان فستفعلان مثلي إن كنتما في موضعي».

ظلَّ هولمز صامتًا وملامحه جامدة، تساءلت إن كان رفيقي قد تعاطف مع مأساة هذا المسكين كما فعلت أنا، لقد تمزَّق قلبي من أجله.

«عندما وصلت إلى لندن كانت مُدخراتي قد نفدت تقريبًا وكان عليَّ أن أعملٍ لكي أبقى على قيد الحياة. كانت قيادة العربات وامتطاء الخيل أمرًا طبيعيًّا بالنسبة لي كالمشي على القدمين، لذا قدَّمت في مكتب مالكي عربات الأجرة وحصلت على وظيفة، كان يجب عليَّ أن أحضر مبلغًا مُعينًا من المال إلى المالك كل أسبوع، وأي زيادة عن ذلك يُمكنني أن أحتفظ بها لنفسي، نادرًا ما يكون هناك أي زيادة ولكني استطعت التعايش بشكلٍ ما، أصعب مهمة كانت معرفة طريقي في أنحاء المدينة، هذه المدينة هي أكثر متاهة معقدة من بين كل المتاهات، ولكني نجحت في الأمر باستخدام خريطة، وأعتقد أنني أبليت بلاءً حسنًا. لن أثير ضجركما بكيفية تعقبي للسيدين وكيف انتظرت الفرصة المناسبة لأني أعرف أنكما متلهفان لمعرفة ما حدث في الليلة الماضية».

عادت الابتسامة الغريبة القاتمة مُجددًا ثم أكمل: «لقد أحسَّا بوجودي، عرفا أنني في أعقابهما لذا كانا على وشك أن يُغادرا لندن، ولكن فاتهما القطار. توجه ستانجرسون إلى فُندق هاليداي الخاص بالقُرب من يوستون، بينما كان دريبر يستمتع بوقته. استطعت أن أجعله يستقل عربتي كزبون وهو ثمل،

كان مولعًا بالشرب.. والنساء. في نهاية المطاف كانت نهايته بسببهما. أخذته إلى منزل شاغر في لوريستون جاردينز، لقد استطعت أن أحصل على مفتاح المكان بعد أن أسقطه أحد زبائني في عربتي».

سألته: «كيف استطعت تسميمه؟».

هز هوب رأسه وقال: «لا تظن أنني قتلته بدماء باردة، سيكون هذا نوعًا قاتمًا من العدالة حقًّا، أوه لا، لقد قررت منذ وقت طويل أن أمنحه فرصة في هذا الأمر، مهما كانت محدودة، من بين الوظائف العديدة التي شغلتها في أمريكا أثناء ترحالي كنت ذات مرة عامل نظافة في مختبر بكلية يورك، ذات يوم كان الأستاذ يُلقي مُحاضرة عن السموم وعرض على تلاميذه مُركبًا شبه قلوي على حسب تعبيره، الذي استخرجه من نبات في أمريكا الجنوبية، كان يُستخدم قديمًا في تسميم رؤوس الأسهم، لقد كان قويًّا للغاية، بناء على كلامه، حتى أن مقدار حبة من هذا المُركب يعني الموت. لاحظت الزجاجة التي احتفظ فيها بذلك المُركَّب وعندما غادروا جميعًا أخذت بعضًا منه، لقد عملت من قبل في تركيب الأدوية، لذا استطعت أن أحول هذا المركب شبه القلوي إلى حبوب صغيرة قابلة للذوبان، وضعت كل حبة مميتة في صندوق صغير، كان معي أيضًا صندوق مماثل يحتوي على حبوب صُنعت بدون سم، قررت أنه عندما يحين الوقت الذي سأجد فيه فُرصتي فسأجعل هذين الرجلين يختاران من واحد من الصناديق بينما آخذ أنا حبة من الصندوق الآخر، وبما أنني لا أعرف أي الصندوقين يحتوي على الحبوب السامة فإن مصيرنا سيكون بين يدي الآلهة. منذ هذا اليوم احتفظت دومًا بصندوقي الحبوب معي، وفي الليلة الماضية حان الوقت أخيرًا لكي أستطيع أن أستخدمهما. إذا اشتاق واحد منكما أيها السيدان إلى شيء ما كي يحدث، اشتاق له كثيرًا حتى أنه أحس بالألم بداخله رغبة فيه، فسيكون لديكما فكرة عن إحساسي عندما أخذت إينوك دريبر إلى هذا البيت المهجور. لقد انتظرت عشرين عامًا والآن...».

مال هوب للأمام في كُرسيه وعيناه تلمعان بينما هو يعود بالزمن إلى تلك الليلة المحتومة ثم أكمل: «لقد أشعلت شمعة لتمنحنا بعض الضوء، ولكن يديّ كانتا ترتجفان وصدغاي ينبضان في إثارة، في هذا الضوء الخافت أحسست بوجود حبيبتي لوسي وأبيها، لقد كانا معي هناك، معي في النهاية. قرَّبت الشمعة من وجهي وقلت «والآن يا إينوك دريبر، من أنا؟» حدَّق إليَّ لوهلة بعينين ثملتين غائمتين، ثم رأيت الرعب يتجلَّى فيهما ووجهه يتلوى على أثره، لقد عرفني على الفور، لقد كنت شيطانًا مُخيفًا من ماضيه. تراجع للوراء بخطوات مُتعثرة وملامح مذعورة، ورأيت العرق يسيل على جبينه، لم

أستطع منع نفسي من الضحك، فضحكت طويلًا بصوتٍ عالٍ، لا شكّ أنه ظن أنه عالق مع رجل مجنون، سألني بصوتٍ طفولي مثير للشفقة «ما الذي تريده مني؟» صحت «أيها الكلب! لقد طاردتك من مدينة سالت ليك إلى سانت بطرسبرج، وكنت دومًا تهرب مني، الآن قد وصلت إلى نهاية ترحالك أخيرًا، فواحد منَّا لن يرى شروق شمس اليوم التالي». انكمش للوراء أكثر وأنا أتحدث، واستطعت أن أرى في ملامحه أنه يظن أنني في نوبة جنون ما، وأعتقد أنني كنت كذلك لبعض الوقت، كانت النبضات في صدغيّ كضربات المطارق، وأعتقد أنني سأصاب بنوبة من نوعٍ ما لو لم تتدفق الدماء من أنفي وتُريحني.

صحت وأنا أُغلق الباب وأهز المفتاح أمام وجهه «لقد جئت لأنتقم من أجل حبيبتي لوسي، لوسي فيرير، المرأة التي قتلتها، لقد تأخر العقاب كثيرًا ولكنه قد أحكم قبضته عليك أخيرًا» رأيت شفتي الجبان ترتجفان وأنا أتحدث. كان من الممكن أن يتوسل من أجل حياته ولكنه كان يعرف أنه لا جدوى من ذلك.

قال مُنتحبًا «هل ستقتلني؟».

أجبته «هذه ليست جريمة قتل، فمن سيعتبر أن قتل كلب مريض جريمة؟ أي رحمة منحتها لحبيبتي المسكينة عندما انتزعتها من أبيها المقتول وحملتها بعيدًا إلى حرملك المورمون الملعون الذي يندى له الجبين؟».

صاح «لم أكن أنا من قتلت أباها، كان هذا ستانجرسون، إنه من يجب أن تسعى وراءه».

صرخت في غضب «ولكن أنت من كسرت قلبها البريء» ثم وضعت صندوق الحبوب أمامه وقلت «فلندع الرب يحكم بيننا، اختر وكُل. إن الموت في إحداها والحياة في الأخرى. سآخذ ما ستتركه، دعنا نرى إن كانت هناك عدالة على الأرض، أم أنه بالفعل تحكمنا المُصادفة القاسية».

تراجع للوراء في جُبن وهو يتوسل من أجل الرحمة، ولكني أخرجت سكيني ووضعتها على حلقه حتى أطاعني، بإصبعين مرتجفين تناول إحدى الحبتين وابتلعها، أخذت الأخرى ثم انتظرنا، نواجه أحدنا الآخر في الضوء الخافت لنرى أينا سيعيش وأينا سيموت، لن أنسى أبدًا النظرة التي ارتسمت على وجهه عندما أخبرته الآلام الحادة أن السم في معدته. ابتسمت عندما رأيتها أيها السيدان، ابتسمت من الأُذن إلى الأُذن، وابتهج قلبي، أمسكت خاتم زواج لوسي أمام عِينيه ولكن تأثير المركب شبه القلوي كان سريعًا، تشنَّجت

ملامحه في ألم وأخذ يلوح بيديه أمام وجهه وجسده يتمايل في خوف، ثم صرخ بصوتٍ أجش وسقط بثقله على الأرض. قلبته بقدمي ووضعت يدي على قلبه، لم يكن هناك أي حركة، لقد كان ميتًا!

كانت الدماء تسيل من أنفي ولكني لم أُلقِ لها بالًا، لا أعرف ما الذي وضع في رأسي فكرة الكتابة على الجدار بالدماء، ربما كانت فكرة خبيثة لوضع الشرطة في الاتجاه الخاطئ، فقد كنت أشعر حينها بالبهجة والمرح، وأردت أن أمنح نفسي الوقت الكافي للتعامل مع ستانجرسون. تذكَّرت أن هناك رجلًا ألمانيًّا عُثر عليه مقتولًا في غُرفة فُندق في نيويورك، وأن كلمة راشي كانت مكتوبة على الجدار، لقد خمَّنت الشرطة أن هذا كان عمل جماعة سرية ما، ولم يقبضوا على القاتل حتى الآن. فكَّرت أن ما أثار حيرة رجال شرطة نيويورك سيُثير حيرة رجال شرطة لندن أيضًا، لذا غمست إصبعي في دمائي وكتبت الكلمة، ثم غادرت. كانت الليلة لا تزال جامحة ولكني لم أُبالِ بالرياح والمطر، كنت راضيًا، بعد أن قدت عربتي لمسافة ما ووضعت يدي في جيبي اكتشفت أن خاتم لوسي قد ضاع.

كنت مصعوقًا، يجب أن تُدركا أن الخاتم كان التذكار الوحيد الذي أملكه منها، فكَّرت أني قد أسقطته عندما انحنيت فوق جثة دريبر، فقدت عربتي عائدًا ثم تركتها في شارع جانبي وتوجهت بتهور ناحية البيت، فقد كنت مُستعدًّا للمُخاطرة بأي شيء لكيلا أفقد هذا الخاتم. كما شاء القدر فعندما وصلت وجدت نفسي أمام رجل شرطة يخرج من البيت، ولم أستطع إبعاد شكوكه إلا بالتظاهر بأنني ثمل للغاية».

قال هولمز: «ثم رأيت الإعلان في هذه الجريدة المسائية».

أومأ هوب برأسه وقال: «كما قلت، لقد كنت مُستعدًّا للمُخاطرة بأي شيء لاستعادة الخاتم، ولكني أعترف أنني لم أتوقع فخًّا، لقد بدا الأمر برمته بريئًا».

«كما خططت له».

فجأة عقد هوب حاجبيه كأن فكرة غير سارة قد خطرت على باله، وقال: «أتمنى أنكما لا تنويان منعي الآن أيها السيدان، ليس ونصف مهمتي لم يتحقق بعد».

«في فندق هاليداي؟».

أومأ هوب برأسه وقال: «ليست جريمة قتل كما تريان، مجرد عدالة، ولكني يجب أن أحققها بنفسي».

قال هولمز بهدوء: «أخشى أنني لا يُمكنني السماح بحدوث هذا، مهما كنت مُتعاطفًا مع...».

كان هذا كل ما استطاع هولمز أن يقوله قبل أن يقفز هوب من كُرسيه ووجهه مُشتعل بغضب حانق لينتزع المحراك المعدني الكبير من المدفأة، زأر وهو يهوي به على معصم هولمز في محاولة لتجريده من السلاح، صرخ هولمز في ألم ولكنه أبقى قبضته على المسدس.

صرخت وأنا أصوب مُسدسي ناحية هوب: «أسقط المحراك وإلا سأُطلق النار».

تجاهل طلبي وهو يهوي على هولمز مُجددًا، هذه المرة استطاع رفيقي أن يقفز جانبًا في محاولة لتفادي الضربة، ولكن المحراك أصاب ذراعه ورفعها لأعلى، انطلقت الرصاصة من سلاح هولمز وتردد صداها بصوتٍ عالٍ في غُرفة جلوسنا. تجمَّد هوب في موضعه لوهلة وعيناه متسعتان في صدمة، ثم هوى على الأرض ببطء، أسرعت إلى جانبه ولكن لم يحتج الأمر لأي مهارة طبية لمعرفة أن هذا الرجل قد مات.

انحنى هولمز بجواري مُحدقًا إلى وجه هوب الجامد، ثم قال وهو يلهث: «لم أقصد أن أُطلق النار، لقد جعلتني الضربة أضغط على الزناد».

قلت: «لم تقتله الرصاصة، انظر لقد احتكت بكتفه، أعتقد أنه قد مات بأزمة قلبية، يُمكنني أن أقول من تعبيرات وجهه إن حدوث هذا كان مسألة وقت فقط، لقد كان نزيف الأنف تحذيرًا».

قال هولمز بجدية: «ربما لم تقتله الرصاصة، ولكني قتلته، مهما كانت الزاوية التي تنظر بها إلى الأمر».

كنت على وشك أن أُجيبه عندما جاء صوت طرقات مُتعجلة على الباب، وسمعت صوت مالكة العقار السيدة هودسون وهي تقول بصوتٍ مُرتفع: «سيد هولمز؟ دكتور واطسون؟ ما الذي يحدث؟ هل أنتما بخير؟».

عقد هولمز حاجبيه وقال: «تخلَّص منها يا واطسون، أخبرها أن رصاصة قد أُطلقت على سبيل الخطأ».

أومأت برأسي ثم توجهت إلى الباب وفتحته بما يكفي لكي تراني السيدة هودسون وفي نفس الوقت أحجب نظرها عن الغُرفة والجثة. اعتذرت لها عن الإزعاج وشرحت لها سر إطلاق الرصاصة كما أخبرني هولمز. أعتقد أنها ترددت بعض الشيء في تصديق قصتي، ولكنها قبلتها في نهاية الأمر، ثم تمنَّت لي ليلة طيبة قبل أن تُغادر.

عندما عُدت إلى هولمز كان يُخرج علبتين من الصفيح من صدرية هوب، ثم أزاح الغطاءين ليكشف محتوياتهما؛ حبتين بيضاوين صغيرتين في كل علبة.

قال بهدوء: «واحدة بريئة والأخرى تحمل الموت». ثم أغلق العلبتين ووضعهما في جيب صدريته.

سألته: «ماذا الآن؟».

«حسنًا يجب أن نُخبر ليستريد وجريجسون أن لدينا القاتل الذي يبحثان عنه، أو على الأقل جثة القاتل، ولكني لا أريد أن أفعل هذا الآن بعد».

سألته: «لمَ الانتظار؟».

قال وهو يتجه ناحية مشجب المعاطف ويرتدي معطفه: «لأن لديَّ أمرًا هامًّا يجب أن أفعله أولًا».

سألته في حيرة تامة: «أمر هام؟».

«أجل، في فندق هاليداي الخاص».

## -١٧-

كان هناك مصباح زيتي وحيد مشتعل بضوء خافت في غُرفة ستانجرسون بفندق هاليداي. كان الرجل مُستلقيًا بوجهه على الفراش في نومٍ سببه الكحول. على الطاولة الصغيرة بجوار الفراش كانت هناك زجاجة ويسكي تحتوي على أقل من ثلث محتوياتها، كان قد قرر أن يشرب في منتصف ما بعد الظهيرة عندما أدرك أخيرًا أن دريبر لن يعود، لا شكَّ أن شيئًا قد حدث له، شيئًا مُخيفًا، هذا ما كان يخشاه طيلة هذه السنوات. من دون رفيقه المُتعجرف ليُنظم الأمور ويوجهها كان ستانجرسون كقارب بلا دفة. كان يخشى من ترك الأمان في غُرفة الفندق لكيلا يحل به المصير المخيف الذي ربما قد يكون حل بدريبر أيضًا، وهكذا هرب إلى أمان الكحول الهش.

تقلَّب في فراشه كرد فعل على تغير نمط شعلة المصباح المُتراقصة الذي تسبب فيه تيار الهواء البارد الناتج عن فتح الباب، ولكنه لم يسمع صوت أي شخص يدخل، ولم يرَ الهيئة المُظلمة التي تتحرك ناحية فراشه، ولم يُدرك أخيرًا أنه لم يعد وحده في الغُرفة إلا عندما ازدادت إضاءة المصباح الزيتي وغرقت الغُرفة في الضوء الباهر.

هزَّ رأسه ليطرد تشوش الخمر عن عقله، ثم أجبر نفسه على الجلوس ليجد نفسه يواجه رجلًا طويلًا نحيفًا ملامحه غارقة في الظلال.

قال بصوتٍ مُتحشرج: «هوب؟». ولكن ما أن قال الكلمة حتى أدرك أن هذا الغريب لم يكن جيفرسون هوب. كان طويلًا للغاية ونحيفًا للغاية، ومما استطاع أن يراه منه قد بدا أصغر سنًّا.

أكَّد الغريب انطباعه قائلًا: «لا، أنا لست جيفرسون هوب، ولكني هُنا بالنيابة عنه».

«من أنت؟».

جلس الغريب على الفراش وقد سقط وجهه الآن في دائرة الضوء، لاحظ ستانجرسون ملامحه النحيفة الشاحبة، وعينيه الثاقبتين المتقدتين، اللتين تطلان من على جانبي أنفٍ نحيل كالصقر، والشفتان الرفيعتان ترسمان ابتسامة جافة.

«أنا شيرلوك هولمز».

«أنا لا أعرفك...».

«لا، ولكن أنا أعرفك يا جوزيف ستانجرسون، أو لأكون أكثر دقة -وأنا مولع بالدقة- أنا أعرف كل شيء عنك وعن الدور الذي لعبته في مصرع لوسي فيرير وأبيها».

امتقع ما تبقى من دماء في وجه ستانجرسون وفتح فمه في شهقة متحشرجة، استطاع هولمز أن يرى أن الرجل خائف للغاية بشكلٍ لا يسمح له بنفي الاتهام.

قال ستانجرسون أخيرًا وصوته يرتجف في خوف: «أنا... أنا لديَّ مال».

«أنا لست مُهتمًّا بمالك يا ستانجرسون، ما أحضرني هنا هو العدالة. السيد جيفرسون هوب الذي ظلمته منذ سنوات عديدة قد مات اليوم قبل أن يجد الفرصة لينفذ فيك العدالة التي تستحقها، وهكذا حملت على عاتقي تحقيق أُمنيته».

اتسعت عينا ستانجرسون في رُعب ورفع يده إلى فمه ليكتم حشرجة أُخرى، ثم قال: «أنت تُريد أن تقتلني!».

هزَّ شيرلوك هولمز رأسه وقال: «أنا لا أنوي قتلك، سوف ندع القدر يُقرر». ثم أخرج علبة حبوب من جيب صدريته وقال: «كما نال شريكك فُرصته».

«دريبر؟ أين هو الآن؟».

«على طاولة في مشرحة الشرطة».

«لا!». حاول ستانجرسون أن يتحرَّك ولكن هولمز أعاده إلى موضعه على الفراش بيد حازمة وقال: «يجب أن تبقى وتلعب اللعبة، لا يوجد مفر». ثم أمسك العلبة المفتوحة أمام وجه ستانجرسون وقال: «واحدة من هاتين الحبتين سامة والأخرى غير مؤذية، الاختيار لك».

«لا أستطيع.. هذا ليس عدلًا».

«هذا ليس عدلًا؟!». كان صوت هولمز كالمقصلة، وملامحه متجهمة في غضب، «ما الذي تعرفه أنت عن العدل يا من أطلقت النار على رجل أعزل

في ظهره؟ ما الذي يعرفه قاتل بارد الدماء عن العدل؟ خُذ واحدة من هاتين الحبتين، لأنك إن رفضت فأقسم أنني سأقتلك بيديّ العاريتين».

كان ستانجرسون مشدوهًا بغضب هذا الغريب، الذي تشتعل عيناه بجنون جامح مُبرَّر.

جاء الأمر مُجددًا: «خُذ واحدة».

تعلَّقت أصابع ستانجرسون المُرتجفة فوق العلبة ولكنه لم يجرؤ على أخذ إحدى الحبتين خوفًا من أن تكون المميتة.

«خذ واحدة!».

في حذر أخذ إحدى الحبتين من العُلبة.

«الآن ابتلعها».

أغلق ستانجرسون عينيه بقوة ثم وضع الحبة على لسانه وابتلعها.

قال هولمز بهدوء وقد تبدد غضبه: «الآن سنعرف، في غضون بضع دقائق».

وهكذا انتظرا في صمت، استلقى ستانجرسون بظهره على الفراش ووجهه غارق في العرق وعيناه مُغلقتان بقوة.

لم يمر سوى دقيقة قبل أن يشعر بالألم الحاد في معدته، صرخ وهو يسقط من الفراش إلى الأرض متكورًا على نفسه في وضع الجنين.

قال في ألم: «لا، رباه، لا! بحق الشفقة، ساعدني!».

«ليس لديَّ أدنى شفقة ناحيتك، لقد استنفدتها كلها على لوسي وأبيها».

تلوَّى ستانجرسون لثلاثين ثانية أُخرى تقريبًا ويداه مُتشبثتان بمعدته، وقد صار حديثه خافتًا وغير مفهوم، ثم توقَّف عن الحركة تمامًا.

انحنى هولمز على رُكبته وجس نبض الرجل؛ لقد اكتملت مهمته، لقد مات جوزيف ستانجرسون.

## -١٨-

## من مذكرات جون ووكر

بعد أن غادر هولمز غطَّيت جثة جيفرسون هوب بملاءة وانتظرت بجانب المدفأة حتى يعود صديقي. لم يكن لدي حقًّا أدنى فكرة عما ينوي فعله في فندق هاليداي، ولكني توقعت أنه سيجلب ستانجرسون إلى جناحنا لكي تتولى الشرطة أمره، رُغم أن ستانجرسون لم يرتكب أي جرائم نعرفها في هذه الدولة، إلا أنه بالتأكيد هناك احتمال ترحيله إلى أمريكا لكي يُحاكم على قتل والد لوسي فيرير. بينما أنا أنتظر والنار تُفرقع في المدفأة والرياح تهز ألواح النوافذ كأنها تُحاول الدخول رُحت أكتب تفاصيل أحداث الليلة الدرامية.

بعد ساعتين تقريبًا من مُغادرة هولمز المُفاجئة سمعت صوت خطوات أقدامه على السلم، فتح الباب ودلف إلى الغرفة، وبدون أن يخلع قبعته أو معطفه ألقى بجسده على الكرسي الشاغر أمامي، كان وجهه شاحبًا وعيناه محتقنتين بالدماء، كأنه كان يبكي.

قال: «لقد مات الرجل».

«ستانجرسون؟».

«ستانجرسون».

«ولكن كيف...؟».

أمسك هولمز بعلبة حبوب جيفرسون هوب في يده وقال: «لقد قرَّرت هذا المحكمة العليا».

«هل تعني أنك أعطيت الرجل السم؟!».

هزَّ هولمز رأسه وقال: «لقد أعطيته نفس الاختيار الذي أعطاه هوب لدريبر».

هززت رأسي في حيرة، ومررت أصابعي على شعري، ثم قلت: «أنا لا أفهم، لم جعلت الأمور تصل إلى هذا الحد بحق السماء؟».

قال بحدة: «لأنني...». ثم صمت. كان صوته حادًّا وغاضبًا، ولكن كان هناك اضطراب من المشاعر منعكس في عينيه المترقرقتين بالدموع. صمت قليلًا قبل أن يقول: «لأنني رأيت أن هذا هو الفعل الصائب، كيف يُمكن أن يكون من العدل ترك مثل هذا الرجل يهرب من العدالة؟ لقد كان قاتلًا وجبانًا. لقد اشترك في مسؤولية إفساد حياة ثلاثة أشخاص. لقد كنت مُخطئًا بإيقاف هوب الليلة، كان يجب أن أتركه يُكمل الجزء الأخير من انتقامه، لقد كان انتقامًا عادلًا».

«لكنك صرت بدورك شريكًا في جريمة قتل».

لوح هولمز بعلبة الحبوب وقال: «لقد تركته يختار».

«ماذا كنت ستفعل لو اختار الحبة غير المؤذية».

نظر إليَّ هولمز نظرة أثارت القشعريرة في جسدي وقال: «لم أعرض عليه سوى العلبة التي تحتوي على الحبوب السامة».

«إذن لقد كانت جريمة قتل».

«قد يقول بعضهم هذا، وأنا واثق أن ضميري سيؤنبني لبعض الوقت، ولكن ليس لوقتٍ طويل، فهذا الرجل كان يستحق الموت».

«لست أنت من يقرر هذا، لقد تحدَّثت عن محكمة عليا، هذا هراء، لقد قررت أنت مصيره، لقد تدخَّلت».

«أجل، لقد فعلت هذا باسم العدالة الحقيقية، بينما نحن على الأرض يجب أن نُكافح لتحقيق أفضل عدالة يوفرها لنا هذا الوجود البائس، لا يُمكن أن يكون هناك أي شك في طبيعة الذنب في جريمة كبيرة كالقتل، سلب حياة شخص آخر لأسباب أنانية محضة هو أسوأ جريمة يُمكن لإنسان أن يرتكبها، ويجب أن يُعاقب عليها».

«العين بالعين؟ بالتأكيد هذا بربري واختزالي للغاية».

«أتفق معك، يجب التخفيف من حدة الرطانة لتكون على مستوى الحدث، يجب أن نحكم على كل قضية بحسب مقوماتها الخاصة، ولكن أحيانًا لا يُمكن التعامل بإنصاف مع جريمة بسبب الطبيعة الوقتية للعدالة المؤسسية، منذ خمسمئة عام إذا أمسك بي أحدهم وأنا أسرق خروفًا فكان من حق

الإقطاعي أن يأمر بقتلي، الأمر ليس هكذا اليوم، سيكون عليه أن يشتكي إلى القاضي المحلي، وسينتهي بي الأمر على الأرجح في سجن عفن لبضعة أشهر، الجريمة هي ذاتها ولكن القانون مُختلف، هذا لأن تصورات المجتمع قد تغيرت. ولكن كيف يُمكن تعويض سارق الخروف من القرون الوسطى؟ قوانين البشر وقتية وتعسفية، إنها تتغير وتتبدل بحسب تغير تصورات المجتمع. صدقني يا واطسون، قد تتغير القوانين ولكن العدالة الحقيقية الدقيقة الموضوعية هي ذاتها في كل زمان ومكان».

«ما زلت أرى أنه كان عليك ترك القانون يتعامل مع جوزيف ستانجرسون».

«لقد كان لدى القانون عشرون عامًا للتعامل مع كل من دريبر وستانجرسون، وقد فشل. صدقني ليس من السهل عليَّ ما فعلته الليلة، إن يدي لا تزال ترتجف، وأعصابي مشدودة. ولكن هنا ما يهم حقًّا». نقر على صدغه بسبابته بحماس ثم قال: «أنا هادئ، أنا مُطمئن، الجزء العقلاني مني يعرف أنني تصرفت بحكمة وبعدل، وبما يتماشى مع معتقداتي الأخلاقية. وقريبًا سيتغلب هذا الجزء على مشاعري المشتتة، لقد صرت رجلًا أقوى بعد ما فعلته الليلة، وصار طريقي أكثر وضوحًا عن ذي قبل. صدقني يا دكتور العالم مكان أفضل بدون وجود أمثال إينوك دريبر وجوزيف ستانجرسون فيه».

«أرى أنك متحمس للأمر، وأنك قد أقنعت نفسك بأنك لم تفعل شيئًا خاطئًا».

«أجل، ويجب أن أقنعك أيضًا إن كنت ستصير شريكي».

هززت رأسي ببعض الحيرة وقلت: «أنا لست واثقًا، مهما جمَّلت الأمر فإنك قد سلبت رجلًا آخر حياته الليلة، هذه جريمة قتل في نظر القانون، هذه المُسلَّمة تتعارض مع كل ما تعلمته في شبابي، أنا لست واثقًا حقًّا».

لدهشتي ابتسم شيرلوك هولمز وقال: «عدم اليقين يكفي الآن، إنها مسألة أكبر من أن يتقبلها المرء مرة واحدة، لن ألح عليك، أنا أعرف أنك رجل صالح، وهذا يجعلنا أخوين، سوف ترى النور».

«وفي الوقت الحالي...».

«في الوقت الحالي يجب أن أطلب منك دعمك، يجب أن أطلب منك أن تكذب من أجلي».

«لقد خمَّنت هذا».

«الدهاء هو ميزة أُخرى من مزاياك الرائعة، يجب أن نجعل اليارد تعرف أن هوب المسكين هنا، ونجعلهم يعتقدون أنه جاء بعد أن تسلل إلى فندق هاليداي وأكمل انتقامه، سيكون هذا كما أراد الرجل، أنا واثق؛ أن يُرى كملاك انتقام زار كلًّا من معذبيه».

فكَّرت في الأمر لوهلة. في تلك اللحظة كنت أعتقد أن شيرلوك هولمز قد ارتكب خطأً جسيمًا، وأنه قد تجاوز دوره كمُحقق، ولكن رُغم ذلك أدركت أنه لو لم يمتلك البراعة لاستدراج جيفرسون هوب إلى مسكننا فإن ستانجرسون كان سيلقى نفس المصير على الأرجح. بينما أنا أُفكر في هذه الأشياء خلع هولمز ملابسه الخارجية وصب لنفسه كأسًا من البراندي. أعادت رائحة الكحول إلى عقلي تلك الليلة أسفل نجوم أفغانستان وأنا مُتكئ إلى الشجرة العجوز وأشرب البراندي... كم عانيت بسبب هذا التصرف! لم يكن هولمز وحشًا، لم يكن قاتلًا حقًّا، وإن كان قد ارتكب تجاوزًا فإن هذا لأفضل الأسباب الممكنة. لم أستطع أن أرى نفسي أفضل منه لكي أحكم عليه.

قلت أخيرًا: «حسنًا سأدعم قصتك ولن نتحدث في هذا الأمر مُجددًا، ولكن لا تختبر ولائي هكذا مُجددًا في أي وقت في المستقبل، هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي أدعم فيها مثل هذا التصرف».

كم كنت مُخطئًا.

ربَّت هولمز على رُكبتي وقال: «يا لك من رجل صالح، كنت أعرف أن بإمكاني أن أعتمد عليك، وإلا لم أكن لأُخبرك الحقيقة». ابتسم لوهلة ثم تجرَّع ما بكأسه دُفعة واحدة «الآن يا واطسون من فضلك جهِّز برقية لإرسالها إلى اليارد».

في غضون ساعة جاء كل من ليستريد وجريجسون إلى شارع بيكر بصُحبة عربة نقل جثث. قدَّمنا لهما أنا هولمز نسخة مُعدَّلة من أحداث الليلة، التي ابتلعها تمامًا رجلا الشرطة الساذجان.

قال جريجسون: «سوف نُرسل بعض الرجال إلى فندق هاليداي على الفور، نهاية حزينة ولكنها تليق بلغز مثير للحيرة».

وافقه ليستريد قائلًا: «بالطبع، لقد أحسنت صنعًا من جانبك يا سيد هولمز، ولكنك كنت محظوظًا لأنك لم تُصب بشكل أسوأ على يد هذا الرجل هوب،

كان يجب عليك حقًّا أن تترك هذه الأمور البطولية لنا نحن المحترفين، إن كنت أخبرتنا عن هذا الأمر من البداية فكان من الممكن أن نقبض عليه قبل أن يضع قدمه في هذه الغُرفة».

«وأُفسد تسلية الليلة؟».

ابتسم رجلا الشرطة وهزَّا رأسيهما في حيرة لتعريف صديقي للتسلية. تمنيا لنا ليلة طيبة ثم غادرا.

لم نقل أنا وهولمز شيئًا لبعض الوقت، ثم نهض هولمز وقال وهو يتمطَّى: «أنا سأخلد إلى النوم». ولكنه عندما وصل إلى الباب التفت ليواجهني وقال بهدوء: «شكرًا لك». قبل أن يُغادر الغُرفة.

كان دوري الآن لكي أصب كأسًا من البراندي، أمسكت الكأس بكلتا يدي وأنا أنحني للأمام في كُرسيّ وأُحدق إلى جمرات النار الخامدة. كنت أعرف أنني لا أستطيع أن أكشف حقيقة ما حدث هذه الليلة في تقريري إلى موريارتي. إن فعلت هذا فسأقدم صديقي الجديد كأُضحية إلى البروفيسور. سيحكم الخناق حوله لبقية حياته. لا، يجب أن يتلقَّى موريارتي النسخة الرسمية لمصرع هوب وستانجرسون، تلك التي قدمناها إلى الشرطة. تنهَّدت في تعب وحزن لهذه الطبقات الدقيقة من الازدواجية التي تُغلف حياتي.

كنت أُدرك أيضًا من المنظور الأدبي السردي أن قضيتي الأولى مع هولمز بسيطة وقصيرة للغاية، إذا أردت أن أُحول قضية طريق بريكستون إلى قصة أدبية فسيكون عليَّ أن أحوك المزيد من الخيوط في اللغز، أن أصقل الحبكة بينما أُحافظ على التفاصيل الجوهرية للقصة الحقيقية.

شيء واحد كنت واثقًا منه وهو طبيعة صداقتي المزدهرة مع شيرلوك هولمز، هذا المخلوق الغريب الذي تربطني به قيود خفية. لقد تغيَّرت طبيعة علاقتنا ومسارها هذه الليلة، لقد تشاركنا سرًّا مُظلمًا، حتمًا سيقرِّبنا أكثر من أحدنا الآخر. كلما شاهدت هولمز أكثر واستمعت إليه ازداد حبي له وإعجابي به. عرفت في هذه اللحظة أنني سأحميه، سأحميه من موريارتي، والأهم سأحميه من نفسه.

رُغم أن دور شيرلوك هولمز في جريمة قتل طريق بريكستون لم يُذكر إلا بشكلٍ عابر في تقارير الصحف عن القضية، مع نسب فضل حل الغموض بشكلٍ كبير إلى ليستريد وجريجسون، إلا أن عبقرية هولمز كمُحقق قد بدأت تنتشر ويذيع صيتها في أنحاء المدينة الكبيرة، وقد عزَّز من سمعته كمُحقق بعض القضايا الخاصة الأُخرى الناجحة، وفي غضون ستة أشهر كان الزبائن يتدفقون بشكلٍ مستمر على ٢٢١ب شارع بيكر.

صار هولمز يعتمد على واطسون أن يصحبه في مُعظم التحقيقات، كان يستمتع بالوجود المريح لرجل ذكي، الذي لم يُمنح فقط هبة الصمت في الوقت المناسب ولكنه كان أيضًا مستمعًا ممتازًا عندما يرغب في مناقشة أفكاره ونظرياته. من ناحيته كان واطسون -صار جون ووكر يرى نفسه هكذا، فقد اختفت شخصيته القديمة في ضباب من الزمن وفقدان الذاكرة الذي فرضه على نفسه- مسرورًا بهذا الاتفاق. كانت الخبرة التي تشاركها مع هولمز أثناء التحقيق في قضية هوب قد ساهمت بشكلٍ غامض أو روحاني في تحويل جون ووكر إلى جون واطسون. كانت التقارير الشهرية الإلزامية التي يُقدمها إلى موريارتي هي فقط ما يذكره بدوره المزدوج، عدا ذلك كان يستمتع بصُحبة هولمز وبإثارة المُطاردات وألغاز الجرائم الغامضة، وهذه اللحظات من الخطر التي كانت جزءًا لا يتجزأ من مهنة المُحقق الاستشاري. واصل الاحتفاظ بتسجيل شخصي لكل التحقيقات، وهو يعدلها بدرجات مُختلفة لكي يجعلها قصص غموض مُسلية لجمهور القراء. كان عازمًا على أن يُقدمها لناشر في يوم من الأيام، ولكنه في الوقت الحالي كان يُدرك أن الوقت ليس مُناسبًا.

وهنالك بالطبع بروفيسور موريارتي. رُغم أن موريارتي بالفعل قد اقترح أن يكتب واطسون عن هولمز، لكنه يعرف أن عليه الحصول على إذنه قبل أن يفعل ذلك. بمرور الوقت صارت التقارير الشهرية للبروفيسور أصغر حجمًا وأقل تفاصيل، فقد استنتج واطسون أن موريارتي بدأ يفقد اهتمامه بالمسألة. صار هولمز مشغولًا تمامًا بالقضايا الخاصة، ولم يتطرق أبدًا إلى منطقة نفوذ موريارتي، وهكذا لم يشكل أي خطر على مكائد منظمته. لم يعد هولمز مصدر إزعاج بالنسبة له، ولكنه كان يعرف أنه سيمثل خطرًا في يوم من الأيام.

وهكذا بدا أن حياة واطسون قد استقرَّت وازدهرت علاقتهما حتى جاءت امرأة ذات يوم إلى مسكنهما وحرَّكت الماء الراكد.

## من مذكرات جون هـ. واطسون

أنا أحب ماري مورستان ولا أعرف ماذا أفعل حيال هذا الأمر. لا أعرف إن كانت تكن لي أدنى مشاعر ولكن حتى إن كانت كذلك فمن المستحيل أن تكون علاقة متكافئة، لأنها على وشك أن ترث ثروة.

كانت ماري إحدى زبائن شيرلوك هولمز، لقد جاءت ترغب في مُساعدته لحل لغز متعلق بأبيها المفقود النقيب مورستان، الذي اختفى منذ قُرابة عشر سنوات. طيلة السنوات الست الماضية، في نفس الموعد السنوي، كانت تتلقى عبر البريد هدية من شخص مجهول؛ عبارة عن لؤلؤة واحدة، في المرة الأخيرة كانت بصُحبة اللؤلؤة رسالة تدعوها لمُقابلة مُعجبها المجهول، الذي تعهَّد بأن يُحسن ضيافتها، ولكنها رفضت الدعوة. كانت قلقة بشأن التصرف الذي يجب أن تتخذه، وهكذا لجأت إلى مشورة رفيقي.

بينما ماري تُخبرنا بقصتها في غُرفة جلوسنا ذات صباح فاتر في سبتمبر بالكاد سمعت أي كلمة مما قالته، كنت مفتونًا بجمالها. أقول جمال لأنها بالنسبة لي تمتلك هذا التناسق الرائع للملامح والأسلوب اللطيف والمُباشر في الوقت ذاته، الذي يُمثل بالنسبة لي فتاة أحلامي.

وإن قبلت الأمر فإنها تذكرني بحبي الأول؛ لاورين، التي ماتت بسبب الإنفلونزا وهي في الثامنة عشر من عُمرها. كانت ماري تمتلك نفس العينين الزرقاوين والتعبير الهادئ الروحاني الذي تستكين فيه ملامحه. عندما قدَّمني هولمز لها أحسست بقشعريرة وأنا أصافح يدها، كانت شقراء ورقيقة وطريقتها في الحديث هادئة ولكنها مُباشرة، يُمكنني أن أقول إنني لم أنظر إلى وجه يشي بمثل هذا الوضوح بطبيعة مُرهفة وحساسة. أعترف أن من ينظر إليها بموضوعية قد يصف ملامحها بأنها عادية، ولكن بالنسبة لي -لأني رأيت ما وراء الحجاب- فقد كانت جميلة.

أثناء فترة التحقيق، أحسست بأننا نزداد قُربًا من أحدنا الآخر، كانت تلجأ لي بدلًا من هولمز لكي أُطمئنها. ذات مرة أوصلتها إلى بيتها، كانت تسكن مع صديقتها السيدة فورستر، التي كانت زبونة لدى هولمز من قبل. كنا في ساعة مُبكرة من الصباح، وقد جلست أنا وماري بالقرب من بعضنا بعضًا في عربة الأُجرة، أمسكت يدُها بيدي وهمست أنا ببعض الكلمات لطمأنتها بخصوص القضية. لم تكن تعرف بشأن الصراع العنيف الذي يعتمل في صدري، أو مُحاولاتي للسيطرة على نفسي التي تمنعني من أخذها بين ذراعيّ وتقبيلها. رُغم ذلك كانت هناك فكرتان جوهريتان تمنعان شفتيّ من

التلفظ بكلمات الحب، وتمنعان ذراعيّ من احتضانها. لقد كانت ضعيفة وعاجزة، مُضطربة العقل والروح، سيكون من القسوة أن أستغل هذا لأبوح بحُبِّي في هذا الوقت. الأسوأ من هذا أنها كانت غنية، إذا نجحت تحقيقات هولمز -ولديَّ كل سبب يجعلني أصدق أنها ستنجح- فإنها سترث ثروة، ليس من المعقول أن يطمح رجل مثلي في أن يكون كُفئًا لها، وبالطبع أي محاولة مني للتقرب ستبدو كمحاولات مُبتذلة لرجل يسعى وراء الثروة.

بالطبع كان هناك سبب آخر يمنعني من التصريح بمشاعري لماري؛ بروفيسور موريارتي. لقد كنت عبدًا له، دُميته. ماذا سيقول إن أخبرته أنني أحب وأرغب في الزواج؟ مثل هذا الفعل سيأخذني حتمًا بعيدًا عن شارع بيكر وعن شيرلوك هولمز. مثل هذا الفعل سيُعد خيانة.

أحسست بقبضة باردة تعتصر قلبي عندما وصلنا إلى وجهتنا، كان الخدم قد خلدوا إلى النوم منذ ساعات عديدة، ولكن السيدة فورستر كانت مستيقظة وتنتظر عودة ماري. فتحت الباب بنفسها، كانت امرأة متوسطة العُمر ذات طبيعة عطوف، وقد أحسست ببهجة وأنا أرى كيف تضع ذراعها حول خاصرة ماري برقة، وكيف رحَّبت بها بنبرة أمومية.

قدَّمتني ماري للسيدة فورستر، التي ناشدتني بحماس أن أدلف إلى الداخل وأحكي لها مُغامراتنا. كنت أعرف أن هولمز ينتظرني لبدء المرحلة التالية من تحقيقنا، لذا اضطررت على مضض أن أرفض العرض.

بينما عربة الأُجرة التي تقلني تتحرك بعيدًا اختلست النظر ورائي، وبينما أنا أكتب هذا يُمكنني أن أرى بعين عقلي السيدتين الرقيقتين المشتبثتين ببعضهما بعضًا الواقفتين أمام باب نصف مفتوح ونور البهو يضيء من خلال الزجاج المُلطَّخ وساعة الحائط وقضبان الدرج اللامعة. كان من المُريح أن أرى ولو للحظة عابرة لمحة من بيت إنجليزي هادئ في خضم العمل الكئيب الذي قد شغل كل وقتنا. كان يبدو كسراب بالنسبة لي، لمحة من حياة عائلية هانئة، والتي اعتقدت في هذا الوقت أنه سيتملص مني إلى الأبد.

رُغم ذلك رُبما أنا أكثر من أي شخص آخر يجب ألا أكون مُتفاجئًا من الطريقة المُتقلبة وغير المتوقعة التي يلعب بها القدر بحياتنا. إنه كما قال الشاعر؛ إن مصيرنا «مخفي عن أعين البشر/ في أوراق ظليلة من القدر». إن قدري أن أكون مع ماري. أنا أرى هذا الآن، ولكن حينها والعربة تشق طريقها عبر الشوارع المُظلمة وصورة ماري والسيدة فورستر تختفي عن ناظريّ أحسست بألم في قلبي.

كان شيرلوك هولمز يجهل الضغوطات العاطفية التي أمر بها، وراح يواصل التحقيقات بحماس لا ينقطع. كان يبحث عن كنز أجرا العظيم، الذي سرقه منذ عشر سنوات تقريبًا والد ماري وشريكاه في المؤامرة العقيد جون شولتو وجوناثان سمول. كان سمول الناجي الوحيد من اللصوص قد وصل مؤخرًا إلى لندن بعد أن هرب من السجن على جُزر أندمان بحثًا عما يعتبره إرثه الشرعي. يجب عليَّ أن أعترف أن الكثير من تفاصيل هذه القضية قد غاب عن ذهني لأن تفكيري كان مُنصبًّا مُعظم الوقت على ماري. النسخة المنشورة من هذا التحقيق، رواية قصيرة تُدعى علامة الأربعة، تحتوي على الأرجح على فقرات غير دقيقة ولحظات مفتعلة أكثر من أي شيء آخر يحمل اسمي. أعرف كم ابتهج قلبي عندما اكتشفت أن الكنز قد ضاع وأن ماري لن تصير وريثة في نهاية المطاف. ولكن في سجيتي لم أُفكر في أمرين هامين: أنه بحسب القانون لم يكن من حق ماري الاحتفاظ بالكنز على أي حال، وأنها ذات شخصية نبيلة فلم تكن لتفكر في المُطالبة بأي جزء منه لنفسها.

وصلت إلى بيت السيدة فورستر مع صندوق الكنز لأجد ماري تنتظرني في غُرفة الجلوس، بمُساعدة محراك المدفأة فتحت الصندوق بقوة لأكتشف أنه فارغ.

صحت بصوتٍ عالٍ: «حمدًا لله». فقد ابتهج قلبي عندما أدركت أن الكنز لم يعد عائقًا بيننا، كيف يُمكن أن يكون كذلك؟ لا يوجد كنز.

نظرت إليَّ ماري بابتسامة سريعة متسائلة.

سألتني: «لمَ قلت ذلك؟». ولكن من نبرتها وتعبيرات وجهها أدركت أنها تعرف الإجابة بالفعل.

أمسكت بيدها فلم تسحبها بعيدًا ثم قلت: «لأنك الآن في متناول يدي، لأني أُحبك يا ماري كما يُمكن لرجل أن يُحب امرأة بصدق، والكنز -الثروة المحتملة التي كان سيُضفيها عليكِ- قد منع شفتيّ من الحديث، لم أستطع حتى أن أُلمح لكِ بمشاعري الحقيقية بينما هناك احتمال أن تصيري امرأة ثرية، الآن وقد زال الخطر ولم تعد هناك عقبة تمنعني فيُمكنني أن أعترف لكِ أنني أُحبك».

اقتربت مني مُبتسمة وقالت: «ولهذا قلت حمدًا لله؟».

أومأت برأسي، فقبَّت وجنتاي وقالت: «إذن أنا سأقول أيضًا حمدًا لله».

لوهلة حدق كل واحد منا إلى عينَي الآخر، ثم جذبتها ناحيتي وقبَّلتها.

الابتهاج الذي أحسست به وأنا أترك ماري مورستان عند عتبة باب بيت السيدة فورستر سُرعان ما اختفى عندما تذكَّرت أنه لا يزال عليَّ أن أواجه عقبة أكبر وأكثر صعوبة في هيئة بروفيسور موريارتي المُظلمة.

كيف يُمكنني أن أتزوج ماري وأبقى مُخلصًا لصفقتي اللعينة معه؟ ولكني لن أتخلَّى عن حُلمي الرومانسي من دون قتال. في أقرب فُرصة كتبت إلى البروفيسور أطلب مُقابلته، ثم انتظرت. مرة أُخرى أمسك هذا المخلوق من العالم السفلي بحياتي وسعادتي في يديه.

## -٢٠-

## من مذكرات جون ووكر

بعد ليلتين من حل قضية كنز أجرا تناولت العشاء مع ماري وتحدَّثنا طويلًا عن مشاعرنا ومستقبلنا المُحتمل معًا، بالطبع لم أقل لها شيئًا عن دوري في حياة شيرلوك هولمز ولم أجرؤ حتى على التلفظ باسم البروفيسور موريارتي، كان يؤلمني أن نبدأ علاقتنا المُقربة وأنا ما زلت أُخفي هذه الأجزاء الهامة من حياتي، ولكني كنت أعرف أني لا أستطيع أن أتشارك هذه الحقائق معها. رُغم ذلك فإن السعادة الغامرة التي أحسست بها لوجودي مع هذه المرأة الرائعة حجبت مُعظم مخاوفي. بعد أن أوصلتها إلى البيت توجَّهت إلى حانة أسلحة الجزار في شارع ماريليبون هاي لأتناول كأسًا من البراندي. خمَّنت أن هولمز سيكون في انتظاري في شارع بيكر وأردت أن أتناول كأسًا هادئًا وحدي وأستمتع بالسعادة التي أحسستها لكوني أتبادل الحب مع هذه الفتاة الجميلة.

وأنا أجلس في مقصورة خاصة أُدخن سيجارًا وأُراقب في رضا هادئ حلقات الدخان وهي تُحلق ناحية السقف أطلَّ برأسه رجل خشن المظهر ذو وجنتين متوردتين وعينين خرزيتين سوداوين وابتسم لي قائلًا: «أرجو المعذرة ولكن هل هذا هو الدكتور جون هـ. واطسون الذي أتشرف بالحديث إليه؟».

قلت ببعض الدهشة: «أجل أنا هو».

أكمل الرجل وهو يقترب من طاولتي: «هذا جيد لأن معي رسالة من أجلك». ثم أخرج مظروفًا أصفر طويلًا مكتوبًا اسمي عليه، أعطاه لي قائلًا: «لقد أخبروني أن أُعطيك هذا يا دكتور واطسون»، ثم ابتسم مرة أُخرى كاشفًا عن صف من أسنان صفراء غير منتظمة وقال: «على الرحب والسعة»، قبل أن يرفع قبعة وهمية كتحية وداع، ثم اختفى من أمامي.

أحسست بقشعريرة باردة تجتاح جسدي، لقد تعرَّفت على نوع المظروف وخط الكتابة. ما أثار أعصابي لم يكن أن الرسالة من موريارتي، ولكن الطريقة التي أرسلها بها إليَّ. منذ خمس عشرة دقيقة لم يخطر على بالي أن أتناول الشراب في هذه الحانة تحديدًا، ورُغم ذلك عثر عليَّ أحد أتباع البروفيسور هنا، إلى أي مدى يُراقبني عن قُرب؟ هل هناك أي خصوصية في حياتي؟

بأصابع متوترة مزَّقت المظروف وقرأت الرسالة بداخله:

عزيزي واطسون، أعلم أن لديك حلمًا رومانسيًّا، ولكن هذا يبدو لي كمحاولة لفسخ تعاقدك، هذا لن يحدث أبدًا، ومع ذلك أنا لست رجلًا غير عقلاني، سأفكر في الأمر لبعض الوقت وأجري بعض التحريات الخاصة، سأتواصل معك في الوقت المُناسب. م.

إذن هو يعرف، دون أن أخبره، يعرف بحبي لماري موريستان، لا يُمكنني أن أفعل أي شيء دون أن يصل به تقرير إلى موريارتي. بشكلٍ غريزي متوتر التفت ورائي متوقعًا أن أرى رجلًا هناك. تجرَّعت كأس البراندي على الفور وغادرت الحانة وأنا أشعر أنني أبعد ما يكون عن الرجل الرومانسي الهادئ الذي كنته منذ وقتٍ قليل.

وأنا أسير عائدًا إلى مسكني في شارع بيكر أدركت فجأة توابع رسالة موريارتي، إن «تحريات خاصة» لا يُمكن أن تعني إلا شيئًا واحدًا، لعنت نفسي لأني فكَّرت في احتمالية أن أحظى بمستقبل سعيد مع ماري، لقد جذبت بغبائي هذه الفتاة البريئة إلى شباك عبودية موريارتي. ورُغم استيائي الشديد لما آلت إليه الأمور كنت أعرف أنه لا يوجد شيء يُمكنني أن أفعله الآن سوى الانتظار والأمل والدعاء.

عندما عدت كان هولمز لا يزال مُستيقظًا، كان يجلس بجانب المدفأة مُنكبًا على كتاب سميك قد وصل بعد الظهيرة في البريد. كان كتابًا فرنسيًّا يتعلق بأعمال ألفونس برتيون، عالم جريمة فرنسي قد طوَّر نظامًا للتعرف على المجرمين يتكون من مجموعة من القياسات الأنثروبومترية للجسد وخصيصًا العظام. وأنا أجلس قُبالته أغلق الكتاب بصوتٍ مرتفع.

«إنه مثير للاهتمام، ومسيو برتيون كان دقيقًا للغاية في تصنيفه لأنواع المجرمين، ولكن بشكلٍ عام أخشى أنه كان تقييديًّا للغاية ولم يُعطِ مجالًا للانحرافات والتشوهات. هذه نقطة ضعف ستقوض نظامه في النهاية».
صمت فجأة وحدَّق إليّ، كان من الواضح أنني لم أستطع إخفاء
مشاعري المُضطربة بتعبيرات وجهي الجامدة.

وقال وهو يرفع الكتاب: «هل تفهم ما أشير إليه؟».

«أجل، أجل بالطبع».

ابتسم كما قد يبتسم أحدهم لطفل مشاغب قد اعتذر للتو عن إساءة تصرفه. «لقد خمَّنت هذا ولكني كنت آمل عكسه».

عقدت حاجبيّ وقلت: «تأمل عكس ماذا؟».

«الرومانسية، الحب، مشاعر القلب، أيًّا كان الوصف المُبتذل الذي ترغب في استخدامه. لقد سقطت تحت تعويذة الآنسة ماري موريستان وأنت على وشك أن تتقمص شخصية الأحمق العاطفي».

اندهشت لوهلة بسبب فظاظة هولمز.

أكمل قائلًا: «يُمكنني أن أرى هذا في عينيك، في تصرفاتك وفي صوتك. المشاعر الحلوة تُذهب عقلك».

صرخت وأنا أرتجف في غضب: «كيف تجرؤ على التحدث إليَّ بهذه الطريقة؟».

أجابني بابتسامة ساخرة مُتعجرفة.

انفجر الغضب بداخلي فقفزت من موضعي وأمسكت هولمز من ياقة روبه وهززته.

«أيًّا كان ما أشعر به أو لا أشعر تجاه الآنسة موريستان فهو ليس موضوعًا لكي تسخر أنت منه، أو أن تحط من مشاعري وعواطفي».

كان هولمز مصدومًا حقًّا بسبب هجومي العنيف، لقد شحب وجهه وحاول أن يخلص نفسه مني.

«أنا أعتذر بصدق يا عزيزي واطسون، لم يكن لديَّ أدنى فكرة أنك ستكون حساسًّا بشأن الموضوع، أرجوك اغفر لي تعليقاتي المازحة».

قلت في غضب وأنا أُرخي قبضتي عنه: «مازحة؟ لقد كانت تعليقاتك جافية ومُتعجرفة وجارحة». أدركت أن غضبي كان جزءًا منه فقط بسبب تعليقات هولمز. الموقف الذي لا يحتمل الذي وجدت نفسي فيه هو ما أدى إلى تعاظم الغضب بداخلي.

قال هولمز بهدوء: «قد أكون طائشًا أو مُتعجرفًا أحيانًا ولكني لن أقول أبدًا أي شيء بقصد جرحك يا عزيزي واطسون، إن مكانتك عندي أكبر من هذا

بكثير».

أجبته وأنا أُلقي بجسدي على الكُرسي: «أعتذر أيضًا، لقد تصرَّفت كمتنمر في فناء مدرسة».

«دعنا نُصلح الموقف بكأس من البراندي. فلتسمح لي».

صبَّ لكل واحد منا كأسًا من البراندي والصودا، وبينما نحن نقرع كأسينا كان كل واحد منا يبتسم ابتسامة مُتحفظة.

«لقد نحَّيت جانبًا كل هذه المشاعر كالحب من أجل أن أُركز على وظيفتي كمُحقق، ونسيت كيف يُمكن لهذا الشعور أن يكون قويًّا وغامرًا، أعتقد أنني كنت مُحقًّا، وأنك تُحب الآنسة ماري موريستان».

«أجل، أنا كذلك».

«لقد خشيت هذا، والآن يا واطسون قبل أن تُمسكني من حلقي مُجددًا، اسمعني جيدًا، النتيجة الحتمية للحب هي الزواج، مما سيعني بدوره أني سأفقد الساكن الوحيد الذي استمتعت بصُحبته وشريكي في التحقيقات والشخص الذي يدوِّن كل قضاياي. لم أحمل على عاتقي أبدًا فكرة تكوين صداقات. بالطبع لقد تشكَّلت علاقتنا بيُسر حتى إنني لا أستطيع القول إنني قد بذلت أي مجهود معك أيضًا، لقد حدث الأمر بشكلٍ طبيعي. والآن أنت ترغب في أن تحمل أغراضك وتُغادرني من أجل حياة عائلية هانئة في الضواحي. فهل من العجب أن أقول إني خشيت هذا؟».

«عندما تقول الأمر هكذا...».

«لأُصدقك الحديث يا واطسون فأنا لا أوافق حقًّا على الحب، إنه شيء عاطفي، وأي شيء عاطفي يُناقض المنطق العقلاني المحض الذي أضعه فوق كل شيء. أنا عن نفسي لن أتزوج أبدًا لكيلا يتأثر حُكمي على الأمور».

«أنا أثق أن حُكمي على الأمور لن يتغير».

ضحك هولمز وقال: «أخشى أنه سيتغير».

قلت كاذبًا: «ولكنك تستبق التفكير في المشكلات، فأنا والآنسة موريستان بدأنا فقط نخرج معًا، ولا تعرف حتى الآن عن عُمق مشاعري ناحيتها، وليس

لدي أدنى فكرة عن رد فعلها عندما أستجمع شجاعتي وأخبرها».

«إذن سوف تظل معي لبضعة أشهر أُخرى».

قلت وأنا أُفكر في موريارتي: «لبضعة أشهر على الأقل».

«آه حسنًا، هذا مُريح بعض الشيء».

نظرت إلى صديقي وظلال ضوء المدخنة تتراقص على ملامحه النحيلة، بدا قانعًا وفي سلام مع نفسه، كم أحسده.

وجدت نفسي أسأله: «ألم تحب من قبل؟».

«ما هو تعريف الحب يا تُرى؟ قلب متسارع النبضات، والإحساس بالتضحية بالذات من أجل شخص آخر، إن كان الأمر هكذا فلا أعتقد أنني أحببت من قبل. لقد أحببت والديّ وأحببت الكلب الصغير الذي كان معي عندما كنت طفلًا، ولكن ليس هذا هو نوع الحب الذي تُشير إليه، أليس كذلك؟ الحب الرومانسي، القرب، العاطفة، الجنس».

صُدمت لهذا التعريف الفج، لاحظ شيرلوك هولمز تعبيرات وجهي، فلمعت عيناه وقال: «ماذا؟ ألا تظن أن الجنس جزء من الحب؟».

«ليس الأمر هكذا.. ولكنك تستخدم الكلمة كأنها سلعة تُضاف إلى القائمة».

«حسنًا، بالنسبة لشخص مثلي فالأمر كذلك، لقد جرَّبت الجنس ذات مرة، كتجربة علمية. احتجت أن أعرف ما هو الشعور، لقد تغلَّب العالم بداخلي على الشخص المتحفظ». هزَّ كتفيه ثم أخرج غليونه من جيب روبه «لم يكن الأمر مُناسبًا لي، إنه يُشجعك على كشف الكثير من مشاعرك الداخلية أكثر مما هو ملائم، إنه يفضح جزءًا كبيرًا من ذاتك. أنا شخص أميل للخصوصية ولا أشعر بالراحة لذلك».

«ولكن التواصل الجنسي يجب أن يحدث من خلال علاقة عاطفية».

«أنا آسف لقول ذلك يا صديقي واطسون؛ ولكن أرى أن هذا هراء. اسأل العاهرات في الطرف الشرقي من لندن إن كن يتفقن معك في الرأي، إنها وظيفة جسدية منفصلة تمامًا عن مشاعر القلب، يُمكن للرجل أو المرأة

ممارسة هذا النشاط البشري والاستمتاع به إن كان يعجبهما دون أي حاجة للحب».

«هذا الرأي فظ ومهين».

«ربما، ولكنه حقيقي. ما إن جربت الفظائع الحقيقية للتواصل الجنسي حتى عقدت العزم على تسخير كل طاقاتي -ما عدا الجنسية منها- في عملي. أشعر بالرضا التام لإدراك أن عقلي قادر على التحكم في جسدي وردع أي شهوات غير مرغوبة».

وضعت كأسي على الطاولة بجانب الكرسي وقد هالني ما قاله رفيقي: «إنك تزدري مشاعر القلب البشري السامية في هذا الرفض العملي المزعوم للحب البشري».

«كلمات أديب ورومانسي. هناك الآلاف من المساجين في مدينتنا هذه ليست لديهم رفاهية الانغماس في هذه «المشاعر السامية»، كما تُسميها، إنهم يتصرفون وفقًا لغريزة التكاثر والمتعة الحيوانية. الحب هو أمر تجريدي وأثيري. عقار مُسكر بلا شك ولكني أفضل عنه الكوكايين في أي وقت».

اعتدلت واقفًا عاجزًا عن النطق، وأكثر غضبًا مما يُمكنني التعبير عنه، توجَّهت ناحية الباب ولكن هولمز أوقفني قائلًا وهو يعتدل واقفًا من كُرسيه: «مهلًا يا واطسون، لا تأخذ ما قلته بشكلٍ شخصي، إن كلماتي ليست ردًّا على نبل مشاعرك أو طبيعتك العاطفية المخلصة. إنها أفكار رجل غريب ومنطوٍ مستغرق للغاية في نظراته إلى العالم، حتى أنه كثيرًا ما ينسى الأذى الذي يُمكن أن يُسببه بالتعبير عنه. أنت الشخص الطبيعي والعاطفي والمعتدل في هذه العلاقة، أنا الطرف الآخر البارد والحَذِر... والمُحطَّم. اغفر لي إن كنت قد أغضبتك».

حدقت إلى الوجه الشاحب النحيل بازدراء، ثم قلت: «طابت ليلتك». وأغلقت الباب بعُنف.

نمت قليلًا هذه الليلة، كان عقلي يموج بالأفكار. في البداية كنت غاضبًا من هولمز بسبب ازدرائه لأهمية الحب وقيمته، وكنت أيضًا غاضبًا من نفسي لأني انفعلت بسبب تعليقاته القاسية. كان يجب أن أعرف أن هذه هي طبيعة هذا الرجل وأفكاره ومُعتقداته المُتجذرة، وأن الأمر ليس له علاقة بظروفي الخاصة، ولعنت نفسي لأني لم أدرك هذا في حينه. بالطبع كُنت أُعاني من القلق بشأن قبضة موريارتي عليَّ. بعد أن تخطَّيت عقبة كنز أجرا والتهديد

الذي شكّله بإبعاد ماري عني أدركت أن هذه المشكلة كانت تافهة مُقارنة بالخطر الذي يُشكله هو على علاقتنا، بفرقعة من أصابعه يُمكنه إن أراد أن يُنهي حياة ماري، وكل هذا كان خطئي.

رُحت أتقلب طيلة الليل وعقلي يبحث عن حل لمُعضلاتي. كان ضوء الفجر الرمادي يتسلل إلى غُرفتي عندما سمح الإرهاق لنومٍ مُضطرب أن يغشاني، كانت مشاكلي لا تزال قائمة وتبدو عصية على الحل.

في نفس الليلة التي تناقش فيها جون واطسون مع شيرلوك هولمز بشأن علاقته العاطفية كان بروفيسور موريارتي يتناول العشاء بصُحبة ضيف في عرينه. كان الأمر يتعلَّق بالعمل بخصوص وثائق مزورة وسبائك بنك إنجلترا. لقد تم التعامل مع الأمر بنجاح. بعد تناول الوجبة توجَّه الرجلان إلى المكتبة للتدخين وشرب النبيذ والاسترخاء.

«كيف تجري الأمور مع شيرلوك؟». سأله الضيف ببساطة وهو يستعد لتناول جُرعة من النشوق موضوعة بدقة على ظهر يده.

«لقد صرت أشعر بالضجر من المسألة، لقد صار أخوك مُحارب جريمة لا مثيل له كما توقعنا، وبدفعة صغيرة من رجلنا واطسون صار يتبع مسارات من الجريمة تقع في اتجاه مُختلف عن نطاق اهتماماتي. على نحو متناقض فإن هذا جزء من مُعضلتي، لقد نجحت الخطة ولهذا لم يعد هناك أي إثارة في القضية».

نفض مايكروفت هولمز حبيبات شاردة من النشوق من على صدريته وأطل من فوق عويناته، ثم قال: «آه حسنًا، قد يكون الأسد نائمًا فقط، ربما يأتي وقت يشكل فيه شيرلوك خطرًا جادًّا عليك».

«سأُرحب كثيرًا بهذا التحدي، ولكني أشك في حدوث هذا الآن وقد صار هولمز مُحققًا مُتمرِّسًا ناجحًا، فلم تعد الخطوط العريضة لجرائمي تُثير اهتمامه، إنه رجل ذواقة ويُفضل المنمنمات الغريبة عن الروائع البسيطة الخالية من الشوائب التي أصنعها».

«لطالما كان مولعًا بالأشياء الغريبة والنادرة».

قال موريارتي وهو ينحني للأمام ويصب المزيد من النبيذ في كأس مايكروفت الفارغ: «أنت تتفق معي إذن، والآن واطسون يُريد أن يُغادر».

«ولمَ هذا بحق السماء؟».

انثنت شفتا موريارتي في ابتسامة وقال: «لقد وقع في الحب».

«آه، حقًّا؟ إن واطسون هذا رجل مُحب للحياة، أليس كذلك؟ لا شكَّ أنه يُحب تلك الشابة المتورطة في تحقيق كنز أجرا».

«هي بعينها، يُريد أن يتزوجها وعلى الأرجح سيأخذها إلى ضاحية هادئة بعيدًا عن شارع بيكر».

«وهل ستسمح له بالرحيل؟».

«لا أعرف، ربما الوقت قد حان لندع هذا الرجل يُفلت من لجامه، إنه لم يتصرف بشكلٍ خاطئ ولو لمرة واحدة منذ أن انتقل للعيش مع أخيك، وربما لم يعد له حاجة أكثر من هذا. أود أن أعرف رأيك في المسألة».

ابتسم مايكروفت واسترخى بجسده بأريحية في الكُرسي الوثير وقد مط قدميه أمامه حتى كادتا أن تلمسا المدفأة. وقال: «حسنًا هذا سيجعلك مكشوفًا قليلًا مُجددًا، رُغم أن لديك السيدة هودسون قيد تصرفك. هذا قد يُضفي بعض الإثارة على اللعبة».

اتفَّق معه البروفيسور قائلًا: «ربما».

«أنا لم ألتق بواطسون هذا من قبل ولكن من تقاريره لك ومما أخبرتني عنه لديَّ انطباع أنه رجل يُمكن الاعتماد عليه، وأنه إن غادر فسيبقى مُخلصًا لك، أو بالأحرى لعقده غير المكتوب معك، خصيصًا إن كان هناك تهديد واقع عليه لضمان ولائه».

«الفتاة...».

ابتسم مايكروفت مُجددًا وقال: «بالطبع، الحب يجعل الرجل طيِّعًا للغاية، علاوة على ذلك فإن واطسون قد تذوَّق ثمار عمل التحقيق المثيرة وليس من الأرجح أن يستطيع البقاء بعيدًا عن الشجرة، أليس كذلك؟ بعد بضعة أشهر من تحمل الحياة العائلية المملة سوف يطرق على باب شارع بيكر متوسلًا لهولمز أن يسمح له باصطحابه في قضية أو أخرى».

«يعجبني هذا السيناريو، لتسهيل هذا الاتفاق فإن هذا سيعني تحريك بعض القطع على لوحة الشطرنج بشكلٍ جذري، ولكنها كانت ساكنة لوقتٍ طويل».

أفرغ موريارتي كأسه في حلقه ثم أكمل: «أنا ممتن لنصيحتك يا مايكروفت، كلمات حكيمة».

«أحب أن أكون على اطلاع إلى حد ما على الأقل، فهذا الرجل أخي في نهاية الأمر».

ضحك موريارتي وقال: «هذا ما يُثير اهتمامي دومًا، رجلان من المنبع ذاته ولكنهما مختلفان تمامًا».

«لسنا بمثل هذا الاختلاف، أعرف أنه من الناحية الجسدية فأنا في حجم شيرلوك مرتين ولكن هذا بسبب حبي للطعام الجيد والنبيذ الجيد والحياة الجيدة». ثم رفع كأسه وأخذ منه رشفة لتوضيح وجهة نظره قبل أن يُكمل: «ولكن عقلينا يحملان قدرًا متشابهًا من الذكاء، الأمر فقط أننا نستخدمهما لأغراض مختلفة. كلانا يستمتع بإثارة المؤامرات والمكائد ذات النطاق الواسع، الأمر فقط أننا نسير في طريقين مختلفين».

نظر موريارتي إلى الرجل الضخم الجالس قُبالته، كان وجهه ضخمًا ولكن كانت هناك حدة في قسماته تشي بعبقريته. كانت عيناه مختفيتين جزئيًّا وراء الإطار الذهبي لعويناته، ولكن عينيه كانتا حادتين كالسكاكين. رُغم تفسيره السلس إلا أن موريارتي لم يفهم مايكروفت هولمز وهذا ما أقلقه، من بين كل الأشخاص الذين يعمل بالقرب منهم في منظمته كان مايكروفت هو الشخص الغامض الوحيد. كان البروفيسور يعرف أنه في عالم الجريمة لا يُمكن للمرء أن يتحمَّل رفاهية العلاقات القريبة -لم يكن هو نفسه له أدنى علاقة قريبة- ولكن شيرلوك هولمز كان أخًا لهذا الرجل، رابطة دم لا فكاك منها. كان مايكروفت يتمتع بذكاء حاد، ولذا سيعرف تمامًا أن أخاه إذا شكَّل أي خطر حقيقي على المنظمة فلن يتردد موريارتي لحظة واحدة في التخلص منه وسحقه مثل الذبابة، ورُغم ذلك لم يُظهر مايكروفت أي قلق أو اهتمام حقيقي لهذا الاحتمال.

«المثل القديم خاطئ، من الناحية الكيميائية فإن الدم أكثر كثافة من الماء، ولكن من الناحية المجازية فإن هذه الفكرة مجرد هراء، أنا لا أكره أخي ولكن ليس لديَّ أي عاطفة خاصة تجاهه أيضًا، إننا رجلان يشقان طريقهما في عالم وحشي، يجب على كل واحد منا أن يواجه مصيره الخاص». تجعَّد وجه مايكروفت في ابتسامة وأكمل: «المعذرة يا بروفيسور يبدو أنني كنت أقرأ أفكارك مُجددًا».

«في ظروف معينة من الممكن أن يكون هذا تعديًا خطيرًا».

«إذن يجب أن أحرص على ألا تطرأ هذه الظروف».

كانت هناك لحظة من الصمت بين الرجلين، كان الهواء فيها مشحونًا بالتوتر، وبعدها تبادلا ابتسامة متفهمة.

قال مايكروفت هولمز بعد بضع لحظات وقد أشعل كل واحد منهما سيجارًا: «إن مسألة واطسون هذا تُثير اهتمامي، لقد ظللت بعيدًا عن تعاملاتك مع شيرلوك حتى هذه اللحظة، ولكن أعتقد أن الوقت قد حان لتقديم نفسي إلى صديقه واطسون، أنا واثق أنك سترحب بوجهة نظري فيه وفي مسألة زواجه».

قال موريارتي: «حسنًا، أفترض أن هذا لن يضير، أنا أعرف أن بإمكاني أن أعتمد على حُسن تقديرك للأمور».

«بالطبع، والآن تصادف أن لديَّ مسألة صغيرة يُمكنني أن أضعها في طريق شيرلوك؛ هناك رجل يُدعى ميلاس، مُترجم يوناني يسكن في الطابق الذي يعلوني قد تورط في مؤامرة ما وأتى لي من أجل المُساعدة، أعتقد أنني أرى المسألة بوضوح ولكن لعب دور المحقق لا يستهويني، يُمكنني أن أُلقي بهذه المسألة الصغيرة في طريق شيرلوك، وبهذا أخلق فرصة لمُقابلة واطسون».

ضحك موريارتي وقال: «أوه يا عزيزي مايكروفت، لقد فكَّرتَ في الأمر برمته قبل أن تصل هذا المساء».

ضحك مايكروفت بدوره وقال: «أحسنت يا بروفيسور، الآن أنت تقرأ أفكاري».

## من مذكرات جون هـ. واطسون

بعد ليلة من عدم النوم تقريبًا خرجت لتناول الإفطار في الصباح التالي بعينين غائمتين بعض الشيء، لم يكن هناك أي إشارة في ملامح شيرلوك هولمز الودية على أننا قد تبادلنا كلمات غاضبة في الليلة السابقة. كانت لديه قدرة يُحسد عليها على تجاهل المشاجرات والمزاج السيء، مُستحضرًا نوعًا من فقدان الذاكرة العاطفي يجعله لا يحتاج إلى التفكر في إحباطات الماضي ويسمح له بمواصلة حياته.

«لقد سمعتك تتقلب، لذا أرسلت إلى السيدة هودسون لكي تجهز إفطارك، من المفترض أن يكون هنا خلال وقتٍ قصير».

قلت: «شكرًا لك». ثم جلست قبالة هولمز على طاولة الإفطار التي كان معظمها مُغطًّى بصفحات من جرائد عديدة، من بين هذه الفوضى أخرج رسالة ولوح بها قائلًا: «لدينا قضية جديدة ما لم أكن مُخطئًا».

«حقًّا؟».

«إنها رسالة من أخي يطلب مني…».

صحت وأنا أهز رأسي المُتعب: «أخوك؟! هل قلت أخاك؟!».

«بالفعل».

«لم تُخبرني من قبل أن لديك أخًا».

«لم تكن هناك مُناسبة، اسمه مايكروفت، وهو يكبرني بسبع سنوات، نادرًا ما نلتقي إلا عندما يجمعنا العمل معًا، لقد ساعدني بالمال عندما أتيت إلى لندن في البداية».

«ولكن ما هو عمله؟».

«آه حسنًا، الأمر غامض بعض الشيء، إن لديه موهبة استثنائية في التعامل مع الأرقام، وهو يراجع بشكلٍ رسمي الحسابات في دوائر حكومية عديدة، ولكني أعتقد أن مسؤولياته تتعدى ذلك بشكلٍ ما، وأعتقد حقًّا أن رئيس الوزراء يطلب مشورته عندما تطرأ بعض المواقف».

«لِمَ لم أسمع عنه من قبل؟».

«إن القوى الكامنة وراء الحكومة لا تُعرف أبدًا حقًّا يا واطسون، لا تكن ساذجًا، ولكنه معروف جيدًا في دائرته الخاصة، في جمعية ديوجانس على سبيل المثال».

في هذه اللحظة قاطع نقاشنا صوت طرقات متحفظة على الباب، ثم دلفت مالكة المنزل وهي تحمل إفطاري وإبريقًا طازجًا من القهوة. قالت وهي تضع الطبق أمامي: «إفطارك يا دكتور، واحرص على تناوله كله، أنت تبدو هزيلًا حقًّا هذا الصباح».

قلت بعد أن غادرت السيدة هودسون: «جمعية ديوجانس؟ ما هذا بحق السماء؟».

ضحك هولمز وقال: «إنها أغرب جمعية في لندن، ومايكروفت واحد من أغرب الرجال، عندما لا يكون يعمل في إحدى المؤسسات الحكومية يُمكنك أن تعثر عليه في الجمعية».

«ولكن أي نوع من الجمعيات هي؟».

«هناك العديد من الرجال في لندن، بعضهم بسبب الخجل وبعضهم بسبب كراهية البشر، ليس لديهم أي رغبة في صُحبة البشر الآخرين، ولكنهم لا يكرهون الكراسي المُريحة والمجلات الدورية، من أجل راحة هؤلاء الأشخاص تأسست جمعية ديوجانس، والآن هي تضم أكثر الرجال الانطوائيين والمُنعزلين في المدينة، ليس مسموحًا لأي عضو أن يُبدي أدنى ملاحظة لأي عضو آخر. ليس مسموحًا بالكلام تحت أي ظرف عدا في غُرفة الغُرباء. كان أخي واحدًا من الأعضاء المؤسسين».

«وما السبب الذي يجعله يذهب إلى الجمعية؟ الخجل أم كراهية البشر؟».

«لقد تحدَّثنا بالأمس عن حذري تجاه المشاعر وتكوين أي نوع من الروابط. ليس لديَّ أي أصدقاء سواك. يُشاركني مايكروفت هذا الاعتقاد إلى درجة أبعد بكثير مني. لقد وُلِد ليكون مُنعزلًا، هو وحده يُشبع حاجاته الخاصة للصُحبة والإثارة العقلية».

«اعذرني لقول هذا، ولكنه يبدو غريبًا للغاية».

ضحك هولمز وقال: «على الإطلاق، إنه ليس غريبًا حقًّا، ستجد أنه أكثر رجل ودود عندما تقابله».

«هل سأُقابله؟».

«هذا الصباح، في الحادية عشرة، إن لديه قضية من أجلنا، وقد طلب مني خصيصًا أن أُحضرك معي».

«حقًّا؟».

قال لي: «انظر بنفسك». ثم ألقى بالرسالة ناحيتي، ولكنه أخطأ الهدف فسقطت على البيض المقلي واللحم المُقدد.

كانت الرسالة تحمل عنوان: جمعية ديوجانس شارع بولمال. وكانت مكتوبة بخطٍ أنيق، كُتب فيها ببساطة:

شيرلوك،

تعالَ إليَّ في الحادية عشرة اليوم، سوف ألتقي بك في غُرفة الغرباء، فلتحضر شريكك واطسون معك، هناك مسألة قد تُثير اهتمامكما.

مايكروفت.

دقَّت الساعة الحادية عشرة بينما أنا وهولمز ندلف إلى جمعية ديوجانس، حذَّرني هولمز ألا أتلفَّظ بكلمة واحدة بينما يقتادني عبر البهو، لمحت من خلال الجدران الزجاجية غرفة فاخرة ضخمة يوجد بداخلها عدد كبير من الرجال يجلسون في مقاعد وثيرة ويقرأون الجرائد. اقتادني هولمز إلى غُرفة صغيرة تطل على شارع بولمال، ثم تركني لبعض الوقت قبل أن يعود بصُحبة رجل خمَّنت أنه أخوه بالتأكيد.

كان مايكروفت هولمز أكبر حجمًا وأكثر بدانة من شيرلوك، في الواقع كان جسده سمينًا للغاية وكان يتحرَّك بهذا البطء الكيِّس الذي يضطر البدناء إلى الاعتياد عليه بسبب وزنهم، مع ذلك كان هناك شيء في تعبيرات وجهه شبيه بأخيه إلى حد ملحوظ، كانت عينا مايكروفت المتقدتان وراء العوينات تحملان هذه النظرة العميقة الاستنباطية التي لم أرها إلا في رفيقي عندما يستخدم قدراته الكاملة.

قال وهو يمد ناحيتي يدًا عريضة مُسطَّحة كزعنفة فقمة: «أنا مسرور للقائك يا سيدي، بلغ إلى علمي أنَّك تصحب أخي في تحقيقاته».

أومأت برأسي وقلت: «مسرور للقائك أيضًا».

قال هولمز بطريقة جافَّة فظَّة: «الآن وقد انتهينا من المجاملات، دعنا نتحدث في الأمر مُباشرة، أنت لديك قضية من أجلي يا مايكروفت، أليس كذلك؟».

نظر ناحيتي وابتسم ثم أخذ بعض النشوق من علبة نشوق مصنوعة من صدفة سلحفاء، واستنشقها بصوتٍ مرتفع، ثم قال: «إن أخي ليس من الرجال الذين يتحملون الرسميات يا دكتور واطسون. قضية يا شيرلوك؟ حسنًا أفترض أن بإمكاننا أن نُسميها قضية، إنها مسألة فريدة بالتأكيد».

كان من الممتع رؤية كيف يُعامل هذا الرجل الضخم أخاه بنوعٍ من التسامح المرح، كأنه تلميذ جائع لا يطيق صبرًا لتناول الشاي. رأيت في مايكروفت شخصية مميزة أخرى يُمكن أن أُضيفها إلى عالم شارع بيكر الخاص بي، الذي كان يتشكل على نحو رائع، وجاهزًا للصياغة الأدبية.

قال هولمز وهو يَصفُق بقفازه على الطاولة في نفاد صبر: «حسنًا؟ دعني أسمع الحقائق».

أجابه مايكروفت بأن راح يكتب على ورقة في مذكرة جيبه، ثم قرع الجرس وأعطاها إلى النادل.

قال: «لقد طلبت من السيد ميلاس أن يمر علينا، إنه يسكن في الطابق الذي يعلوني، وقد تعرَّفت إليه إلى حدٍّ ما مما جعله يأتي إليَّ في حيرته».

في النهاية كانت المسألة بسيطة، واحتاجت إلى القليل من عمل التحقيق بالنيابة عن صديقي. بالطبع كانت قضية غير متقنة إلى حد كبير، التي من المحتمل كثيرًا أن أحذفها من أي مجموعة قد جمعتها من قضايا هولمز، فقد اتضح في نهاية الأمر أن المجرمين الحقيقيين قد هربوا من قبضة كلٍّ من هولمز والقانون.

أثناء عودتنا من حملتنا الفاشلة للقبض عليهم كان صديقي في مزاجٍ سيء.

زمجر هولمز في عربة الأجرة في طريقنا عائدين إلى شارع بيكر: «مسألة غير مرضية على الإطلاق، كان بها كل عناصر قضية رائعة، فقط لو تواصلوا معي في وقتٍ مُبكر».

لم أستطع سوى أن أومئ برأسي موافقًا، بالفعل كانت القضية واعدة كثيرًا وتحتوي على عناصر درامية مُناسبة لقصة رائعة، ولكنها كانت تفتقر إلى الخاتمة المرضية.

عندما وصلنا إلى مسكننا وجدنا مايكروفت ينتظرنا هناك مع زجاجة من الشمبانيا موضوعة في الثلج. نظرة واحدة إلى وجه أخيه أنبأته بنتيجة الليلة المُخيبة للآمال.

ابتسم وهو يزيل سدادة زجاجة الشمبانيا بفرقعة مكتومة قائلًا: «لا عليك يا شيرلوك، لقد بذلت ما بوسعك، لا يُمكنك دومًا أن تضمن النجاح في أعمالك التحقيقية».

أجابه هولمز باكتئاب: «يبدو ذلك». ثم ألقى بمعطفه على المشجب وذهب إلى غُرفته.

قال مايكروفت وهو يناولني كأسًا من الشمبانيا دون أن ينزعج من فظاظة هولمز: «لطالما كان فتى مُشاكسًا، يبدو أننا سنتشارك هذه الزجاجة نحن الاثنان».

شكرته وجلسنا على جانبَي المدفأة وقد جلس مايكروفت بشكلٍ تلقائي على الكرسي الذي يجلس عليه أخوه عادة.

«في غياب شيرلوك دعني أرفع نخبًا بالنيابة عنه. نخب الجريمة، جريمة أكبر وأفضل». ثم ضحك فضحكت معه.

تأمَّل مايكروفت المكان ثم قال: «تبدو مرتاحًا للغاية هنا يا واطسون».

أجبته: «بالفعل».

«ولكن مع ذلك أخبرني شيرلوك أن لديك خططًا للمُغادرة، الرومانسية تلوح في الأفق».

«هل أخبرك بهذا؟». كنت مُندهشًا للغاية، لقد افترضت أن هولمز سيُعامل حياتي الخاصة بسرية شديدة.

ملأ مايكروفت كأسي الفارغ وقال: «إننا أخوان في نهاية المطاف، أنا لست مجرد رجل عابر، أنا واثق أنه لم يقصد أي إساءة بهذا، لقد أدركت من نبرته وملامح وجهه أنه قلق للغاية من خسارة صُحبتك».

«حسنًا هذا ليس أكيدًا في الوقت الحالي».

«حقًّا؟».

«هناك... الأمر لا يزال مُبكرًا للغاية».

«اعذرني يا واطسون إن كنت أتعدَّى أكثر من اللازم على مساحتك الشخصية، ولكن هل أنت واثق من مشاعرك تجاه الفتاة؟».

«أجل».

«ومشاعرها تجاهك؟».

«أجل».

«حسنًا إذن، أي شيء آخر لا يهم، أتمنى لك التوفيق، ولكن عدني بشيء واحد يا فتى، عندما تسلك طريق الزواج فإنك لن تهجر شيرلوك تمامًا، هل اتفقنا؟».

أومأت برأسي وأنا أُفكر كيف يُمكنني هذا. لا يعرف مايكروفت بشأن القيود التي تربطني بأخيه، ولكن في الوقت ذاته كانت غريزتي الطبيعية هي أن أبقى مُخلصًا لصديقي، إنه الرجل الوحيد الذي يُمكن أن أُسميه صديقًا.

«رجل طيب، المزيد من الشمبانيا يا واطسون؟».

ملأ كأسي مُجددًا ثم قال: «الآن يجب أن أُغادر، لديَّ موعد آخر في المدينة».

نهض من الكُرسي ببعض المجهود ووضع كأسه على الطاولة، أدركت حينها أنه بالكاد لمس الشمبانيا، وأن هذا لا يزال كأسه الأول.

ابتسم مايكروفت وهو يرتدي معطفه وقال: «لقد أنهيتَ الزجاجة يا واطسون، لقد كانت أُمسية لطيفة، فلتوصل تحياتي إلى أخي، أنا واثق أنه سيكون قد تجاوز اكتئابه في الصباح».

وما إن انتهى من كلماته حتى غادر الغُرفة مُغلقًا الباب وراءه.

## -٢٢-

## من مذكرات جون هـ. واطسون

لمدة أسبوع ظللت أشعر بحيرة شديدة، لا أعرف ما الذي يخبئه مستقبلي، أو مستقبل حبيبتي ماري. كانت تجلب لي بصيص ضوء الشمس الوحيد في تلك الأيام المظلمة. كنا نلتقي باستمرار من أجل الغداء أو التمشية في منتزه، وفي إحدى المرات ذهبنا إلى المسرح وقد ازدادت علاقتنا عُمقًا وقوة، لم أشك لحظة في أنها المرأة التي أرغب في قضاء ما تبقَّى من حياتي معها، وكنت واثقًا أن ماري تشعر بالمثل ناحيتي. رُغم أنني كنت دومًا سعيدًا ومرتاحًا في صُحبتها، إلا أنه في لحظات عابرة كانت ملامحي تخونني وتُخبرها أن هناك ظلًّا يخيم على سعادتنا.

ذات مساء ونحن عائدان إلى منزل السيدة فورستر في عربة أُجرة سألتني: «هناك شيء يزعجك، أليس كذلك يا جون؟».

ابتسمت وأنا أهز رأسي وأجبتها على نحوٍ غير مقنع: «بالطبع لا».

مالت للأمام وقبَّلت وجنتي ثم قالت: «أعتقد أنني صرت أعرف حبيبي جون جيدًا الآن، أنا أنظر إليك من وقتٍ لآخر دون أن تُلاحظ وأرى.. أرى مثل هذا الحزن في عينيك، هناك خطب ما، أنا أعرف. إن لم تكن واثقًا من مشاعرك...».

«بحق السماء يا ماري، لا! أرجوكِ لا تفكري هكذا مُجددًا، أنا أُحبك كثيرًا، كثيرًا للغاية».

ابتسمت وقالت: «أنا مسرورة للغاية.. لأنني أنا أيضًا أُحبك كثيرًا، كثيرًا للغاية».

تعانقنا فجعلني القرب منها ورائحة عطرها أشعر بالدوار.

سألتني برقة بعد أن تعانقنا: «إذن، ما الأمر؟».

في حالة الثمالة التي كنت فيها؛ الثمالة بسبب القرب منها، أحسست لوهلة أنني أود أن أُخبرها الحقيقة، لحُسن الحظ تدخَّلت طبيعتي الأكثر عقلانية. كم سيكون من الرائع أن أُخبر ماري بكل شيء؛ كل شيء من تسريحي من الجيش إلى التقائي بموريارتي وعملي كجاسوس لصالحه. سيكون إحساسًا

رائعًا ومريحًا أن أفصح عن همومي لشخص يُحبني، ولكن هذا لن يكون فقط أنانيًّا للغاية ولكنه سيكون أيضًا خطيرًا للغاية. بحيازة مثل هذه المعرفة ستُمثل ماري خطرًا على موريارتي، ولن تساوي حياتها عنده مقدار ذرة. وبمعرفة واطسون الحقيقي، بمعرفة جون ووكر، قد ترفضني ماري بسبب خداعي وعيوبي. لا، يجب أن أواصل الادعاء.

قلت لها: «إنه شيرلوك هولمز».

عقدت ماري حاجبيها الجميلين في حيرة وقالت: «هولمز؟».

«بالرغم من أسلوبه الهادئ الواثق إلا أنه قد صار يعتمد عليَّ بأشكالٍ عديدة، كرفيق وأذن صاغية وصديق، ليس لديه أي شخص آخر». كان من الممكن أن أضيف «ولا أنا».

قالت ماري: «لقد فهمت، أو بالأحرى أعتقد أنني قد فهمت».

«إنه لا يتحمل فكرة مُغادرتي لشارع بيكر، ولا يحب فكرة تركه وحده، وألا يكون هناك أحد ليصحبه عند تحقيقه في قضية، إنه يستخدمني لتجربة نظرياته».

تجهَّمت ملامح ماري وقالت: «يستخدمك! بالفعل؟!».

ابتسمت ابتسامة باهتة وقلت: «حسنًا، أجل، إنه يستخدمني، هذه هي طريقته، ولكني واثق أنه يحترمني ويهتم لشأني بطريقته الخاصة».

«وهذا هو ما يزعجك يا جون؟ ترك هولمز وحده؟».

«حسنًا.. أجل».

فجأة تحوَّل وجهها اللطيف من الجدية إلى ابتسامة عريضة وضحكت قائلة: «أوه، أنت وحدك يا جون من يُمكنه أن يكون حنونًا للغاية وحسَّاسًا للغاية تجاه مثل هذا الأمر. إن شيرلوك هولمز رجل ناضج، وأنا واثقة أنه قادر تمامًا على الاعتناء بنفسه والعمل على نظرياته وحده. وعلى أي حال أنت لن تُغادر البلدة. إن ترك مسكنك في شارع بيكر لا يعني أنك لن تراه أبدًا مُجددًا أو أنك لن تصحبه أبدًا في واحدة من تحقيقاته؛ إنه يعني فقط أنه في المساء سوف تعود إلى بيتك إلى زوجتك المُحبة». ثم ضحكت مُجددًا.

«هل تعنين أنك لن تُمانعي إذن أن أظل على تواصل مع هولمز وأن أساعده من وقتٍ لآخر؟».

«بالطبع لا يا أحمق، أنا لست واحدة من تلك النساء اللاتي يُحاولن تغيير طبيعة أزواجهن، لقد أحببتك كما أنت، وسيكون من الخطأ والحماقة أن أُحاول تغييرك».

دون أي كلمة أُخرى تعانقنا مُجددًا وتبادلنا القبلات، وبهذا أغلقنا المسألة في الوقت الحالي.

لم يمضِ سوى بضعة أيام قبل أن أتلقى رسالة من موريارتي يُخبرني فيها أن ألتقي بالعقيد موران. بقلبٍ مُضطرب خرجت هذا الصباح من أجل موعدي، لم يكن هولمز قد استيقظ من نومه عندما غادرت، كان في حالة اكتئاب لأنه لم يكن هناك أي تحقيقات مُتاحة. كنت مشغولًا بمشاكلي الخاصة عن محاولة إبقاء يده بعيدًا عن زجاجة الكوكايين. كنت أدرك أنه يأخذ جرعات أكثر من اللازم، ولكني كنت أعرف أن أي كلمات مني سيكون لها تأثير ضئيل على عزمه لإثارة عقله بشكلٍ صناعي. كنت آمل فقط أن تظهر جريمة غامضة سريعًا لإعادته إلى عقله.

ظهرت عربة موران في الموعد المُحدد فصعدت إليها.

جاء الصوت المألوف من ظلال عربة الأجرة: «طاب نهارك يا واطسون، آمل أنك بخير». كانت تحية موران المُعتادة.

«أنا بخير».

«جيد، فلنتحدث في العمل، أنت ترغب في فسخ عقدك مع البروفيسور وأن تترك مهامك في شارع بيكر وتتزوج؟».

«أنا لا أرغب في فسخ عقدي، أنا أتمنى فقط أن أُعفى منه، أو على الأقل تعديل الشروط».

«أحسنت القول يا واطسون، أحسنت القول. وما الذي تنوي فعله ما إن تتزوج؟».

«أن أجهز بيتًا بالطبع، وآمل أن أستأنف العمل في مجال الطب مُجددًا».

«والسيد هولمز؟ في هذه الظروف الجديدة، كيف ستستمر علاقتك معه من وجهة نظرك؟».

قلت بحدة: «ظننت أنك أنت من سيُخبرني بهذا». فقد أصابني الضجر من هذه الألاعيب.

ظهر ضوء مُفاجئ في العربة عندما أشعل موران عود ثقاب ليشعل سيجارًا. رأيت ملامحه الحادة وحاجبين أشعثين رماديين لوهلة قبل أن تختفي في الظلمة مُجددًا بمجرد أن انطفأ عود الثقاب.

«جيد جدًّا يا دكتور واطسون، سنمنحك طلبك».

شهقت في دهشة، فقال موران على الفور قبل أن أقول كلمة واحدة: «ولكن هناك شروطًا».

أومأت برأسي، كنت واثقًا من هذا.

«أولًا؛ سوف تُبقي على تواصلك المُعتاد مع شيرلوك هولمز، وفي أي وقت يطلب فيه مُساعدتك سوف تُسرع على الفور لتكون بجواره. ثانيًا؛ وبالمثل إن تلقيت رسالة من البروفيسور تطلب منك التدخل في تحقيقات هولمز التي يقوم بها فسوف تفعل هذا على الفور. مفهوم حتى الآن؟».

«مفهوم».

«لا يجب تحت أي ظروف أن تكشف عن هذه الترتيبات لزوجتك، أو أي مخلوق آخر بالطبع. مفهوم؟».

«أجل».

«جيد، سوف نترك ترتيب مراسم الزواج لك، ولكن البروفيسور سوف يُرتب لك مسكنك الجديد ويُرتب لعملك كطبيب في بادينجتون».

«بادينجتون؟».

«مكان صغير لطيف، منزل شبه منفصل، مُريح بكل المقاييس، وبه غُرفة أمامية يُمكن استخدامها كعيادة. سوف تُناسبك كثيرًا، لن يكون لديك الكثير من المرضى، ولكن هذا ما نريده، أليس كذلك؟ يجب أن يكون لديك الكثير

من الوقت بين يديك لمُساعدة صديقك المُحقق، وإذا أحسست بالملل يُمكنك دومًا أن تعمل على كتاباتك».

رُغم أن الأخبار التي كنت أسمعها كانت إيجابية بشكلٍ جوهري، إلا أن نبرة موران الساخرة أكَّدت لي أن أغلالي لن تُزال أو حتى ترتخي، ستستبدل بها أغلال أخرى تُماثلها في القيد. ولكني كنت ممتنًّا لأنني أستطيع الآن أن أطلب من ماري الزواج وأن نُحدد موعدًا.

أكمل موران قائلًا: «وكما تعرف، ليس لدينا اتفاقات مكتوبة في هذه المنظمة، ولكننا نثق في التزام الناس بما يقولونه».

قلت لنفسي إنه من السهل فعل ذلك عندما لا تُعطي الشخص أيَّ بدائل. صمت موران قليلًا في انتظار ردي فقلت: «أجل».

«إذن يا واطسون فأنت توافق على ترتيباتنا وسوف تلتزم بها؟».

«من أجل الزواج من ماري سأفعل كل ما تطلبونه». وأنا أقول هذه الكلمات أحسست بقبضة باردة تعتصر قلبي.

قال موران: «جيد، لقد حُسم الأمر إذن».

أثناء هذا الشهر تزوجنا أنا وماري، جرت المراسم في كنيسة سانت مونيكا في طريق ادجوير. كانت مراسم خاصة لم يحضرها سوى أنا وماري. لقد طلبت من هولمز أن يكون إشبيني، وقد وافق بعد بعض التحفظ والممانعة. ولكنه لم يظهر في الساعة المُحددة، انتظرناه لعشر دقائق على أمل أن يأتي، ولكن القس الذي يؤدي المراسم قد بدأ يشعر بالانزعاج من التأخير، وهكذا في النهاية طلبنا خدمة أحد المتسكعين في الكنيسة ليكون شاهدًا، لا شكَّ أنه كان يحتمي من البرد وأحس بالدهشة عندما دفعت له جنيهًا ذهبيًّا لكي يُساعدنا على إضفاء الشرعية على المراسم.

رُغم بهجة المناسبة إلا أن عدم ظهور هولمز قد أصابني بالإحباط وأفسد فرحتي بشكلٍ ما، كنت آمل أنه سيتغاضى عن مشاعره الخاصة تجاه الحب والزواج لمناسبة واحدة عابرة من أجل أن يُسعد صديقًا، ولكن يبدو أنني كنت مُخطئًا.

قضينا أنا وماري شهر العسل في برايتون وعندما وصلت إلى الفندق وجدت برقية تنتظرني هناك، كانت من شيرلوك هولمز، مكتوب فيها:

أعتذر عن غيابي. أعمل على قضية تخص السيدة واطسون. ش.

## -٢٣-

## من مذكرات جون هـ. واطسون

وهكذا دلفت بسهولة وقناعة إلى حياة الزواج، وعمل الطب. كنت سعيدًا معظم الوقت لأنني قادر على تجاهل إدراكي بأني ما زلت دُمية تحت السيطرة في موقف مصطنع. كانت علاقتي بماري وحبي لها حقيقيين، وقد شكَّلا بجانب اعتنائي بالمرضى ركيزة أساسية في حياتي. كان الطبيب السابق قد تجاهل ممارسة الطب وأدركت أنني سأحتاج إلى وقت ومجهود كبير لأخلق مصدر دخل معقول. بمرور الوقت وبدافع الفضول على ما يبدو أكثر من أي سبب آخر بدأت أجذب عددًا من المرضى الجدد، ولكني كنت أعرف أن أمامي طريقًا طويلًا لأسير فيه، خمَّنت أن نُدرة المرضى هو ما جعل موريارتي يختار لي هذا العمل خصيصًا، لم يرغب في أن أنشغل كثيرًا فأهمل واجباتي تجاهه، ولكني أهملتها بالفعل في الثلاثة أشهر الأولى.

لم أزُر هولمز ولو مرة واحدة طيلة هذا الوقت، وهو لم يتواصل معي، لم أتوقع أن يفعل هذا بالطبع، هو لن يلجأ إليَّ إلا في ساعة الحاجة. تخيلته في مسكنه بشارع بيكر -المسكن الذي صار قادرًا على تحمل تكلفته وحده دون الحاجة إلى شريك- غارقًا بين الكتب والملفات، ويتبدل حاله من أسبوع إلى أسبوع بين الكوكايين والشغف، دوار المخدر والطاقة العنيفة لطبيعته المتحمسة. رُغم ذلك ظلَّت شعبيته كمُحقق تنتشر. من وقتٍ لآخر كنت أقرأ عن بعض أنشطته في الجرائد، وخصيصًا استدعاءه إلى أوديسا للتحقيق في جرائم قتل تريبوف، وبدا من الواضح لي أنه قد تعافى تمامًا من فكرة عدم وجود رفيق يصحبه في تحقيقاته.

أحسست ببعض الذنب لعدم زيارته، ليس من أجل موريارتي، ولكن لأني كنت أعد شيرلوك هولمز صديقي. رُغم ذلك كبحت هذا الإحساس بالذنب حتى ذات مساء بعد أربعة أشهر تقريبًا من زواجي عندما كنت عائدًا من زيارة لأحد المرضى، وأخذني طريق عودتي عبر شارع بيكر. وأنا أمر من أمام هذا الباب الذي أذكره جيدًا اجتاحتني رغبة جارفة في أن أرى صديقي مُجددًا. على الفور قرعت جرس الباب فاستقبلتني السيدة هودسون بترحاب شديد واحتضنتني بحرارة.

قالت: «من الرائع رؤيتك في بيتك القديم، لم تعد الأشياء كما كانت منذ رحيلك، على الأقل كنت تُلزمه بالنظام».

سألتها وأنا أومئ برأسي ناحية الدرج المؤدي إلى شقة هولمز: «هل صار التعامل معه صعبًا؟».

«يُمكنك أن تقول هذا، إنه مُتقلب المزاج، لم أرَ رجلًا مُتقلبَ المزاج مثله من قبل، وكيف يُمكن أن أُخطط لاعتنائي بالمنزل وأنا لا أعرف متى سيكون موجودًا فيه، أحيانًا يختفي لثلاثة أيام متواصلة دون كلمة أو تحذير أو تفسير، وعندما يظهر أخيرًا يطلب اللحم المقدد والبيض لأنه يتضور جوعًا».

لم أستطع منع نفسي من الضحك على ورطة السيدة هودسون. ضحكت هي بدورها وقالت: «يا له من رجل، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي.

«هل يُمكنك أن تعود وتُضفي بعض الروتين والمنطق على حياته يا دكتور واطسون؟».

«أنا رجل متزوج الآن يا سيدة هودسون، إن مسؤولياتي الرئيسية تكمن في مكان آخر».

«بالطبع، ما الذي كنت أُفكر فيه؟ وأنت تبدو أفضل حالًا في الزواج، يُمكنني أن أرى أن امرأتك تعتني بك جيدًا».

قلت: «تقريبًا كما كنت تفعلين».

ربَّتت السيدة هودسون على ذراعي وابتسمت.

«هل هو هنا؟».

«أجل يا دكتور، وأنا واثقة أنه سيكون مسرورًا لرؤيتك».

لم أكن واثقًا تمامًا. ما إن فتحت الباب حتى ابتسم شيرلوك لي ابتسامة قصيرة وطلب مني الدخول. بدت الغُرفة كأن هناك إعصارًا قد عاث فيها فسادًا منذ دقائق، كانت هناك أوراق متناثرة في كل مكان.

ألقى هولمز بعض الأوراق من على الكرسي الذي اعتدت الجلوس عليه في الماضي، وطلب مني الجلوس.

قال ببساطة وهو يشير إلى الورق: «لقد جئتَ وأنا مُنهمك في بحث، هناك معلومة معينة أحتاجها وأجد صعوبة في العثور عليها».

«إن نظام ترتيب أوراقك يحتاج لأن يكون أكثر دقة».

«يبدو هذا، أنا لا أستطيع فهمه». كانت عيناه بهما هذه النظرة الحالمة التي أخبرتني أنه تحت تأثير المخدرات. أشعل غليونه وقد ارتعشت يده وهو يُمسك بعود الثقاب.

«أنت لا تبدو بخير يا هولمز، أنت تسيء إلى نفسك».

أومأ برأسه وقال: «على الأرجح، أنا أصير في أسوأ حالاتي النفسية من آن لآخر، وخصيصًا عندما لا تكون هناك قضايا أعمل عليها، ولكن هذه هي طريقتي».

أحسست بالنبرة الجافة القاسية في تعليقه الأخير، الذي كان يُخبرني ألا أتدخل فيما لا يعنيني. أدركت أنه من العبث مواصلة الحديث في الموضوع. كان هناك صمت مُحرج وأنا أحاول أن أجد شيئًا لأقوله بلا جدوى.

قال هو أخيرًا: «من الواضح أن حياة الزواج تناسبك، أعتقد أنك قد ازددت سبعة أرطال ونصف منذ آخر مرة رأيتك فيها».

أجبته: «سبعة؟!».

رفع أحد حاجبيه بعدم اقتناع وقال: «حقًّا؟ أعتقد أنه أكثر من هذا بقليل، أكثر بشيء بسيط. أعتقد أن حياة الزواج هي السبب بلا شك. ولقد عدت إلى ممارسة الطب كما أرى، لم تُخبرني أنك تنوي العودة إلى هذه المهنة».

«كيف يُمكنك أن تكون واثقًا؟».

«لأنني شيرلوك هولمز، هل نسيت يا واطسون؟ أنا أرى وأستنتج، لقد اعتدت على أن تعرف هذا». ثم تنهد في انزعاج وقال: «إذا دلف رجل إلى غُرفتي تفوح منه الرائحة الأيودوفورم، وهناك آثار نترات سوداء على أنامل يده اليُمنى، وانبعاج في جانب قبعته حيث يضع منظاره، فسأكون غبيًّا بالفعل إن لم أعرف أنه رجل يمتهن الطب، هل رضيت؟».

أومأت برأسي وابتسمت بضعف قائلًا: «قويٌّ المُلاحظة كعادتك».

«أنت طيب القلب، والآن يا دكتور واطسون ما السبب الذي دفعك لزيارتي هذا المساء تاركًا مدفأتك المريحة وزوجتك اللطيفة؟».

لم يكن هناك شك في نبرة الازدراء في صوته، فبدأت أشعر بالغضب للطريقة الفظة والمهينة التي كان صديقي -أو صديقي السابق كما بدأت أراه الآن- يُعاملني بها.

«لقد جئت بدافع الصداقة لأرى كيف حالك».

«وأنا الذي كنت أظن أنك كنت تمر بالصدفة وتصرَّفت بدافع من نزوة عابرة. ظننت أنك بعد كل هذه الشهور لم تعد تهتم لشأني».

آلمتني كلمات هولمز، ليس لأنها قاسية فقط، ولكن لأنها تحوي بداخلها بذرة من الحقيقة.

اعتدلت واقفًا بحدة وقلت: «أرى أنك مشغول الآن، وأنني أتدخل فيما لا يعنيني. فقط أردت أن... أن...».

ردد هولمز كلماتي قائلًا: «أردت أن...؟». ثم أضاف: «لا أعتقد يا واطسون أنك تعرف حقًّا ما تريده. أجل أنا مشغول، ولا شك أن ماري قد أعدَّت لك وجبة ساخنة في انتظار عودتك».

انفجر الغضب بداخلي، وفي هذه اللحظة كان من الممكن أن أضرب هولمز، ولكني تمالكت نفسي. أخبرني عقلي أن حديث هولمز دافعه المخدرات من ناحية، ومن ناحية أخرى إحساس هولمز بالحنق تجاهي لهجره أكثر من ثلاثة أشهر.

أسرعت ناحية الباب وأنا أتمنى له ليلة طيبة.

بعدما هبطت من الدرج استطعت أن أسمع نغمات أوتار كمان هولمز الحزينة وهي تشق السكون.

وأنا أسير في ظلام الليل ترقرقت عيناي بدموع الغضب. كنت غاضبًا من هولمز، وغاضبًا من نفسي. أعرف أنني قد أهملت صديقي، ولكن مُعظم الناس كانوا سيتفهمون، هولمز بالطبع لم يكن كمعظم الناس، وكانت أنانيته تعمي عينيه عن مشاعر الآخرين وحساسيتهم. لم يكن عقلانيًّا ولكني قد تصرَّفت بشكلٍ سيء، ليتني ذهبت لرؤيته بعد زواجي للحفاظ على علاقتنا

على الأقل، ولكن انقطاعي عنه لقرابة أربعة أشهر فقط قطعت بحماقة الرابط بيني وبين الرجل الوحيد الذي اعتبرته صديقًا جيدًا ومُقرَّبًا.

عدت إلى بيتي الجديد وأنا أشعر بثقل في قلبي، كان هناك مصباح مشتعل في غُرفة الجلوس، وكان هناك كأس وإناء من البراندي موضوعين في منتصف الطاولة بجانب المدفأة، التي كانت لا تزال تتوهج بالحياة. كانت هناك رسالة موضوعة بجانب الإناء: «استمتع بكأسك المسائي يا عزيزي، أنت تستحقه بعد يوم طويل. تعالَ إلى السرير بهدوء. ماري».

لم أستطع منع نفسي من الابتسام لهذه اللفتة اللطيفة، ابتهج قلبي في امتنان وعرفان. ربما أكون قد خسرت هولمز، ولكني أملك حبيبتي ماري، وهي تساوي كل الأصدقاء في العالم. مددت يدي إلى إناء البراندي ثم أعدتها مُجددًا وأنا أتنهد، مهما كان كم الانزعاج الذي أشعر به، فإن البراندي لن يُساعدني، أنا أعرف هذا عن تجربة.

بعد أسبوع كان بروفيسور موريارتي يعقد اجتماعًا مع رجله الثاني بخصوص أمر شديد الأهمية، كان موران منحنيًا فوق الخطط الموضوعة على مكتب موريارتي وهو يتفحصها بعناية. تساقطت رقائق من الرماد من طرف سيجاره فنفخها بعيدًا.

في نهاية الأمر قال: «أعتقد حقًّا أنها ستنجح».

«سوف تنجح». جاءه الرد الحاد من البروفيسور الذي كان يقف على بعد قدمٍ منه تقريبًا، وهو يحدق إلى النهر بالأسفل، الذي كان مُظلمًا ومُضطربًا في الغسق البنفسجي. استدار فجأة وانضم إلى موران بجانب مكتبه وقال: «أنا لا أسمح لأي هوامش من الشك أو الخطأ يا موران، كنت أظن أنك قد صرت تعرف هذا».

أجابه موران على الفور: «بالطبع».

«إن هذا المشروع سلاح ذو حدين بشكلٍ ما، سوف أنال شرف ارتكاب الجريمة الأكثر روعة، وسأجني ثروة من هذا، ولكن على الناحية الأخرى فإن أحدًا لن يعرف أو يلاحظ عبقريتي وجرأتي لأنه لن يعرف أحد أن هناك جريمة قد وقعت».

«حسنًا، هذه هي عبقرية الخطة».

أومأ موريارتي برأسه برفق وقال: «أجل». ثم صمت لوهلة غارقًا في أفكاره قبل أن يفرك يديه بشكلٍ عملي ويقول: «ولكننا نستبق الأحداث، هناك تدابير مُعينة، بعض الوحدات التي يجب أن تكون في موضعها أولًا، والوقت يُداهمنا. الحجر سيكون هنا في غضون عشرة أيام، وبعد فشلنا المؤسف مع ميلورس وبِنثام يجب أن ننتقل إلى جريفز».

«هذا الأمر يجري الاعتناء به ونحن نتحدث يا بروفيسور، من المفترض أن يكون في المخزن بحلول الصباح».

رفع موريارتي أحد حاجبيه وقال: «من المفترض؟».

قال موران بتأكيد: «بل سيكون».

«دعنا نأمل هذا من أجل مصلحتنا جميعًا».

كان شيرلوك هولمز رابضًا بين الشجيرات ينتظر، لقد رأى الرجل يعود إلى بيته وحده منذ ساعة. لمحه من وراء الستائر الشبكية لغُرفة الجلوس يقرأ الصحيفة اليومية ويكتب بعض الخطابات قبل أن يصعد إلى الطابق العلوي. كان البيت غارقًا في الظلمة عدا من الضوء الخافت المنبعث من غُرفة النوم الأمامية. نظر المُحقق إلى ساعته، كانت الرؤية صعبة في الظلام ولكنه استطاع أن يرى أنها قد تجاوزت الحادية عشرة. لن يمضي وقت طويل قبل أن يهجموا. لم يكن هناك شيء يستطيع أن يفعله حتى يظهروا. إن مُحادثته في حانة لورد نيلسون مع هاري دريسدال مُخبر الشرطة الذي يعرفه قد جعلته يستنتج أنه قد يكون هناك ثلاثة رجال متورطون في الأمر، ولكنه لم يكن واثقًا.

قال دريسدال مُبتسمًا: «إنهم يبقون هذا الأمر سرًّا وما إلى ذلك». قبل أن يغرق في كأس من الجعة.

سواء كانوا اثنين أو ثلاثة فإن الاحتمالات ليست في صالحه، لهذا أحضر هولمز مسدسه معه، لقد شعر بالرغبة في الاتصال بواطسون ليرى إن كان مُتفرغًا من أجل مُغامرة مسائية، ولكن هولمز كان يشعر بالذنب بسبب الطريقة الجافية والمُعادية التي عامل بها صديقه في لقائهما الأخير، وفكَّر أنه ليس من العدل أن يضع مثل هذا الضغط عليه. كان هناك خطر أكيد في هذه المُغامرة الليلية، وقد أحس أنه ليس من المنصف أن يطلب من واطسون أن يُشاركه إياه.

بينما ساعة بيج بن تدق منتصف الليل انطفأ الضوء في غُرفة النوم، لقد خلد الساكن إلى النوم أخيرًا. خمَّن هولمز أنه لن يحظى بالكثير من النوم هذه الليلة. بعد خمس دقائق رأى رجلين يكتنفهما الظلام يتسللان عبر الممر إلى مدخل البيت. لمع ضوء مصباح لوقتٍ قصير وأحد الرجلين يتعامل مع القفل. قال هولمز لنفسه إنهما محترفان تمامًا، فبأقل وقتٍ ومجهود وضوضاء استطاعا أن يدلفا إلى البيت ويغلقا الباب وراءهما.

الآن عليه أن يحسم أمره، هل يدخل إلى البيت ويُمسك بالمقتحمَيْن مُتلبسَيْن، أم ينتظر حتى يخرجا بغنيمتهما؟ كانت كل خطة منهما لها عيوبها، فبدخول البيت المظلم كان يُعرِّض نفسه للخطر وخصيصًا مع وجود رجلين يتحركان في الظلام، ولكنهما قد يخرجان ببساطة من الباب الخلفي بينما هو ينتظر أمام البيت.

أحكم قبضته على مسدسه ثم اقترب من الباب الأمامي، حتى الآن لم يكن هناك أي صوت ينبعث من البيت. دلف إلى الداخل وكتم أنفاسه وهو يصغي السمع. فجأة رأى ضوءًا يلمع أعلى السلم وسمع صوت رجلٍ يصرخ.

بلا أدنى تردد أسرع هولمز صاعدًا الدرج، كان باب غُرفة النوم مفتوحًا واستطاع أن يرى ما بداخل الغُرفة بوضوح. كان هناك مصباح بجانب السرير ينبعث منه ضوء حاد، فتراقص ظِلَّا الرجلين الضخمين على الحائط. كان أحد المقتحمين يضع قطعة قُماشية على وجه الرجل الراقد على الفراش، من الواضح أنها غُمست في الكلوروفورم لإخضاع الضحية، كان يلوح بذراعيه في احتجاج ولكن بمرور الوقت سرى مفعول الكلوروفورم فارتخى جسده وتساقطت ذراعاه بجواره.

قال أحد الرجلين وهو يضحك بصوتٍ أجش: «ها نحن ذا، حان الوقت لتأخذ غفوة طويلة».

قال الآخر: «حسنًا، دعنا نُخرج ريب فان وينكل من هنا».

قال شيرلوك هولمز وهو يخطو إلى الغُرفة والمسدس في يده: «لا أعتقد أنكما ذاهبان إلى أيِّ مكان».

تجمَّد الرجلان لرؤية المسدس، ثم سأله أحدهما: «مَن أنت بحق الجحيم؟».

«أنا شيرلوك هولمز».

كان هناك شيء ما في تعبيرات وجه الرجل أنبأ هولمز بالخطر المُحدق به، بشكلٍ غريزي التفت إلى الوراء وهو يخطو جانبًا، ولكنه لم يكن سريعًا بما يكفي. تلقَّى ضربة وحشية على صدغه، ولوهلة انفجر ضوء أبيض باهر في عينيه. تعثر للوراء وانطلقت الرصاصة من تلقاء نفسها واستقرَّت في السقف. كان مُهاجمه رجلًا ثالثًا قد جاء من ورائه، وعلى الفور ركل المسدس من يد المُحقق.

أدرك هولمز أنه قد صار في مشكلة خطيرة. إن أمله الوحيد للنجاة هو الهرب، بينما الرجال الثلاثة يقتربون منه اندفع بخطوات سريعة ناحية النافذة ثم انتزع كرسيًّا وهوى به على زجاج النافذة صانعًا فجوة مُسنَّنة كبيرة بما يكفي لكي يتسلق من خلالها. عندها كان أحد الرجال قد أمسك بالمسدس وأطلق النار على هولمز، ولكن الرصاصة مرَّت بجوار رأس المحقق. كان هولمز يعرف أن الرصاصة التالية ستكون أكثر دقة. بلا أدنى تردد دفع نفسه عبر النافذة فعلقت سترته بالزجاج المسنن، أحسَّ بألم حاد والزجاج يخترق جلده، كان أكثر من نصفه خارج النافذة واستطاع أن يرى شجرة أسفله في الحديقة، فتمنَّى أن تُخفف من سقطته. وبينما هو يجذب نفسه عبر إطار النافذة اندفع أحد المهاجمين ناحيته وطعنه في ساقه، صرخ هولمز في ألم ولكنه لم يتوقَّف. بمجهودٍ خرافي انتزع نفسه من مُهاجمه، وفجأة وجد نفسه يهوي في الفراغ المُظلم.

## -٢٤-

## من مذكرات جون هـ. واطسون

بعد بضعة أيام من زيارتي لهولمز تلقَّيت رسالة مُلحة أدت إلى سلسلة من الأحداث التي انتهت بشكلٍ درامي للغاية. كانت الرسالة من بروفيسور موريارتي، وكانت مُقتضبة ومُباشرة: «لقد أهملت واجباتك يا دكتور! هولمز يتدخل في شئوني. يجب أن توقفه. تصرَّف على الفور!».

كيف يُفترض أن أتصرَّف؟ لم يكن لديَّ أدنى فكرة عمَّا يتوقع مني البروفيسور فعله، ولكني كُنت أُدرك أنني إن لم أفعل شيئًا فإن حياتي وحياة ماري وشيرلوك هولمز ستكون على المحك.

دون أدنى تردد اختلقت لنفسي العديد من الأعذار. كنت بدافع الحاجة قد صرت معتادًا على هذه التصرفات. أخبرت ماري أن هولمز بحاجة ماسَّة لمُساعدتي، وأني لا يُمكن أن أتجاهل رجاءه من أجل المُساعدة. لم تفعل شيئًا سوى أن قطَّبت جبينها وزمَّت شفتيها، ثم قالت إنها تتفهم وإن عليَّ أن أتبع إحساسي في هذا الأمر. على الفور طلبت من طبيبي البديل أن يعتني بالمرضى لبضعة أيام وأنا أختلق قصة عن العناية بعمة عجوز في الشمال توشك على الموت. ثم أوقفت عربة أُجرة وأسرعت إلى شارع بيكر وأنا لا أعرف ما الذي سأجده هناك، ما الطريقة التي سيستقبلني بها وكيف سأفسر حضوري.

ما إن دلفت إلى غُرفة الجلوس حتى وجدت رجلًا عجوزًا نائمًا على الأريكة، كان شعر وجنتيه كثيفًا، ووجهه يكتسي بالحُمرة التي تُميز من يشربون الخمر كثيرًا، كانت حلته الصوفية القديمة قد شهدت أيامًا أفضل، وكان حذاؤه رثًّا، وتُغطي يديه وأظافره طبقة كثيفة من الأوساخ. رُغم دخولي إلا أنه واصل الغطيط بهدوء وصدره يعلو ويهبط بإيقاع منتظم.

تلفَّت حولي بحثًا عن صديقي بلا فائدة، نظرت إلى غُرفة نومه ولكن اللحاف المفرود بشكلٍ سلس أنبأني بأنه لم ينم هنا هذه الليلة. عندما عُدت إلى غُرفة الجلوس كان الرجل العجوز قد استيقظ ووقف على قدميه. نظر إليَّ ببعض الدهشة، وكنت على وشك أن أطلب منه أن يُفصح عن هويته عندما لمحت بريقًا مألوفًا في عينيه الرماديتين، لقد كان هولمز.

صاح وهو ينتزع الشعر المستعار من على إحدى وجنتيه بحركة مسرحية: «صباح الخير يا واطسون! تُسعدني رؤيتك».

لم أستطع منع نفسي من الانفجار في الضحك، ابتسم هولمز وهو ينحني قائلًا بلهجة كوكني ثقيلة: «سيبتموس هيتشكوك في خدمتك يا سيدي».

هززت رأسي في حيرة وقلت: «ماذا بحق السماء...؟».

«قصة طويلة، يُسعدني أن أحكيها لك ونحن نتناول إفطارًا مُتأخرًا، أتمنى أن بإمكانك البقاء».

أومأت برأسي، فقال بمرح مُبتهج: «رائع».

لم يكن في أسلوبه أي أثر للمرارة الجافة التي تلقَّاني بها المرة السابقة.

«فلتهبط إلى السيدة هودسون وتطلب منها إعداد القهوة وخبز مُحمص وبيض مسلوق من أجل شخصين، إذا تكرَّمت. إن كنت أعرفها جيدًا فهي تقوم الآن بالمهمة بالفعل. في هذه الأثناء سأتخلص من تنكري في هذا الشخص العجوز وسأستحم وأحلق ذقني، ستكون وجبتنا جاهزة، وحينها سوف أحكي لك تفاصيل مُغامرتي الأخيرة».

ربت على كتفي برفق ثم توجه ليختفي في غُرفة نومه، لم أكن واثقًا في حينها ولكن خُيِّل لي أنه يعرج.

بعد خمس عشرة دقيقة كنت أجلس أمام النسخة المهندمة الحليقة المألوفة من شيرلوك هولمز، كان يرتدي أحد أروابه ويدخن غليونه الخزفي القديم. كانت القهوة والخبز المحمص والبيض أمامنا، لم نلمسهم بعد.

«هل سمعت عن بيضة الفيل؟».

تردد صدى الجملة في أروقة ذاكرتي، رُغم غرابة الجملة إلا أنني قد سمعت بها من قبل، ولكني لم أستطع أن أتذكر السياق، هززت رأسي نافيًا.

«إنها واحدة من كبرى الياقوتات في العالم، إن لم تكن الكبرى على الإطلاق، ولهذا تحمل هذا الاسم الخيالي، إنها ملك راجا كاليبور».

قلت وقد تذكَّرت الآن: «آه نعم، إنه يُرسل الحجر كهدية إلى الملكة».

«بالفعل، تحية إلى فيكتوريا إمبراطورة الهند. تُقدَّر قيمة الحجر بقرابة مليوني جنيه».

أطلقت صفيرًا خافتًا وقلت: «هدية رائعة للغاية بالفعل».

«لقد نمى إلى علمي أن هناك شخصًا ينوي سرقة بيضة الفيل بمجرد وصولها إلى شاطئ البلاد».

تجمَّدت عند سماع هذه الكلمات، أنا أعرف أن هناك مُجرمًا واحدًا لديه ما يكفي من الجرأة والجسارة ليرتكب مثل هذه السرقة؛ بروفيسور موريارتي. ووحده شيرلوك هولمز بارع وحاذق بما يكفي ليوقفه. لهذا أُرسلت إلى هنا، لأتدخل في تحقيقات هولمز، لأُضلله.

لا أستطيع التعبير بما يكفي عن المشاعر المختلطة التي أحسست بها وأنا أسمع شيرلوك هولمز ووجهه مُكلل بابتسامة رائعة وهو يتحدث عن الخطر الذي يُهدد هذه الياقوتة الثمينة. كنت مُبتهجًا لأن صعوبة هذه القضية قد حفَّزت صديقي كثيرًا ليصير نفسه مُجددًا، هولمز القديم، المُشاغب مُتقلب المزاج، لقد صار كلب صيد مُتحمسًا مُجددًا. على الجانب الآخر أدركت أنه في هذه القضية بالذات على وشك أن يواجه أعظم -والأهم- أخطر مُجرم عبقري في هذا العصر.

وكنت أنا مُقيدًا بمشيئته بينما ولائي الحقيقي يكمن في مكانٍ آخر. رأيت نفسي كمهرطق من القرون الوسطى قد رُبط إلى أربعة أحصنة ليُمزَّق إربًا من أجل خيانته. في هذه اللحظة أدركت أنه أيًّا كانت العواقب فسيكون عليَّ أن أختار، من أجل سلامتي العقلية، من أجل حب ماري، ومن أجل الرجل الوحيد الذي يُمكن أن أُسميه صديقًا حقيقيًّا. حتى هذه اللحظة لم يخضع ولائي لهولمز إلى الاختبار قط، لقد كنت أرسل تقارير عن أعماله التحقيقية بالفعل، ولكني لم أتدخل فيها لأي سبب. الآن أنا أعرف أنني لا أستطيع، والأهم أنني لن أفعل.

قلت بهدوء محاولًا بقدر المُستطاع ألا أكشف عن انفعالي: «كيف تعرف بشأن كل هذا؟».

لوح هولمز بذراعيه كفراشة شاردة وقال: «لديَّ أساليبي». ثم مال للوراء وترك حلقات الدخان تُحلِّق نحو السقف، قبل أن يقول: «إن مهمة المُحقق هي أن يعرف أشياء عديدة، وأن يظل مواكبًا لأحدث المعلومات في عالم الجريمة، في الأسبوعين الماضيين لقي اثنان من الصاغة مصرعهما بشكلٍ

مُفاجئ، حادثة موت مريبة، وحادثة انتحار، وهي ما تكون بدورها دومًا حادثة موت مريبة».

«اثنان من الصاغة؟».

«خبيران في مجالهما، ليس فقط في الحكم على جودة وثمن الأحجار الكريمة، ولكن في قطع وتشكيل مثل هذه الأحجار».

«ما علاقة هذا ببيضة الفيل؟».

«كل شيء! أنا أعتقد أن هذين الرجلين قد تعرَّضا للقتل».

«لماذا؟».

«لقد كنتَ دومًا جيدًا في طرح مثل هذه الأسئلة، إن هذا التساؤل الدقيق هو واحد من أفضل مزاياك. لماذا بالفعل؟ إن هذين الرجلين -لا يهم اسماهما- كانا خبيرين في قطع الأحجار الكبيرة -المجوهرات، العقيق، الياقوت- إلى أجزاء أصغر، إذا أردت أن تسرق كتلة حمراء كبيرة بحجم ياقوتة الراجا فسترغب في قطعها إلى قطعٍ صغيرة، التي ستجمع عند بيعها مقدارًا من المال يساوي ثمن البيضة الكبيرة. سيكون من المستحيل إلى حدٍ كبير بيع الحجر الأصلي، ولكن سيكون من السهل بيع الأحجار الصغيرة الثمينة».

كان المنطق واضحًا، وكنت واثقًا أن هولمز مُحق.

«لقد قُتِلا بشكلٍ أخرق ومُتعجل، إن المُصادفة كبيرة بشكلٍ لا يُمكن تجاهله، هناك حجر كبير ضخم على وشك أن يصل إلى هذه الدولة، وسيوضع في العرض، طعم كافٍ لأكثر اللصوص طمعًا وذكاءً، وهذان الرجلان اللذان كانا قادرين على... تقطيع الحجر ليسهل التخلص منه قد تم التخلص منهما».

«ولكن لمَ القتل؟ إن كان ما تقوله صحيح فهذان الصائغان سيكونان مفيدين لهذا اللص المُفترض».

«هذا إن وافقا على ما يطلبه. لا يزال هناك بعض الشرفاء في مجتمعنا، الذين سيقاومون إغواء كسر القانون مهما كانت العواقب. ولكن ما إن يتواصل معهما لصنا المحترف ويرفضان فإنه لا يستطيع أن يتركهما على قيد الحياة». ثم مرر هولمز سبابته على عنقه.

ارتجفت، ليس فقط بسبب الصورة البشعة التي ارتسمت في ذهني، ولكن لأنني أعرف أيضًا أنه مُحق. لن يشعر موريارتي بأدنى وخز في الضمير للتخلص من هذين الصائغين اللذين رفضا التعامل معه. إن موريارتي رجل مُتحجر المشاعر، لا يشعر بأي عاطفة تجاه الآخرين، ولا أي تقدير لحياتهم، نحن جميعًا مُجرد بيادق على لوحة شطرنجه الكبيرة، ويمكن أن يتخلص منا في أي وقت ليجعل لعبته أفضل.

«لقد حققت في هاتين الجريمتين. سكوتلاند يارد بقصر نظرهم المعتاد لم يروا أي شيء مثير للريبة في موت الرجلين، ولكني جمعت ما يكفي من الأدلة لأقتنع أنني كنت مُحقًّا. كانت خطوتي التالية هي أن أعرف عدد الصاغة في المدينة المحترفين بما يكفي لأداء هذه العملية المتخصصة، للمفاجأة لم يكن هناك الكثيرون، ولكن اسمًا واحدًا جذب انتباهي أكثر من البقية؛ باتريك جريفز».

لم يعنِ الاسم أي شيء لي.

«لقد كان متورطًا في فضيحة تزييف منذ بضع سنوات، مسألة متعلقة بعقد ألماسي، لم يكن كل حجر فيه مزيفًا ولهذا كان من السهل إقناع المشترين الغافلين أنها جميعًا أحجار أصلية. لقد استطاع أن يبيع ثلاثة عقود بثمن مجموعة واحدة من الأحجار. ربح كبير عندما تتعامل مع سلع قيمة الواحدة منها خمسون ألف جنيه. كانت له علاقات أرستقراطية ومحامٍ جيد، لذا لم تثبت إدانته. لا أحتاج أن أقول المزيد عن القضاء البريطاني».

«إن كان هذا الرجل جريفز كما تقول له ميول إجرامية فلمَ لم يتواصل معه أولًا هذا الـ... الـ...؟».

قال هولمز مُكملًا جُملتي: «اللص المحترف».

أومأت برأسي.

«أنا لست واثقًا، ربما لا يجب على اللص أن يوظف لصًّا، لا يوجد شرف بين اللصوص، ولكن بعد الفشل مع رجلين شريفين يبدو لي أن جريفز هو المرشح التالي المحتمل. منذ ليلتين ذهبت إلى منزله في تشيسويك، وكنت هناك في الوقت المناسب لأشهد اختطافه، أو لأكون أكثر دقة كنت هناك في الوقت المُناسب لمنع اختطافه، ولكني فشلت. لقد كنت وحدي، وكان هناك ثلاثة منهم.. وكانوا مفتولي العضلات أيضًا».

«كان يجب أن أكون معك!». نطقت بهذه الكلمات دون تفكير، ثم ندمت على تلفظي بها على الفور.

ابتسم هولمز ابتسامة شاحبة وقال: «ربما كان يجب عليك هذا. ربما كنت لتحميني من تلقي ضربة على مؤخرة عنقي، وطعنة سيئة في ساقي».

«بحق السماء! دعني أرى الجرح. ما مدى سوئه؟».

«الجرح عميق للغاية، ولكنه لم يقطع أي شريان، لقد خطته بنفسي بطريقة غير محترفة ولكنها مقبولة، سوف يلتئم مع الوقت».

«لمَ لم تأتِ إليَّ من أجل العلاج؟».

تجاهل هولمز سؤالي ثم اعتدل واقفًا وسار ناحية النافذة لينظر خارجها. «هذه أوقات خطرة يا واطسون، أنا أعرف أنني مُراقَب، لهذا رأيتني مُتنكرًا منذ قليل، أنا لا أترك البيت دون تقمص شخصية أُخرى غير شخصيتي. إني أشعر أن حياتي في خطر أكثر من أي وقتٍ مضى».

«أي نوعٍ من الخطر؟».

قال ببطء: «حسنًا، أعتقد أنك تعرف يا صديقي».

هززت رأسي وقلت: «أنا لا أعرف ما تعنيه».

أشار لي بيده لكي أقترب من النافذة ثم قال: «هل ترى هذا الرجل بالأسفل هناك؟ هذا الرجل الذي يرتدي قبعة بنية ومعطفًا رماديًّا؟».

«أجل».

«إنه رجل آخر من رجال موريارتي، إنه هنا لمُراقبتي».

«رجال موريارتي...؟».

وجدت نفسي أُكرر الجُملة ببلاهة والخوف يعتصر معدتي.

ابتسم هولمز لي ابتسامة مريرة وقال: «بروفيسور جيمس موريارتي، أعظم المجرمين في مدينة لندن. إنه معتاد على توظيف الرجال للتجسس على الناس كما تعرف جيدًا».

ما إن تركت الكلمات شفتيه حتى رأيت قبضته تقترب مني. كان التصرف فوريًّا ومُفاجئًا للغاية، حتى إنني ظللت مُتجمدًا في موضعي. ارتطمت قبضته بفكي بقوة عظيمة فانفجر رأسي بألم حاد وضوء باهر مثير للدوار. تعثرت للوراء وأحسست بالضعف في رُكبتيّ فوجدت نفسي أسقط على الأرض.

عندما صفا ذهني رأيت هولمز يقف فوقي بتعبير غريب على وجهه، ضحك ضحكة قصيرة ثم مال للأمام ومد لي يده ليجذبني كي أقف على قدميّ، ثم قال: «لقد كان هذا مُرضيًا للغاية؟ كنت أرغب في فعل هذا منذ وقتٍ طويل».

كنت أشعر بالدوار بسبب الضربة وتصرف هولمز المثير للحيرة، ألقيت بجسدي على الكرسي بجانب المدفأة وأنا أفرك ذقني، حينها فقط أدركت المعنى الكامل لتصرفاته.

قلت: «بحق السماء، أنت تعرف!».

«أجل يا واطسون، أنا أعرف، أعرف كل شيء على الأرجح، أعرف أن اسمك الحقيقي هو ووكر، وأعرف أنك قد طُردت من الجيش بسبب شُرب الخمر، وأعرف أنك موظف أجير لدى البروفيسور جيمس موريارتي منذ عودتك إلى هذه البلدة. يا صديقي العزيز أنا بالتأكيد لم أكن لأسكن في بيت مع شخصٍ لا أعرف عنه أي شيء على الإطلاق، لقد أجريت بعض التحريات وسُرعان ما اكتشفت هويتك الحقيقية، لم يكن هذا صعبًا للغاية، لقد كنت أجمع ملفًا عن موريارتي لبعض الوقت، كما يفعل هو بلا شك. عندما اكتشفت أنك كنت بصُحبته قبل لقائنا بوقتٍ قليل كان استنتاجًا بسيطًا. من الواضح أنك كنت جاسوسًا في معسكره».

هززت رأسي بعدم تصديقٍ وقلت: «ومع ذلك مضيت قدمًا في الترتيبات؟».

ضحك وقال: «لقد أحسست بالإطراء لأنني استحققت كل هذا الاهتمام، كما أنني أُعجبت بك، لقد بدوت رجلًا صالحًا، وفكَّرت أنه سيكون من الممتع لعب القط والفأر مع كليكما».

«إذن فقد كنت تعرف طيلة هذا الوقت؟!».

«بالطبع كنت أعرف، أي مُحقق سأكونه إن لم أستطع معرفة أن الرجل الذي أتشارك السكن معه هو موظف لدى أقوى مُجرم في المدينة؟».

«إذن فلا شك أنك تعرف أنه لم يكن لي خيار في هذا الأمر».

«القليل يحظون باختيار عندما يتعلَّق الأمر بالبروفيسور. أجل لقد عرفت، لم أكن لأستطيع تحمل وجودك إن كنت أظن أنك قد قبلت هذا الاتفاق بإرادتك».

«لمَ تُخبرني بكل هذا الآن؟».

«لأننا قد وصلنا إلى آخر فصل في ملحمتنا يا واطسون. لقد حان الوقت لتدمير البروفيسور جيمس موريارتي ومنظمته مرة واحدة وإلى الأبد».

«إنه قوي للغاية هذا غير ممكن».

«كل الأشياء ممُكنة مع التخطيط والتدبير الدقيق، أنا أُقدم لك هذه الفرصة لكي تنضم إليَّ الآن لتحرير لندن من قبضة هذا الرجل، وتحرير حياتك أيضًا».

خفق قلبي لهذا الاحتمال الذي يصفه هولمز، كان كالسراب، وهم رائع سيتلاشى إذا مددت يدك لتلمسه، أن أكون حرًّا، حرًّا حقًّا، من هذا الخطر المظلم الذي يُخيم على حياتي منذ هذا اللقاء المشؤوم في ملهى رييد. بدا كحُلم سعيد يفوق واقع النهار.

«كيف يُمكنك أن تثق بي؟».

«كل ما أحتاجه هو كلمتك».

ابتسمت وقلت: «لا أحتاج وقتًا للتفكير، سأُساعدك. سأُعطيك كلمتي، ولكني أرى أننا سنخسر المعركة. إن موريارتي قوي للغاية كما قلت، وله أعين وآذان في كل مكان».

«أنا أُدرك هذا جيدًا، ولهذا يجب ألا نثق في أي شخص، وأنا أعني أي شخص، ولا حتى رجال سكوتلاند يارد، مثل ليستريد وجريجسون، ولا حتى حبيبتك ماري، نحن لسنا واثقين مَن في مأمن من قبضة موريارتي».

«ولكن ماري...».

«لا شكَّ أنها سوف تقول المثل عنك، ولكنها ستكون مُخطئة، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي ببطء، كانت الفكرة بغيضة ولكني أدركت أن هذا ممكن.

«عندما تكون لدينا قضيتنا فهناك رجل في اليارد سيُساعدنا على حسم الأمر، ولكن في الوقت الراهن لا يُمكننا أن نثق إلا في أحدنا الآخر، هل هذا مفهوم؟».

تمتمت قائلًا وعقلي يموج بالأفكار: «أجل».

«لا تقلق يا واطسون، أنا لم أكن لأورطك في هذه اللعبة الخطيرة ما لم أكن واثقًا أن النتيجة آمنة. يجب أن تثق فيّ، ويجب ألا تتذبذب تصرفاتك، وإلا فسنخسر جميعًا».

أومأت برأسي واستطعت أن أبتسم نصف ابتسامة.

قال وهو يشعل غليونه ويجلس قُبالتي: «أحسنت، والآن أعتقد أنه من الأفضل أن أضعك في الصورة كاملة. دعني أُخبرك أولًا كيف استطعت الهرب من المجرمين الذين كانوا يختطفون باتريك جريفز».

بينما هولمز يجذب نفسه عبر إطار النافذة اندفع أحد المهاجمين ناحيته وطعنه في ساقه، صرخ هولمز في ألم وهو ينتزع نفسه من مُهاجمه، وفجأة وجد نفسه يهوي في الفراغ المُظلم.

تجاهل هولمز ألم جُرحه وهو يثني جسده ويوجهه ناحية الشجرة أسفله. سقط بجسده مفرودًا على أغصانها وفيرة الأوراق، لقد خفَّفت من سقوطه ولكنه استقرَّ عليها بشكلٍ مؤقت، فالشجرة لم تستطع تحمل وزنه وسقط بطريقة خرقاء على أرض الحديقة. في لحظاتٍ كهذه تكون قدرة هولمز على التفكير والتصرف بسرعة استثنائية. كان يعرف أنه لو بقي في موضعه فإن هؤلاء المعتدين سيمسكون به وعلى الأرجح سيقتلونه، وإذا هرب فكل الجهود التي بذلها هذه الليلة ستضيع هباءً، يجب أن يكون هناك حل وسط. اعتدل واقفًا على قدميه وهو يجز على أسنانه وجُرح ساقه يصرخ في ألم. ركض بأسرع ما يستطيع ناحية جدار الحديقة وقفز من فوقه إلى الرصيف. ربض وراء جذع شجرة بلوط ضخمة بجوار الرصيف. على الجانب الآخر من الشارع رأى عربة نقل، بدا أن السائق ينظر إلى البيت بترقب، ظهر اثنان من المعتدين في الحديقة، أحدهما يلوح بمصباح زيتي حوله.

صاح أحد الرجلين: «لقد هرب».

أجابه الآخر: «أجل، دعك منه، فلنأخذ هذا اللعين ونرحل قبل أن يستيقظ الحيُّ بأكمله».

ظهر الرجل الثالث عند الباب وهو يضع حِملًا كبيرًا على كتفه ملفوفًا ببطانية رمادية، كان الحِمل هو باتريك جريفز. نفخ الرجل في صفارة فضية فاقترب السائق بعربة النقل من البوابة. وُضِع جريفز بالداخل وتبعه رجلان أما الثالث الذي كان من الواضح أنه قائدهم فقد قفز بجوار السائق.

صاح: «هيا بنا». ثم بدأت العربة في الحركة.

خرج هولمز من مخبئه وركض وراء العربة. بعزيمة حديدية تجاهل الألم الحارق في ساقه وتشبث بواحد من القضبان المعدنية في الخلف، ثم جذب نفسه للأمام واستطاع أن يجد لنفسه موضع قدم في مؤخرة العربة. بمهارة مُذهلة بالنسبة لرجلٍ مُصاب كان قادرًا على أن يستقر رابضًا في مؤخرة

العربة مُتعلَقًا في وضع غير مستقر والعربة تزداد سُرعتها. بهذه الطريقة ارتحل مع المختطفين عبر شوارع لندن المُظلمة والمتعرجة.

رُغم محدودية مجال نظره إلا أن معرفة هولمز الموسوعية للندن جعلته يستنتج الاتجاه الذي يرتحلون فيه، أنبأته كل العلامات أنهم يتجهون ناحية روثرهايت، تشبَّث المُحقق خوفًا على حياته والعربة تتمايل وتهتز في طريقها إلى الشرق.

بعد عشرين دقيقة تقريبًا صارت الطرق أكثر ضيقًا وظلامًا، وأصبحت مصابيح الطرق الزيتية أقل عددًا. إنهم الآن بالقرب من موانئ غرب الهند. كانت المنطقة عبارة عن مخازن وأرصفة ضخمة وشوارع ساكنة مهجورة. ثم أبطأت حركة العربة وهم يقتربون من بوابات مخزنٍ ما ضخم. سمع هولمز أحد الرجال ينفخ في صفارته أربع مرات فأطل من جانب العربة ليرى البوابات قد بدأت تُفتح. الآن عليه أن يُفكر بسرعة، يجب أن يتخذ قرارًا؛ هل يقفز من العربة قبل أن يصير مُحتجزًا أم يُغامر بالدخول ليواجه المجهول؟ كان واثقًا أنه ما إن يصير داخل المخزن فإنه سيكون قادرًا على اكتشاف المزيد بخصوص خطة موريارتي لسرقة بيضة الفيل. كان الخطر بالطبع هو أنه سيصير مُحتجزًا بالداخل، مما يجعل هذه المعرفة بلا فائدة. في مواقف كهذه وقلبه يخفق والأدرينالين يتدفق في عروقه ينصاع هولمز للعاطفة بدلًا من التفكير العقلاني. لقد بقي مع العربة.

دلفت العربة إلى المستودع الشاسع الذي يبدو فارغًا، كاتدرائية صناعية ضخمة بسقفٍ محدب مرتفع، ردد صدى جلبة عجلات العربة. من بعيد رأى هولمز مجموعة من الرجال، بعضهم يحملون مصابيح، لجنة الاستقبال. قفز هولمز من مخبئه برشاقة واختبأ في الظلال وراء كومة من صناديق التعبئة بجانب الجدار، وانتظر. كان بالداخل وبمأمن مؤقت، ثم أُغلقت أبواب المستودع بصوت قعقعة تردد صداها. إنه بالداخل ولكنه محتجز.

أُنزل جريفز فاقد الوعي من العربة بطريقة فظَّة، ومجموعة الرجال الذين كان عددهم ثلاثة يقتربون، تعرَّف هولمز على واحد منهم؛ سكولر، أحد مُساعدي موريارتي، بدا أنه من يتولى زمام الأمور.

سأل وهو يُشير ناحية جريفز: «هل أحضرتم الرجل المطلوب؟».

قال قائد المختطفين؛ الرجل الذي ضرب هولمز من الخلف: «لقد أحضرناه، إنه مُخدَّر الآن، لم يحصل سوى على بعض قطرات من الكلوروفورم، سوف يكون بخير خلال وقتٍ قصير».

سأله سكولر بوجهٍ خَالٍ من المشاعر: «هل واجهتكم أيُّ مُشكلات؟».

«قليلًا، لقد حاول أحدهم أن يتدخل».

قال آخر: «أجل، قال إنه يُدعى شيرلوك هولمز».

ضيق سكولر عينيه وهو يقول: «ماذا حدث؟».

«لقد أبرحناه ضربًا، ولكنه قد هرب».

«أيها الحمقى، كان يجب أن تخرسوه».

«لقد كان رجلًا مراوغًا للغاية».

«لقد كنتم أنتم الثلاثة».

صمت الرجلان قليلًا إثر ملحوظة سكولر، ثم قال قائدهم: «ولكن كان لدينا جريفز لنتعامل معه أيضًا، ولقد أحضرناه من أجلك».

أومأ سكولر برأسه ثم التفت إلى زميليه وقال: «ماكسويل، أنت ستتولى أمر السيد جريفز، وجينسون، فلتُعطهم أجرهم، واحرص على أن يغادروا المكان بسرعة».

ثم نظر إلى سائق العربة وقال: «أعدهم إلى المدينة وأنزلهم في مكانٍ هادئ».

حمل أكبر الرجلين جسد جريفز المرتخي على كتفه كسجادة مطوية. تلقَّى المختطفون نقودهم وفي غضون دقائق غادرت العربة حاملة ركابها الثلاثة معها.

حمل سكولر المصباح وشقَّ طريقه عائدًا إلى الجانب الآخر من المخزن يصحبه رفيقاه وأحدهما يحمل باتريك جريفز.

لحق بهم شيرلوك هولمز عن بُعد، مُلتصقًا بجانب المبنى خارج نطاق أشعة ضوء المصباح الضعيفة.

توقَّف الرجال وفجأة اندفع عمود ضوء أصفر من أرضية المخزن مُضيئًا عوارض السقف، انبطح هولمز أرضًا ورأى أن سكولر قد فتح بابًا سريًّا،

وكان الضوء ينبعث منه. دون أدنى كلمة اختفى الرجال عن نظره، ثم اختفى الضوء فجأة كما ظهر فجأة والباب السري ينغلق. تُرك المُحقق وحده في هذا الضوء القاتم والسكون، بدا الأمر كأنه كان يُشاهد مسرحية ظل غريبة والآن قد انتهى العرض، ولكنه قال لنفسه إن العرض لم ينتهِ بعد، هذا مجرد فاصل، لقد وصل إلى هذا الحد، من العبث أن يستسلم الآن. كان يعرف أنه لم يكن من قبل بمثل هذا القرب من بروفيسور موريارتي، وكان عازمًا على أن يقترب أكثر. في مكانٍ ما أعلاه كان هناك خفاش قد أزعجه الضوء المُفاجئ من عارضٍ إلى آخر، ثم استقر مُجددًا.

بعد خمس دقائق، اعتدل شيرلوك هولمز واقفًا على قدميه بعدما اعتادت عيناه على الظلام الذي خفَّف منه ضوء القمر، الذي كان يتسلل بصعوبة عبر السخام المتراكم على صف من النوافذ موضوعة على الجدار بالقرب من السقف. كانت ساقه لا تزال تؤلمه واستطاع أن يشعر بالدماء الساخنة وهي تنساب عبر بنطاله، ولكنه تجاهلها، يجب عليه أن يتجاهلها، كانت هناك أمور أخطر تشغل انتباهه في الوقت الحالي. ببطء اقترب من الباب الخفي وقلبه يكاد يقفز من حلقه، وبرفقٍ جذب الحلقة التي ترفع الباب. مُجددًا تسلل الضوء الأصفر إلى داخل المخزن، رأى أن هناك سُلَّمًا يقود إلى الأسفل، إلى ما بدا أنه ممر ضيق، لاحظ هولمز لدهشته أنه كان مُغطى بسجادٍ باهظ.

تسلل هولمز عبر الفتحة ثم أغلق الباب وراءه برفق، لقد صار الآن مُحتجزًا في عرين أخطر مجرمي لندن، ولقد دلف إلى الفخ بنفسه. بابتسامة باهتة واصل هبوط الدرج.

في نهايته أصغى السمع لأي صوت، لم يكن هناك أي صوت بشكلٍ ملحوظ، صمت مُطبق فقط. سار عبر الممر وسُرعان ما وجد نفسه أمام بابين؛ أحدهما أمامه مُباشرة، والآخر على يمينه، والذي كان ضعف الباب الأول مرتين. فتح الباب الكبير قليلًا بحذر فاكتشف أنه يؤدي إلى مصعد، قفص معدني على أُهبة الاستعداد ليأخذ من يستقله إلى أسفل، الله وحده يعلم إلى أين. رُغم تهوره حتى هذه اللحظة إلا أنه بالتأكيد لن يُغامر بأن يستقل مصعدًا، وخصيصًا في عرين موريارتي.

جرَّب الباب الآخر، الذي كان يؤدي إلى بهوٍ آخر قصير يبدو كردهة، وفيه نهايته باب، ما إن بدأ يفتح هذا الباب حتى سمع أصواتًا، توقَّف واختلس النظر من خلال الشق الذي صنعه، كان ينظر إلى أسفل، إلى غُرفة مذهلة مُرتفعة، مؤثثة بشكلٍ رائع ومُضاءة بالكهرباء. كان الباب حسبما يرى يؤدي إلى شُرفة تعلو الغُرفة، كانت الشُّرفة تمتد على طول الجدران الأربعة

ومليئة بالأرفف التي تحمل عددًا ضخمًا من الكتب. بالأسفل كان هناك رجلان يتحدثان بصوتٍ مُنخفض. انحنى هولمز أرضًا وتسلل عبر الباب ثم انبطح أرضًا، وهو يجذب نفسه للأمام بحذر بما يكفي لكي يرى المشهد بالأسفل.

من موضعه بالأعلى كان هولمز يحظى برؤية ممتازة إلى الغُرفة والرجلين الموجودين بها. تعرَّف على أحد الرجلين على الفور، كان العقيد سباستيان موران، الرجل الثاني بعد موريارتي. تفحَّص هولمز الرجل الثاني بدقة، كان رجلًا طويلًا بملامح ساخرة حادة وفم قاسٍ وشعر أسود جامح. كانت تحيط به هالة من القوة والسلطة، بدا من الواضح لهولمز أن هذا هو البروفيسور جيمس موريارتي، نابليون الجريمة. لقد صار في حضرته أخيرًا. اجتاح جسده إحساس بالإثارة، ها هو ذا توأمه المظلم، رجل شغوف بارتكاب الجريمة، كشغف هولمز بحلها. تحوَّلت الإثارة إلى قلق وشك، كأنه قد أدرك الآن فقط خطورة موقفه، لقد كان بارعًا بما يكفي ليتعقَّب الشيطان إلى عرينه، ولكنه سيحتاج إلى أن يكون أكثر براعة ليُغادر دون أن يُفتضح أمره. نحَّى هذه الأفكار جانبًا عن عقله، سيُفكر في حل هذه المشكلة لاحقًا. اقترب أكثر من حافة الشرفة وأصغى السمع بدقة ليلتقط ما يقوله الرجلان.

كان موريارتي متكئًا بلا اكتراث إلى رف المدفأة بينما موران يتحرك جيئة وذهابًا أمامه.

كان موران يقول: «أنا لست سعيدًا على الإطلاق بظهور هولمز الليلة».

أجابه البروفيسور بنبرة هادئة: «ولا أنا، ولكني سأفعل ما يلزم لمنع تدخله مرة أخرى في خططي، يجب أن نستعين بواطسون مُجددًا، وإن فشل هذا فيُمكنني ببساطة أن أتخلص بنفسي من هذا الصداع مرة واحدة وإلى الأبد».

«ألن يكون من الأفضل أن نفعل هذا على الفور؟».

«ربما، ولكن عقلي مشغول بعملية بيضة الفيل في الوقت الحالي، ولا أُحبذ أن أُشتت نفسي بالتفكير في نهاية مُناسبة للسيد شيرلوك هولمز».

أومأ موران برأسه، كان يعرف أنه من الأفضل ألا يحاول إقناع سيده بعكس هذا.

واصل موريارتي الحديث كأنما يُفكر بصوتٍ مرتفع: «كل شيء يجري حسب الخطة من ناحية الهند، رجلنا مُستعد ليحل محل مبعوث الراجا على متن السفينة، إنه بديل مناسب قد أعددناه بدقة بالغة، رييد يشرف على هذا، لذا

عندما تصل السفينة إلى إنجلترا لن يكون المبعوث وحده مُزيفًا، بل الياقوتة أيضًا، لن يجرؤ أحد على فحصها عن قُرب، سيكون من الوقاحة فحص هدية كهذه. لن يُدرك أحد أنها مُجرد قطعة مُقنعة من الزجاج الأحمر. سوف تُقدَّم إلى الملكة في احتفالية خاصة في قصر وندسور بعدها سوف توضع في المخازن هناك مع كل التحف الأُخرى التي اقتنتها الملكة أثناء فترة حُكمها. من غير المحتمل أن أحدًا سيراها مُجددًا، على الأقل لبعض الوقت، في هذه الأثناء سننال نحن شرف الربح من هذه البيضة جزيلة العطاء». سمح موريارتي لنفسه أن يبتسم ابتسامة قصيرة.

«هذا إن كان جريفز مُستعدًّا للتعاون».

«سوف يتعاون يا موران، سوف يتعاون. لقد أضعنا وقتًا طويلًا مع هذين الصائغين العنيدين. سيفعل ما أطلبه منه.. حتى لو اضطررت لاستخدام القوة».

في هذه اللحظة فُتح الباب ودلف منه سكولر يصحبه باتريك جريفز، الذي يبدو دائخًا، اقتاد سكولر الصائغ إلى الأريكة بجانب النار، ثم قال: «لقد استفاق رجلنا».

ابتسم موريارتي وقال: «جيد، أكرم ضيفنا يا موران وأعطه كأسًا مُنعشًا من البراندي».

فعل موران ما قيل له، فأخذ جريفز كأس البراندي وتجرعه في جشع دفعة واحدة، فانتابته نوبة من السعال. انتظر الرجال الثلاثة الآخرون بصبر كالتماثيل حتى انتهى.

قال موريارتي وهو يقترب من الأريكة: «لديَّ شيء من أجلك يا سيد جريفز، عرض قد تربح منه مبلغًا كبيرًا من المال، أو سيؤدي لفقدانك واحدًا من أطرافك على الأقل».

امتقع وجه جريفز الذي كان شاحبًا بالفعل من قسوة هذه الكلمات، سأل أخيرًا بنبرة مترددة: «هل لديَّ خيار؟». لم يكن صوته أكثر من همس جاف.

«بالطبع لديك».

ابتسم جريفز بمكر وقال: «إذن سأُفضل اختيار المال».

ضحك موريارتي بطريقة مسرحية، ورفيقاه يحدقان إلى جريفز بنظرات جامدة، ثم قال: «تُعجبني طريقتك في التفكير».

رفع جريفز كأسه كشحَّاذ وقال: «هل من الممكن أن أحصل على كأس آخر من البراندي؟».

«أعطِ صديقنا المزيد من الشراب يا موران، وأنت يا سكولر فلتحرص على أن يحصل على قسط جيد من النوم هذه الليلة. يُمكننا أن نناقش التفاصيل في الصباح، لا أعتقد أننا يجب أن نقلق، أنا واثق أن السيد جريفز سيكون متعاونًا كما نتمنى».

قال جريفز موافقًا: «بالتأكيد أيها السادة». قبل أن يأخذ جُرعة أُخرى من البراندي من كأسه الذي مُلِئ مُجددًا.

كان شيرلوك هولمز بالأعلى يُشاهد هذه الدراما، ثم قرر أنه قد سمع ما يكفي في الوقت الحالي، وسيكون من الأفضل أن يُبادر بالهرب. بحرص لا مُتناهٍ عاد أدراجه عبر البابين والممر الطويل ثم صعد السلم الخشبي. توقّف أسفل الباب الخفي وأصغى السمع لأي صوت أو حركة، لم يستطع أن يسمع أي شيء. دفع الباب لأعلى بما يكفي لكي يستكشف المخزن، الذي بدا فارغًا ومهجورًا كما تركه. أحس بقلبه يخفق في سعادة وهو يسحب جسده عبر الباب.

ما إن وقف على قدميه حتى أحس بذراع تُحيط بعنقه وصوت أجش يقول بغضب في أُذنه: «ما الذي تظن أنك تفعله بحق الجحيم؟».

أدار هولمز رأسه لينظر إلى مُهاجمه، لقد كان سائق العربة، وقد عاد من رحلته. بسرعة ومهارة شديدين، أمسك هولمز بذراع الرجل، واضعًا كل ثقله في قدمه السليمة، ثم رفع الرجل من فوق كتفه. لقد كانت حركة باريتسو* تدرب عليها كثيرًا. ارتفع الرجل في الهواء كأنه دُمية قماشية قبل أن يسقط على ظهره بشكلٍ مؤلم على بُعد ثلاث أقدام من المُحقق. صرخ الرجل في ألم، وقبل أن يكون قادرًا على أن يقف مُجددًا على قدميه اعتلى هولمز جسده ووجه لكمة خطافية يُمنى قوية إلى ذقنه، سقط رأس السائق إلى الوراء وقد أغلق عينيه وفغر فاه. لم يستطع هولمز منع نفسه من الابتسام في سعادة لقوته ومهاراته الخاصة. راح يُفتش ملابس الرجل حتى عثر على ما كان يبحث عنه؛ مفتاح باب المخزن.

في غضون خمس دقائق كان شيرلوك هولمز يعرج بشكلٍ سيء على بُعد ثلاثة شوارع من مخزن موريارتي. وبعد نصف ساعة كان في عربة أجرة في طريقه عائدًا إلى شارع بيكر.

---

* أحد الفنون القتالية البريطانية.

## -٢٦-

## من مذكرات جون هـ. واطسون

أصغيت برُعب متزايد إلى حكاية هولمز، كنت أعرف أنه لا يُبالي بالخطر الذي يضع نفسه فيه بمواصلة خطته للتغلب على موريارتي والإطاحة به وبمنظمته، ولكني تساءلت إن كان يُدرك أنه بفعل هذا كان يضعني أنا وزوجتي في خطر عظيم أيضًا.

لا شكَّ أن خوفي قد انعكس على ملامحي المُتجهمة، فلقد مال هولمز للأمام وربَّت على كتفي قبل أن يقول وعيناه تبرقان في حزم: «لا تقلق، لن ينتصر موريارتي، أعدك بهذا».

كان يحاول طمأنتي ولكني لم أشعر بالاطمئنان، كنت أعرف عن تجربة قوة موريارتي ومدى ضخامة منظمته، وإلى أي مدى يمتد نفوذه عبر هذه المدينة العظيمة، لم يكن هناك أي ركن أو شق مظلم لا يستطيع رجاله الوصول إليه. إنه سيد الدُّمى بلا منازع، إنه يتحكم في العديدين الذين كانوا رهن إشارته في كل ساعة من النهار أو الليل. ليس لدى هولمز منظمة كهذه، إنه مُجرد رجل واحد، داوود يتحدى جالوت المُخيف، مهما كانت عبقرية صديقي فإن الاحتمالات كلها مُجتمعة ضده.

سألته: «ما الذي تنوي فعله الآن؟».

«هناك رجل في اليارد أعمل معه على قضية موريارتي، المُحقق باترسون. إنه الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أثق به، ورُغم هذا أخفيت بعض التفاصيل عنه، ومع ذلك يجب أن أُخبره بخطة موريارتي لتبديل كل من مبعوث الراجا والحجر نفسه. من المُفترض أن يكون المبعوث هنا في نهاية الأسبوع التالي، يجب أن نحميه. بالتعاون مع الشرطة الهندية سيكون من السهل إلقاء القبض على صديقك المُتبجح ريبد، الآن وقد عرفنا نواياه. سوف تُفسد خطة موريارتي قبل أن تصل السفينة إلى إنجلترا. لو لم يفت الأوان بعد سأقترح نقل الحجر إلى هذه الدولة سرًّا عبر مسار آخر لضمان سلامته. من المُرجح أن البروفيسور يحمل خطة بديلة في جُعبته، يجب أن نكون حذرين للغاية».

«وماذا بعدها؟».

«يجب أن أختفي، لم يعد شارع بيكر آمنًا بالنسبة لي، لن أفصح عن مكان وجودي لأي شخص، بمن فيهم أنت يا صديقي العزيز، وبهذا يُمكنك أن تقول بكل صدق إنك لا تعرف أين أنا، وأقترح أن تُرتب لزوجتك رحلة خارج المدينة لبضعة أسابيع. هل هناك أي قريب أو صديق يعيش في الريف؟».

«أفترض هذا...». لقد كرهت فكرة إرسال ماري بعيدًا ولكني كنت أعرف أن هذا لمصلحة الجميع.

«جيد، سوف تكون الأمور مُعقدة قليلًا خلال الأسبوع التالي، ولكن بعدها ستكون لندن مكانًا أفضل وأكثر أمانًا للعيش فيه».

«وما الذي تريدني أن أفعله في هذه الأثناء؟».

«لا شيء، لا شيء على الإطلاق، لا شيء حتى أتواصل معك، وهو ما سأفعله في الوقت المُناسب. في الوقت الحالي نحتاج لإضافة بعض اللمسات لإضفاء المصداقية على قصة اختفائي».

بعد خمس دقائق كنت أقف عند عتبة باب مسكني القديم مُستعدًا للمُغادرة، تصافحنا أنا وهولمز، قبل أن يقول لي: «اعتنِ بنفسك يا صديقي».

«لا أخشى على نفسي أكثر من خشيتي عليك».

ابتسم وأغلق الباب.

قررت أن أسير عائدًا إلى بادينجتون، كان يومًا ربيعيًّا مُشرقًا وأحسست أني بحاجة إلى الهواء المنعش. أردت أن أُرتب الأفكار في عقلي مُحاولًا أن أنظر إلى الأمور من زاوية أوضح، وأنا أسير من أمام بوابات هايد بارك كورنر غارقًا في أفكاري رأيت فجأة ظلًّا طويلًا لشخصٍ يسير بجواري، لقد كان سكولر.

قال لي: «كيف حالك يا دكتور؟ آمل أنك بخير».

كانت الكلمات لطيفة بما يكفي ولكنها كانت خالية من أي عاطفة أو ود.

أجبته بطريقة مماثلة: «أنا بخير».

«والسيد شيرلوك هولمز، هل هو بخير؟ كيف حال ساقه؟ لقد زرته هذا الصباح، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي وقلت: «لقد ذهبت لشارع بيكر لرؤيته ولكنه لم يكن هناك».

ضيق سكولر عينيه وهو يكرر كلماتي: «لم يكن هناك؟».

«لقد رحل».

«إلى أين؟».

«لا أعرف، لقد كانت هناك رسالة في انتظاري». ثم ناولته المظروف الذي أعطاه هولمز لي.

أخذه سكولر بقسوة ثم أخرج الرسالة وقرأها بصوتٍ عالٍ: «واطسون: لم تعد لندن آمنة بالنسبة لي، لذا قررت أن أرحل بعيدًا لفترة غير مُحددة، لن تراني لبعض الوقت، تحياتي إلى السيدة واطسون. المُخلص، شيرلوك هولمز».

صرخ سكولر في غضب وكاد أن يُمزق الرسالة ثم قال: «هذه خُدعة ما».

هززت رأسي مُتصنعًا الجهل وقلت: «لم يعد هولمز يثق بي كسابق عهده منذ زواجي، لا أستطيع أخذ الرسالة سوى على معناها الظاهري، ليس لديَّ أدنى فكرة عن موضعه أو عن خططه».

«جيد جدًّا، سوف أحتفظ بهذه الرسالة، لا شكَّ أن البروفيسور سيجد أن محتوياتها مُثيرة للاهتمام. تذكَّر يا واطسون أين يكمن ولاؤك ومن الذي تعتمد عليه حياتك. لو تواصل شيرلوك هولمز معك لأي سبب فيجب عليك أن تبلغنا على الفور، هل هذا مفهوم؟».

«بالطبع».

قال بهدوء: «جيد». ثم خطا للوراء واختلط بزحام المارة على الرصيف، وفي غضون ثوانٍ اختفى عن نظري.

نزعت قبعتي ومسحت جبيني بمنديلي. إن موريارتي ذكي بما يكفي ليعرف أن الرسالة محاولة للتضليل، إنه يعرف أن هولمز لن يُغادر المدينة في هذا الوقت الحرج، سيُرسل البورفيسور كلابه في أعقاب صديقي. لم يكن شيرلوك هولمز مُعرضًا لمثل هذا الخطر من قبل.

وضعت السيدة هودسون الغلّاية على الموقد وقالت: «هل ستتناول الشاي معي يا سيد سكولر؟».

ولكن ضيفها هزَّ رأسه وقال بتهذيب يخلو من الودية: «مرة أخرى ربما، أُريد فقط أن أعرف.. البروفيسور يريد أن يعرف أين شيرلوك هولمز».

مسحت السيدة هودسون يديها في مئزرها ثم جلست في كرسيها المُفضل بجانب المدفأة وابتسمت قائلة: «أنا لا أعرف، نادرًا ما كان يسر إليَّ بأي شيء في الماضي، ولكن مؤخرًا أعتقد أنه من الممكن أن يُعطي درسًا أو اثنين في الصمت».

ضحكت على نكتتها الخاصة، ولكن نظرة سكولر المعترضة جعلتها تتوقف عن الضحك.

«متى كانت آخر مرة رأيتِه فيها؟».

«لست واثقة، وهذه هي الحقيقة، لقد صار مُعتادًا على ارتداء مُختلف أنواع الشعر المستعار والأنوف المزيفة وكل أشكال التنكر، لذا لم أعد واثقة إن كان هذا هو مُتنكرًا أم أنه أحد زواره. لم أُقدم له أيَّ وجبة منذ أكثر من أسبوع».

تنهَّد سكولر في نفاد صبر فأكملت: «لقد جاء دكتور واطسون هذا الصباح، لذا افترضت أنه في البيت حينها، ولكن واطسون مرَّ لرؤيتي أثناء خروجي وقال إنه قد انتظر صديقه بلا فائدة، لقد كانت هناك رسالة تقول إنه قد رحل لبضعة أسابيع، ولكنها لا تُحدد إلى أين».

قال سكولر: «لقد قرأت الرسالة، إنها مُناسبة بشكلٍ كبير، مما يجعلها غير حقيقية. وعلى الأرجح خدعة لجعلنا نعتقد أنه هرب».

هزَّت السيدة هودسون رأسها، لم تكن تعرف ما الذي يعنيه سكولر، ثم قالت: «يُمكنك أن تصعد وتنظر في شقته إذا أردت».

قال بحدة في نفاد صبر: «أنا أعرف هذا، وسأفعله في القريب العاجل، في تلك الأثناء إذا رأيت أي أثر لهولمز أو أي شخص قد يكون هولمز فيجب أن تُخبري البروفيسور على الفور. على الفور، هل هذا مفهوم؟».

أومأت السيدة هودسون برأسها، كانت تعرف أن هذا أمرٌ، مما أثار استياءها. لقد صارت مُعجبة كثيرًا بساكنها غريب الأطوار مُتقلب المزاج، ولم ترغب في أن يلحق به أي ضرر، ولكن لم يكن لديها أي خيار في المسألة، ليس هو من يدفع راتبها.

قال سكولر وهو يرتدي قفازه: «جيد، سوف أزورك مُجددًا هذا المساء بعد حلول الظلام لأُفتش شقة هولمز، ثم بعدها أخشى أنني مُضطر لبدء حريق صغير».

«أوه، ربَّاه، لا! أنت لن تحرق بيتي الجميل؟».

«ليس إلى هذا الحد، أؤكد لكِ، مُجرد حريق صغير في شقة هولمز سوف يُدمر ملفاته وتسجيلاته ويجعل المكان غير صالح للسكن، سوف يكون بيتك بأمان».

سألته السيدة هودسون في عبوس: «كيف يُمكنك أن تكون واثقًا من هذا؟».

ابتسم سكولر لأول مرة منذ وصوله وقال: «لا يُمكنني».

***

احتاج الأمر إلى قدر كبير من الإلحاح لإقناع ماري بأن تقوم برحلة مُفاجئة إلى عمتها في إكستر. كانت تعرف بشكلٍ غريزي أن هناك خطبًا ما، وأن الأمر مُتعلق بشيرلوك هولمز.

سألتني وهي تحدق إليَّ بعينيها الزرقاوين: «هل أنت معرض لأي خطر؟».

بعد سنوات من التظاهر صار الكذب سهلًا بالنسبة لي، ولكن ليس عندما أتعامل مع ماري، كنت أكره إخبارها بأي شيء غير الحقيقة، ولكنني كنت مُضطرًا لهذا، لا أعتقد أنها صدَّقتني عندما أخبرتها أنه لا يوجد شيء لتقلق حياله، ولكن في الوقت ذاته أحسست أنها تعرف أن ما أطلب منها فعله هو لمصلحتها.

هذا المساء حزمت حقائبها وأرسلت أنا برقية إلى إكستر لأُخبر عمَّة ماري بقدومها. باكرًا في الصباح التالي أوصلت ماري إلى محطة بادينجتون. لم أشعر –منذ أن كنت في تلك الزنزانة المتعفنة في قندهار- بمثل هذا البؤس والوحدة كما أحسست والقطار يشق طريقه بصوتٍ مُرتفع مُبتعدًا عن

المحطة وماري تنظر من نافذة العربة وتلوح لي بيدها مودعة. باختفاء هولمز ورحيل ماري لم يكن لديَّ أيُّ شخصٍ لألجأ إليه.

وأنا أشق طريقي عائدًا عبر الرصيف سمعت صوتًا يهمس في أُذني: «لقد ذهبت زوجتك الجميلة في رحلة إذن، أليس كذلك؟».

التفت لأرى رجلًا نحيلًا بوجهٍ كالفأر يرتدي حُلَّة بُنية مُخططة يبتسم لي، ثم رفع قبعته بتحية مُهذبة ساخرة وقال: «البروفيسور يُرسل تحياته، ألا يوجد أيُّ أخبار عن شيرلوك هولمز؟».

هززت رأسي وقلت: «لا أخبار». كان هذا هو كل ما استطعت قوله.

«وماذا عن زوجتك؟».

«لقد ذهبت ماري لزيارة عمَّتها، إنها ليست في حالة جيدة مؤخرًا».

«تركتك وحدك، أليس كذلك؟ حسنًا، لا بأس يا دكتور، نحن بالقرب منك دومًا، سنبقى على تواصل».

بابتسامة مُستفزة رفع قُبعته مُجددًا ثم سار مُبتعدًا.

وقفت مُتجمدًا في موضعي وأنا أُحدق إلى زحام المارَّة من حولي؛ كم واحد منهم هو أحد رجال البروفيسور؟ ما الذي يُمكنني أن أفعله؟ كيف يُمكنني أن أتصرف إن كنت تحت مجهر هذا الشيطان طيلة الوقت؟

أكملت طريقي عبر الرصيف باكتئاب شديد وأنا أُفكر فيما اعتبرته مستقبلًا قاتمًا للغاية. حينها رأيت الجريدة على لوحة الإعلانات بجانب كشك الجرائد، كان العنوان الرئيسي يقول: حريق في مسكن شيرلوك هولمز.

بمهارة شديدة تسلَّق شيرلوك هولمز أنبوب الصرف في مؤخرة البيت رقم ٢٢١ب بشارع بيكر كما فعل مرات عديدة في الشهر السابق، كان لا يزال رشيقًا للغاية رُغم ساقه المصابة، وبدون أي مشكلات وصل سريعًا إلى نافذة غُرفة نومه. رفع النافذة واستطاع أن يتسلل إلى الداخل، على الفور اقتحمت الأبخرة الحارقة أنفه ووصلت إلى مؤخرة حلقه فكبح رغبته في السعال.

كانت جدران الغُرفة محترقة بفعل النيران ومسودة بفعل الدخان، كان السرير والمرتبة قد تحوَّلا إلى كومة من الحطام والسخام. كانت الأرض رطبة وزلقة، لقد قرأ في الجريدة أن شرطة الإطفاء قد وصلت في الوقت المناسب لمنع انتشار النيران، وأنه لم يكن هناك أي ضرر داخلي إلا في الطابق العلوي، ومع ذلك فإن كل ما فشلت النيران في تدميره فقد أكملت المياه المهمة.

ببطء انتقل هولمز إلى غُرفة الجلوس، فجعله المشهد الذي رآه يشهق، كان هذا المكان المحترق يُشبه بالكاد مسكنه المريح السابق، كان الأثاث قد تحوَّل إلى رقائق متفحمة، ولا شك أن هذه الأكوام من الرماد التي كُنست إلى جانب الغُرفة هي كتبه وملفاته ومذكرات قضاياه. كان شيرلوك هولمز أبعد ما يكون عن العاطفة، ولكن في هذه اللحظة أحسَّ بموجة طاغية من الحزن تجتاحه، لم يكن ما أثار حُزنه هو خسارة الأشياء المادية؛ ملفاته ومذكراته، بل كان تدمير العالم الأقرب له، و-إن كان صادقًا مع نفسه- الذكريات الدافئة التي ولدت هنا، وخصيصًا هذه التي تشاركها مع واطسون.

وجدت نسمة هواء عابرة مدخلًا عبر النوافذ المحطمة فأثارت سحابة من البقايا المتفحمة الدقيقة، فتخللت الهواء كسحابة من الحشرات الصغيرة، ومُجددًا وجد هولمز نفسه يضع منديله على فمه من أجل أن يكبح نوبة من السعال. وحينها فجأة تحفَّزت أعصابه وشُحذت حواسه وأدرك أنه ليس وحده، هناك شخص آخر معه في الغرفة. بشكلٍ غريزي مدَّ يده إلى جيب معطفه ليُمسك بمسدسه، ولكن قبل أن تستطيع أصابعه أن تُمسك بالمقبض سمع صوتًا يُخاطبه من الظلال بالقُرب من الباب:

«اترك المسدس حيث هو يا شيرلوك هولمز».

لم يتحرك هولمز.

جاء الصوت مُجددًا: «أنا لا أمزح، أبعد يدك عن مسدسك وضع ذراعيك على جانبيك وإلا فسأفجر رأسك».

لقد قابل هولمز الكثير من المجرمين في حياته، وكان يعرف إن كان تهديدهم أجوف أم حقيقيًّا، لقد كان هذا الرجل جادًّا تمامًا. سحب يده من جيب معطفه تاركًا المسدس في موضعه كما قيل له.

خطا الرجل خارجًا من الظلال وقد سقط شعاع من ضوء الصباح من النافذة على وجهه، تعرَّف المُحقق على الرجل على الفور، لقد كان سكولر؛ واحدٌ من أكثر مساعدي البروفيسور قسوة. كان يبتسم ومسدسه مصوب ناحية هولمز.

قال سكولر وابتسامته تتسع: «كنت أعرف أنك ستأتي، كنت أعرف أنك لن تستطيع مقاومة الرغبة في العودة إلى هنا لتفحص الضرر ورؤية ما تستطيع إنقاذه من ملفاتك، وأنت لم تُخيب ظني».

«إذن فقد كان هذا صنيعك، أليس كذلك؟».

«بلى، وأنا فخور للغاية بما فعلته، يُمكنني أن أؤكد لك أنه لا توجد ورقة واحدة سليمة في المكان بأكمله، لقد فتَّشت المكان جيدًا قبل أن أُشعل النار فيه، كل المستندات المتعلقة بالبروفيسور قد أُخذت بعيدًا ودُمِّرت بشكلٍ منفصل».

«يا لها من دقة شديدة».

تلاشت ابتسامته وهو يقول: «نحن دقيقون للغاية يا هولمز، من المفترض أنك تعرف ذلك. بالنسبة لرجل بمثل ذكائك ومهارتك فأنت كنت غبيًّا حقًّا، عنيدًا. كان يجب عليك أن تعرف أنك إن أردت أن تحشر أنفك في شؤون البروفيسور فإنك لن تخسر أنفك فقط، كان يجب أن تعرف أنك ستخسر حياتك».

قال هولمز بلباقة وعيناه مركزتان على مسدس سكولر، الذي كان مصوبًا ناحية قلبه: «كنت أُدرك هذه الاحتمالية، ولكن من دون المخاطرة لن يربح المرء أيَّ شيء».

«كان يجب أن ينتهي أمرك منذ وقتٍ طويل، لقد حثثت البروفيسور على هذا، ولكنه كان يفضل أن يلعب معك لعبة القط والفأر، ولكن هذا قد انتهى

الآن. لقد تماديت كثيرًا هذه المرة».

«هل تعني مسألة بيضة الفيل؟ لقد أُلقي القبض على ربيد والياقوتة في أمان، أليس كذلك؟».

«كان يجب عليك أن تتخلى عن الأمر يا سيد هولمز، كان يجب عليك هذا حقًّا».

«ليس من طبيعتي أن أستسلم، لقد كانت معركة طويلة ولكنها ستنتهي بنجاح».

خطا سكولر خطوة للأمام وهو يتفحص مسدسه ثم قال: «ليس بالنسبة لك يا سيد هولمز».

«أخشى أن قتلي لن يغير النتيجة الآن، يُسعدني أن أُضحي بحياتي وأنا مُطمئن من دمار منظمة موريارتي في نهاية المطاف وإلقاء القبض على شخصياتها القيادية، من بينهم أنت والبروفيسور بالطبع. يسرني أن أُفكر أنني كنت قادرًا على تحرير المجتمع من أي أثر آخر لوجوده. على أي حال لقد صارت مهنتي في خطر مع هذه القضية، وكنت أُدرك من البداية أنها قد تنتهي بموتي».

«إذن فأنت أكثر حماقة مما كنت أظن، أن تُضحي بحياتك من أجل اعتقاد واهم بأنك قادر على هزيمة البروفيسور».

«أنت لا تفهم يا سكولر، أنت غارق حتى النخاع في مؤامراتك الإجرامية، حتى أنك لا تستطيع أن ترى الظل المظلم الذي تُلقيه أنت وأمثالك على هذه المدينة، كم أنتم فاسدون وقذرون، كم أن أفعالكم الإجرامية تدمر الخير والأمل في قلوب الناس، الذين تكتظ بهم الشوارع في محاولة لعيش حياة طيبة وبسيطة. إن جرائم السرقة والتزوير والقتل التي ترتكبونها بجشع تُدمرنا جميعًا، الظلم يلطخ كل شيء تلمسونه. أنت وموريارتي وأمثالكما تحملون مرضًا، وباءً من الشر. كيف يُمكن أن أرتاح؟ كيف يُمكن أن أُبالي مقدار ذرة بحياتي وهذا الوباء لا يجد من يردعه؟».

«أنت محق حيال شيء واحد، أنا لا أفهم وجهة نظرك، ولكنني أعرف أنك لن تهزم البروفيسور أبدًا».

«لقد أصابني الضجر من هذه المُحادثة يا سكولر، إن كان لديك مهمة لتؤديها فأرجوك أن تنفذها الآن قبل أن أموت من الملل».

عقد سكولر حاجبيه، لم يستطع أن يُصدق كم يبدو هولمز مُستسلمًا، وهو يعرف أنه على بعد لحظات من الموت، إما أنه شجاع للغاية أو أحمق للغاية. وحقيقة أنه لا يستطيع أن يعرف أيهما هو قد أصابته بالتوتر.

في الحقيقة كان هولمز مُسترخيًا لأنه لا يرى أي مخرج من معضلته، ما قاله لسكولر كان الحقيقة، لقد كان مُستعدًّا للتضحية بحياته ليضمن دمار إمبراطورية موريارتي، لا يخشى المرء من المحتوم بل يتقبَّله. لقد أخذ مُستندات الإدانة الرئيسية من شارع بيكر في اليوم السابق وتركها في مكانٍ آمن لا يعرف بشأنه إلا المحقق باترسون، ما إن تصل هذه المستندات بأمانٍ إلى أيدي سكوتلاند يارد فسوف تبدأ عملية القبض على موريارتي وتفكيك منظمته. كان هولمز يعرف أنه ربما ليس لديه دقائق كثيرة ليحياها، ولكن موريارتي ليس لديه سوى بضعة أيام قبل أن تنتهي لُعبته أيضًا.

«لقد سمعت أنك لست رجلًا متدينًا يا سيد هولمز، هل لديك أي صلوات؟».

«ليس لدي أي صلوات».

هزَّ سكولر كتفيه ثم صوب مسدسه وقال: «الوداع إذن يا سيد هولمز».

تردد دوي رصاصة في الغُرفة المحترقة.

## -٢٨-

## من مذكرات جون هـ. واطسون

برعب شديد قرأت الخبر في الجريدة عن الحريق في شارع بيكر، بدا أن مسكننا القديم قد دمره الحريق، ولكن النيران لم تصل إلى مسكن السيدة هودسون. حمدًا لله أن الخبر قد ذكر أن «المحقق الشخصي الشهير شيرلوك هولمز كان غائبًا عن البيت عندما اندلع الحريق». ولكن كان واضحًا من الخبر أن كل ملفاته الثمينة قد التهمتها النيران. كنت آمل أنه لم يكن هناك أي شيء جوهري يخص موريارتي في الغرفة عندما اندلع الحريق. بالتأكيد أي شيء كهذا سيكون مع هولمز أينما كان. لن يتركه في مثل هذا المكان المُعرَّض للخطر، ولكن الحقيقة أنني لم أكن واثقًا، لو كان الدليل الذي يملكه قد احترق في النيران فقد ضِعْتُ. وأنا أُفكر في هذا الاحتمال شعرتُ بإحساس مُريع يعتصر معدتي.

لا شكَّ أن هذا الحريق قد كان بإيعاز من بروفيسور موريارتي. حسبما أعرف فمن الممكن أن يكون هو من أشعل عود الثقاب، لقد نُحِّيَت كل المجاملات جانبًا الآن، لقد خرج ليقتنص شيرلوك هولمز، خرج ليدمره، ولن يمضي وقت طويل قبل أن يسعى وراءه، لقد انتهى دوري. في خلال أربع وعشرين ساعة تغيَّرت معالم حياتي، ومع ذلك أدركت أنني قد تحرَّرت من أغلالي، لقد تمزَّق العقد، وسيدي الذي يحرك الدُمية قد قطع الخيوط. بشكلٍ غريب أحسست بالابتهاج، رُغم خطر الموت الذي يحدق بي الآن، لقد خسرت مُجددًا سيد مصيري، كنت حُرًّا لأتصرف بشكلٍ مستقل، كنت حرًّا لأكون نفسي.

تذكَّرت فجأة الشجرة الكئيبة اليابسة في أفغانستان التي جلست تحتها، وفي لحظة ضعف وبُمساعدة زجاجة براندي سلَّمت حريتي إلى مستقبل لا يرحم. لقد كان هذا في عالم الأمس الحالم، جزء من حياة أُخرى. الآن وبلُعبة غريبة من القدر استعدت حُريتي واستقلاليتي مرة أُخرى. ولكن كان هناك فارق، فأنا لم أعد جون ووكر، لقد تلاشى في ليل الصحراء البارد، الآن صرت المخلوق الذي قد نُسِجَ من أجلي؛ جون هـ. واطسون. لقد صرت واطسون الموجود في قصصي، والأهم أنني صديق شيرلوك هولمز ونصيره وكاتب سيرته الذاتية.

هذا الإدراك رسم ابتسامة على وجهي، وتلاشى الألم الذي يعتصر معدتي. ألقيت الجريدة جانبًا وأسرعت خارجًا من المحطة، وفي غضون دقائق كنت في عربة أُجرة أشق طريقي.

تردد دوي رصاصة في الغُرفة المحترقة.

استعدَّ شيرلوك هولمز من أجل ألم الرصاصة وهي تخترق لحمه، ولكنه لم يأتِ. ثم أدرك أن سكولر لم يطلق النار من مسدسه، لقد جاءت الطلقة من مكانٍ آخر.

بزمجرة غير مفهومة قطع سكولر بضع خطوات للوراء، وقد ارتسم على وجهه مزيج من المفاجأة والدهشة. صوب مسدسه ناحية هولمز مرة أخرى، ولكن قبل أن يكون قادرًا على جذب الزناد تخلَّت ساقاه عنه وسقط بصمتٍ على الأرض وهوى بوجهه على الحطام المبتل. لاحظ هولمز بقعة من الدماء في منتصف ظهره.

خطا شخص خارجًا من الظلال وهو يُمسك في يده بمسدس يتصاعد منه الدخان، لقد كان واطسون.

قال ببساطة: «لا أُحبذ أن أطلق النار على رجل في ظهره ولكن لم يكن لديَّ أيُّ خيار حقًّا».

صاح هولمز وهو قادر بالكاد على استيعاب الموقف: «واطسون، بحق كل ما هو رائع!».

«لقد استنتجت أن الحريق كان حيلة من موريارتي لاستدراجك كي تعود إلى شارع بيكر، ومن ثم سيكون هناك شخص في انتظارك، في انتظار أن يقتلك. لقد جئت إلى هنا بأسرع ما أستطيع، ولحسن الحظ وصلت في الوقت المناسب».

كان هولمز عاجزًا عن النطق، لم يكن الأمر فقط أنه يجد دومًا صعوبة في التعبير عن امتنانه، ولكن كان هناك شيء مُختلف في أسلوب واطسون قد ألجمه، لقد بدا أكثر اطمئنانًا، أكثر ثقة، وبشكلٍ ما باردًا بعض الشيء، كأنما هناك لمسة من الإنسانية قد تسللت من روحه.

في النهاية خطا هولمز إلى الأمام وأمسك بيد صديقه بحرارة، فأجابه واطسون بالمثل.

قال هولمز: «أنا... أنا لا أستطيع أن أشكرك بما يكفي، لقد أنقذت حياتي، أنقذتها حقًّا».

أجابه واطسون ببساطة: «آمل أنك كنت ستفعل المثل من أجلي».

«بالتأكيد».

لوهلة وقف الرجلان يتصافحان ويبتسمان لأحدهما الآخر.

وأخيرًا ترك واطسون يده وانحنى بجانب جثة سكولر وقال: «حسنًا، لا يوجد مجال للتراجع الآن بكل تأكيد، أنا لست واثقًا من عقوبة قتل واحد من أقرب الرجال إلى البروفيسور، ولكني واثق أنه لن يكون أمرًا لطيفًا، وأنه سيرغب في تنفيذه على أكمل وجه وفي أقرب وقت ممكن». ثم قلب الجثة ونظر إلى وجه سكولر، الذي بادله النظر بنظرة زجاجية مثيرة للأعصاب، قبل أن يقول: «يا للشيطان المسكين».

قال هولمز وقد استعاد طبيعته العملية: «فلتوفر تعاطفك من أجلنا يا واطسون، لقد صارت لندن خطيرة للغاية بالنسبة لنا، يجب أن نذهب بعيدًا حتى تُكمل فرقة باترسون عملها، في غضون أسبوع ستنتهي عصابة موريارتي».

«ماذا تقترح؟».

«هل تود أن تأتي معي إلى خارج البلاد؟ أسبوع في مناخ أجنبي سيفيد صحتنا كثيرًا، هناك قطار سيُغادر محطة فيكتوريا هذا المساء، سيأخذنا إلى دوفر، ما رأيك؟».

«أنا موافق».

«جيد، لقد سمحت لنفسي بالفعل أن أحجز تذكرتين درجة أولى في مقصورة خاصة في العربة ب. فلتقضِ بقية اليوم في جمع قطع من المتاع وبعض الملابس من أجل الرحلة، لا تذهب إلى البيت تحت أي ظرف».

أومأ واطسون برأسه.

«سوف نُغادر من المدخل الخلفي، ليست طريقة خروج لائقة، سنهبط عبر أنبوب الصرف ونقفز من فوق سياج الحديقة. ولكنه أكثر أمانًا من الباب الأمامي. بعدها سنفترق، سوف أراك عند القطار المُحدد في الساعة السادسة هذا المساء، لا تتأخر».

«لن أتأخر».

صمت هولمز قليلًا ثم صافح واطسون مرة أُخرى وقال: «شكرًا لك مُجددًا على كل ما قدَّمته لمُساعدتي يا واطسون، أنت أفضل صديق من الممكن أن يتمناه المرء في وقت الحاجة. لقد اقتربت المسرحية الدرامية من الانتهاء، الفصل الأخير على وشك أن يبدأ، يجب ألا نفقد أعصابنا الآن أو نقلل من يقظتنا. لقد قطعنا معًا طريقًا طويلًا، يجب ألا نفشل في النهاية».

## -٢٩-

## من مذكرات جون هـ. واطسون

كنت أحمل حقيبتي الجديدة، الممتلئة بالملابس التي اشتريتها للتو، والتي آمل أن تكون كافية لإقامتنا المؤقتة خارج البلاد. قطعت طريقي عبر الرصيف ٣ في محطة فيكتوريا مُتجهًا ناحية العربة ب من القطار المتجه إلى دوفر، كما أخبرني شيرلوك هولمز. أحسست بالاضطراب عندما رأيت أن العربة يشغلها بالفعل رجل دين إيطالي وقور، ألقى إليَّ بتحية مقتضبة عندما دخلت، ثم عاد ليولي اهتمامه إلى كتاب صلوات.

وضعت متاعي في الرف العلوي، ثم خطوت عائدًا إلى الرصيف على أمل أن ألمح صديقي. رحت أبحث عبثًا بين مجموعة المسافرين عن جسد شيرلوك هولمز النحيل، لم يكن هناك أي أثر له، أحسست بقشعريرة باردة تزحف على جسدي وأنا أدرك أن غيابه لا يعني إلا شيئًا واحدًا؛ لقد أصابه مكروه ما أثناء النهار، لقد أوقع به موريارتي.

كان عمال القطار يطرقون على الأبواب استعدادًا للمُغادرة، والحارس يستعد بصافرته ليرسل إشارة تشغيل المحرك. عدت إلى العربة على مضض وألقيت بجسدي على المقعد.

«لا تكتئب هكذا يا واطسون، كل شيء يجري حسب الخطة».

التفت في دهشة شديدة، كان رجل الدين العجوز قد أدار وجهه ناحيتي، ولوهلة اختفت التجاعيد وابتعد الأنف عن الذقن، ولم تعد الشفة السفلى بارزة، وتوقف الفم عن التمتمة، واستعادت العينان الخاملتان حيويتهما، واستطال الجسد المنحني. في اللحظة التالية انكمش الجسد مُجددًا واختفى هولمز بسرعة كما ظهر.

صحت: «بحق السماء! لقد أفزعتني!».

ابتسم هولمز وقال: «الحذر لا يزال مطلوبًا، لديَّ سبب يجعلني أعتقد أنهم في أعقابنا». ثم اعتدل واقفًا من مقعده ونظر خارج النافذة وقال: «كما اعتقدت، انظر يا واطسون، انظر».

كان هناك رجلان يركضان عبر الرصيف في محاولة عقيمة للحاق بالقطار المتحرك، تعرفت على كليهما؛ العقيد سباستيان موران، والبروفيسور

جيمس موريارتي. ما إن وصلا إلى نهاية الرصيف حتى اضطرا على مضض أن يقبلا فشلهما في اللحاق بالقطار. وقفا في موضعهما ينظران بوجهين متجهمين إلى القطار وهو يسرع مُبتعدًا.

قال هولمز ضاحكًا: «أفلتنا بشق الأنفس يا واطسون، بشق الأنفس. رُغم كل تدابيرنا الاحترازية إلا أننا نجونا بالكاد كما ترى». ثم انتزع القبعة والرداء الكهنوتي الأسود الذي كان يتنكر فيه ووضعهما في حقيبة متاعه.

أجبته وقد ابتهجت للفكرة: «ولكننا نجونا، وهذا قطار سريع، والسفينة ستتحرك بمجرد وصولنا. أعتقد أننا قد أفلتنا منهما بمهارة شديدة».

أشعل هولمز غليونه قبل أن يجيب: «عزيزي واطسون، ألا تظن لو أنني كنت أنا المُطارِد كنت سأسمح لنفسي أن أخسر بسبب عقبة صغيرة كهذه؟».

هززت رأسي، فأكمل قائلًا: «وكذلك البروفيسور، هذا الرجل يُماثلني في مستوى الذكاء، ولديه نفس العناد في مُطاردته مثلي».

«ماذا سيفعل؟».

«تمامًا ما كنت سأفعله».

«وهو...؟».

«أن يلحق بنا بقطار خاص».

«ولكن هذا سيأخذ بعض الوقت».

«لن يكون وقتًا طويلًا مع علاقات موريارتي وأمواله وقدرته على الإقناع، كما أن قطارنا سيتوقف لبعض الوقت في كانتربيري، وهناك دومًا بعض التأخير عند السفينة، أنا واثق أنه سيلحق بنا هناك».

«ماذا يُمكننا أن نفعل؟».

«يجب أن نترك القطار في كانتربيري».

«وبعدها؟».

«حسنًا، يجب أن نشق طريقنا إلى نيوهيفن، ومن هناك إلى دييب. موريارتي سيفعل مُجددًا ما كنت سأفعله؛ سيكمل رحلته إلى باريس مُتعقبًا حقائبنا، وسينتظر يومين عند المستودع، في هذه الأثناء سنشتري حقيبتين جديدتين ونقطع رحلتنا على مهل إلى سويسرا عبر لوكسمبورج وبازل».

ابتسمت وقلت: «لقد فكرت جيدًا في هذه الخطة الاحتياطية».

قال وهو يرسل سحب الدخان إلى رف المتاع: «بالطبع».

غادرنا القطار في كانتربيري لنكتشف أن علينا الانتظار ساعة قبل أن نستطيع أن نستقل القطار المتجه إلى نيوهيفن.

كنت لا أزال أحدق بأسى إلى العربة التي تحمل حقائب المسافرين وبينها حقيبتي الجلدية الجديدة، التي تحتوي على ملابسي الجديدة التي اشتريتها باكرًا هذا اليوم، عندما جذبني هولمز من كُمِّ قميصي وهو يشير إلى شريط القطار وقال لي: «لقد وصل بالفعل، هل ترى؟».

بعيدًا كان هناك دخان يتصاعد من بين أشجار غابة كينتيش. وبعد دقيقة كان من الممكن رؤية عربة وقاطرة تسرعان عبر المنحنى المفتوح الذي يؤدي إلى المحطة. بالكاد كان لدينا وقت للاختباء وراء كومة من المتاع مهجورة على رصيف المحطة، قبل أن يمر القطار الخاص بقعقعة وزئير، وهو يلفح وجهينا بالهواء الساخن.

قال هولمز ونحن نراقب العربة تتمايل وتهتز على القضبان: «ها قد ذهب، يبدو أن البروفيسور لم يقدرني حق قدري، كانت لتكون براعة شديدة منه إذا استطاع أن يستنتج كيف سأتصرف بمجرد أن أدركت أنه في أعقابنا، ولكنه لم يفعل، هذا يُظهر ضعفًا مُرضيًا للغاية في إستراتيجيته، ومع ذلك السؤال الحيوي الآن هو هل نتناول غداءنا في المطعم هنا أم نُغامر باحتمالية تضورنا جوعًا قبل أن نصل إلى نيوهيفن؟!».

وصلنا إلى بروكسل هذا المساء وقضينا يومين هناك، ثم ذهبنا بعيدًا في اليوم الثالث إلى ستراسبورج. في صباح الإثنين أرسل هولمز برقية إلى المحقق باترسون، وفي المساء وجدنا ردًّا ينتظرنا في فندقنا، ما إن قرأه هولمز حتى راح يسب بصوتٍ عالٍ وهو يمزق البرقية ويُلقي بها في نار المدفأة.

«كان يجب أن أعرف هذا، حمقى عديمو الكفاءة».

نادرًا ما أرى هولمز بمثل هذا الغضب، كانت ملامحه الشاحبة في المعتاد قد اكتست بحمرة الغضب.

سألته: «ما الأمر؟».

«لقد هرب».

«موريارتي؟».

«لقد استطاعوا القبض على العصابة بأكملها ما عدا زعيمها، لقد أفلت من بين أصابعهم. بالطبع عندما غادرت البلدة لم يعد هناك أي شخص بالكفاءة العقلية الكافية للتعامل معه، ولكني ظننت أني قد وضعت اللعبة بأكملها في يدي باترسون، هذا يغير الأمور بالتأكيد، أعتقد أنه من الأفضل لك أن تعود إلى إنجلترا الآن».

«لمَ هذا بحق السماء؟».

«لأنك ستجد مصاحبتي أمرًا في غاية الخطورة. لقد زال نفوذ البروفيسور، سيكون مُعرضًا إلى خطر شديد إذا عاد إلى لندن. إن كنت قد فهمت شخصيته بشكلٍ صحيح فإنه سيُسَخِّر كلَّ ما هو متاح له للانتقام مني، سيكون هلاكي هو غايته في الحياة. أقترح عليك حقًّا أن تعود إلى زوجتك وعملك على الفور».

جلسنا في مطعم في ستراسبورج نناقش المسألة لنصف ساعة، لا يُمكنني أن أهجر صديقي الآن، لقد كان مسؤولًا بشكلٍ غير مباشر عن قطع الأغلال التي تربطني بموريارتي ومنحي حُريتي. كنت أدرك أيضًا أنه ما دام هذا المجرم على قيد الحياة -حتى ولو كان بمفرده الآن- فإنه ما زال يشكِّل خطرًا على هولمز وعليَّ أيضًا. إن كان هولمز مُحقًّا -وأنا أعتقد أنه كذلك- فإن رغبة موريارتي الوحيدة الآن هي أن يدمر هولمز، ولن يمضي وقت طويل قبل أن يتقاطع مساراهما، أنا أريد أن أكون هناك عندما يحدث هذا. في نهاية المطاف أقنعت هولمز أنني سأبقى معه حتى النهاية، مهما كانت.

في نفس الليلة استكملنا رحلتنا متجهين إلى جنيف. لأسبوع رائع صعدنا وادي رون ثم انعطفنا عند ليك وشققنا طريقنا عبر ممر جيمي الذي كان مغطى بالثلج ومن هناك إلى إنترلاكن ثم إلى ميرنجين. لقد كانت رحلة جميلة؛ لون الربيع الجميل الأخضر أسفلنا، ولون الشتاء الأبيض الصافي أعلانا. ولكن كان واضحًا لي أن هولمز لم ينسَ ولو للحظة واحدة الظلَّ الذي

يُخيِّم عليه. في قُرى جبال الألب البسيطة أو في ممرات الجبال المنعزلة كان باستطاعتي أن أعرف من نظرات عينه السريعة وتمحيصه الدقيق في كل وجه يمر بجوارنا أنه مقتنع أننا أينما سرنا لسنا آمنين من الخطر الذي يتعقب خطانا.

ذات مرة ونحن نمر فوق حدود بحيرة دوبانسي الكئيبة انخلعت صخرة كبيرة من منحدر صخري واندفعت لتهوي وراءنا في البحيرة بصوتٍ مرتفع، على الفور أسرع هولمز صاعدًا المنحدر ووقف على قمته وهو يشرئب بعنقه في كل الاتجاهات، حاول مُرشدنا عبثًا أن يؤكد لنا أن سقوط صخرة كهذه أمر شائع في فصل الربيع، لم يقل هولمز شيئًا، ولكنه ابتسم بسخرية كرجلٍ قد رأى تأكيدًا على ما كان يتوقعه.

ومع ذلك رُغم كل ترقبه إلا أنه لم يكن مُكتئبًا أبدًا، على العكس لا أتذكر أنني قد رأيته قط بمثل هذه الروح الجذلة. أثناء سيرنا تحدثنا في مواضيع عديدة، وقد أدهشني هولمز وأمتعني بمعرفته وبصيرته، وكذلك بجهله، أي موضوع لا يحمل أي رابط -مهما كان واهيًا- بالتحقيق والجريمة لم يكن يثير أدنى اهتمام لديه، وهكذا يبقى جاهلًا به. لقد ابتسمت عندما احتج قائلًا إنه لا يستطيع أن يُبالي مقدار ذرة إن كانت الأرض تدور حول القمر أو العكس.

قال بحرارة: «أيًّا كان أيهما صحيحًا فإنه لا يصنع أدنى فارق بالنسبة لي أو لعملي. الأهمية القصوى هي أن تحتفظ في خزانة عقلك فقط بالحقائق الهامة، الحقائق التي يُمكن أن تكون ذات نفعٍ لك، وإلا فإن الحقائق عديمة الجدوى ستزاحم الحقائق المُفيدة».

عند وصولنا إلى قرية ميرنجين الصغيرة نزلنا في فندق إنجلشر هوف، الذي يُديره بيتر شتايلر العجوز. هذا المساء تناولنا العشاء في المطعم الصغير، في البداية تحدثنا قليلًا كأننا قد استنزفنا كل المحادثات التي كانت مُمكنة من دون الإشارة إلى موريارتي. في إحدى اللحظات رفع هولمز كأسه في نخبٍ وقال بشكلٍ رسمي: «نخبك يا عزيزي واطسون، من دونك ومن دون مُساعدتك في تلك الأيام الأخيرة أشك أنني كنت سأحقق هذا النجاح في الإطاحة بمنظمة موريارتي».

أحسست بعاطفة جياشة تجاه كلماته فلم أقدر على الرد، واكتفيت فقط برفع كأسي عرفانًا لشعوره، ثم تناولت رشفة منه.

أكمل هولمز حديثه مُفكِّرًا: «مع هذه القضية أشعر أنني قد وصلت إلى ذروة عملي كمُحقق، أعِتقد أنني قد أقول بلا مُبالغة إنني لم أحيا هباءً، لو أُغلق

سجلي اليوم فسأكون قادرًا على قراءته برضا. إن هواء لندن هو الأطيب لبقائي. في القضايا العديدة التي عملت عليها لا أعتقد أنني قد استخدمت قدراتي ولو لمرة واحدة في الجانب الخاطئ. بالتأكيد أود أن أتوج مهنتي بتدمير أخطر مجرم في لندن وأكثرهم براعة».

كانت كلمة تدمير تحمل نبرة استمتاع مُظلمة.

كان صاحب الفندق يتحدث الإنجليزية بطلاقة، فقد عمل نادلًا لثلاث سنوات في فندق جروسفينور في لندن، وقد جاء ليتحدث معنا بعد أن أنهينا وجبتنا، كنت مُتعبًا للغاية فاستأذنت منهما وتوجهت إلى فراشي. بدا هولمز سعيدًا للبقاء والحديث مع هِر شتايلر، الذي كان مسرورًا بلا شك لفرصة استخدام إنجليزيته في المُحادثة.

غادرنا في اليوم التالي بنيَّة عبور التلال وقضاء الليلة في قرية روزنلاوي، ولكن هِر شتايلر نصحنا بشدة أننا لا يجب تحت أي ظرف من الظروف أن نتخلى عن فرصة الانعطاف لمسافة قصيرة للمرور بجانب شلال رايشنباخ المذهل.

لقد كان بالفعل مكانًا مُخيفًا، كان التيار المتعاظم بفعل الثلج الذائب يندفع إلى هوة فظيعة، يتصاعد منها الرذاذ كما يتصاعد الدخان من بيتٍ محترق. كان الحوض الذي يتدفق فيه النهر عبارة عن هوة هائلة، تحيط بها صخور سوداء لامعة، وتضيق صانعة حفرة مزبدة ذات عمق لا يمكن تصوره، التي يفيض الماء منها ويندفع من فوق حافتها المتعرجة. كان اندفاع الماء الأخضر يزأر باستمرار لأسفل، والرذاذ يهسهس باستمرار لأعلى، مما يجعل المرء يشعر بالدوار مع الاندفاع والصخب المتواصلين بلا انقطاع.

وقفت أنا وهولمز بالقرب من الحافة في صمت مستغرق، ونحن نطل بعيدًا لأسفل إلى بريق الماء المتكسر على الصخور السوداء، وننصت إلى الصياح شبه البشري الذي يندفع لأعلى مع الرذاذ خارجًا من الهاوية. كان الممر مقطوعًا في منتصفه حول الشلال ليسمح برؤية كاملة، ولكنه ينتهي بشكلٍ مُفاجئ فيضطر السائح للعودة عبر الطريق الذي جاء منه. استدرنا لنفعل هذا عندما رأينا فتًى سويسريًّا يركض عبر الممر ناحيتنا، كان يُمسك بخطابٍ في يده.

صاح بصوت أعلى من زئير الشلال: «دكتور واطسون!». وراح يبدل نظره بيني وبين هولمز.

قلت: «أنا واطسون». فأعطاني الخطاب. كان يحمل شعار إنجلشر هوف، وموجهًا إليَّ من مالك الفندق، اتضح أنه بعد مُغادرتنا بدقائق وصلت سيدة إنجليزية في مراحل متأخرة من السل، كانت قد قضت الشتاء في دافوس بلاتز، وتسافر الآن لتلحق بأصدقائها في لوسرن، عندما انتابتها نوبة نزيف مُفاجئة، يبدو أنها لن تعيش أكثر من بضع ساعات، ولكنه سيكون عزاء كبير لها أن ترى طبيبًا بريطانيًّا! لقد أكَّد هِر شتايلر في حاشية الرسالة أنه سيعتبر استجابتي خدمة عظيمة بما أن السيدة ترفض بشكلٍ قاطع عرضها على طبيب سويسري، وأنه لا يستطيع إلا أنه يشعر إلا أنه يتحملً مسؤولية كبيرة.

قرأ هولمز الخطاب من فوق كتفي ثم قال: «يجب أن تذهب يا صديقي، لا يُمكنك أن ترفض طلب امرأة من بلدك تموت في أرضٍ غريبة».

أحسست أنه محق، ولكني كنت مُترددًا بشأن ترك هولمز، لوح بيده مُعترضًا على قلقي قائلًا: «سوف أبقى هنا لبعض الوقت ثم سأكمل طريقي إلى روزنلاوي، يُمكنك أن تلحق بي هذا المساء في حانة الديك الذهبي».

وافقته الرأي وأرسلت الفتى أمامي ليُخبر شتايلر أنني في طريقي.

تصافحنا أنا وهولمز ثم افترقنا. وأنا أستدير رأيت صديقي وظهره على صخرة وذراعاه مطويتان ويحدق لأسفل إلى اندفاع المياه. كان هناك تعبير حزين للغاية مرتسم على ملامحه.

وأنا أشق طريقي عائدًا عبر الممر تنامى الشك والريبة في عقلي، كيف عرف شتايلر أنني طبيب؟ لم أخبره قط بهذه الحقيقة، في الواقع بالكاد تحدثت إليه بشكل مُباشر، بالطبع من الممكن أن يكون هولمز قد أخبره بهذا، ولكن لأي غرض؟ ما لم... ما لم تكن حيلة لإبعادي.

عندما اقتربت من نهاية المُنحدر نظرت ورائي، كان من المستحيل رؤية الشلال من هذا الموضع، ولكني استطعت أن أرى الممر المُنحني الذي يتعرج عبر التل ويؤدي إليه. عبر هذا الممر رأيت رجلًا يسير مُسرعًا. استطعت أن أرى حدود هيئته السوداء بوضوح على الخلفية الخضراء وراءه. توقفت في موضعي، لم يكن هناك أدنى شك في عقلي أن هذا الرجل هو البروفيسور جيمس موريارتي.

فجأة صار كل شيء واضحًا بالنسبة لي. هذه الرسالة الاستعطافية مُجرد هراء، حيلة بارعة اختلقها هولمز بالتعاون مع بيتر شتايلر، كان الغرض منها استدراجي بعيدًا عن هولمز، بعيدًا عن الخطر، لكي يستطيع صديقي أن

يواجه خصمه بروفيسور جيمس موريارتي وحده. لا شكّ أنه قد عرف أن موريارتي قد اقترب كثيرًا من اللحاق بنا، ربما قد أجرى تحرياته بالفعل في إنجلشر هوف، لا شكَّ أن شتايلر كان باستطاعته تأكيد هذا، أنا أرى الآن أن شيرلوك هولمز كان مُستعدًا للتضحية بحياته لمُقابلة موريارتي وعازمًا على إنقاذ حياتي. موعد بين عقلين عازمين على حافة شلال رايشنباخ الفظيع لا يُمكن أن ينتهي إلا بطريقة واحدة.

بقلبٍ مُضطرب عدت مُسرعًا صاعدًا الممر ناحية الشلال.

أحسَّ هولمز بالارتياح وهو يتَّكئ إلى الصخرة مُحدِّقًا بتأمل إلى مياه شلال رايشنباخ الجامحة. طيلة الأسابيع القليلة الماضية كان عقله ومشاعره مائجين ومُضطربين كالمياه التي تهوي جواره بصخب إلى الهوة المريعة أسفله. ولكن الآن فجأة تبخَّر التوتر والقلق، أحسَّ أنه مُتصالح مع نفسه وقدره. لقد اقتربت نهاية القضية، وقد كان مُستعدًّا لها. كان مُستعدًّا للتضحية بحياته ليضمن تدمير عدوه اللدود، ما إن تقبَّل هذا حتى بدا أن كل اضطرابه الداخلي وقلقه وتوتره قد اختفوا. وأنه قد تصالح أخيرًا مع نفسه. لقد كان يحيا لوقتٍ مستعار على أي حال، لولا واطسون كان سيصير جثة بالفعل؛ برصاصة سكولر في شقة شارع بيكر. لقد أوقع به في تلك المرة على حين غرة دون أي خطة احتياطية، ولكن هذه المرة ستكون مختلفة.

نظر إلى ساعته، كان يعرف أنه لن يحتاج للانتظار طويلًا، ما إن يرى موريارتي واطسون عائدًا إلى ميرنجين فسيظهر على الفور.

بالتزامن مع أفكاره تقريبًا ظهر شخص ما عبر الممر، رجل طويل في عباءة سوداء يسير بنشاط. وهو يقترب بدأ وجهه يصير واضحًا، خفق قلب هولمز، لقد حدث ما استنتجه، لقد كان الرجل الذي يتوقعه، البروفيسور جيمس موريارتي.

فكَّر هولمز أنه رجل وسيم، رُغم أن ملامحه -التي صارت رطبة بفعل رذاذ الشلال- كانت قاسية ووحشية. كانت عيناه المظلمتان تلمعان في انتصار وهو يقترب من المُحقق.

قال البروفيسور: «إذن فقد التقينا أخيرًا يا سيد شيرلوك هولمز».

ابتسم هولمز وقال: «بالفعل، تنتهي الرحلة بلقاء العشاق».

نظر موريارتي إلى أسفل، إلى التيار المتلاطم، وابتسم قائلًا: «لقد اخترت مكانًا مناسبًا لهذا اللقاء التاريخي، أنت تعرف بالطبع أنه لا يمكن أن يكون هناك سوى نهاية واحدة».

«أنت عالم الرياضيات، ولكني قد حسبت أن الأمر قد ينتهي بواحدة من ثلاث نهايات، رُغم أني أؤكد لك أن خياري ينحصر في نهاية من اثنتين».

«من المؤسف أنك كنت عنيدًا للغاية يا سيد هولمز، كان يجب أن تتغاضى عن الأمر كما تعرف، كان سيصير خيارًا أكثر عقلانية بالنسبة لك، وأكثر رحمة بالنسبة لأصدقائك. رُغم ذلك لقد كان من الممتع عقليًّا بالنسبة لي أن أرى الطريقة التي استنتجت بها الأمر برمته، لا أعتقد أنني نفسي كنت سأتعامل مع الأمر بشكلٍ أفضل».

«سأعتبر هذا إطراءً، ولكن الأمر هو أن المرء في مواقف معينة لا يكون له خيار في تصرفاته، لا أقدر على التخلي عن مسعاي إلا بمثل قدرتك أنت على التحليق إلى القمر، إنه جزء متأصل في طبيعتي، أن أسعى وراء المذنبين وأدمرهم، المجرمين في المجتمع المتحضر. أنا مدفوع مثلك تمامًا لتحقيق قدري».

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه موريارتي وقال: «يا لها من خطبة عصماء، حسنًا دعني أُجيب ببساطة بأن أقول إن مبارزتنا كانت ممتعة يا سيد هولمز، لعبة محفزة للعقل، ولكن الآن قد انتهت اللعبة ويجب أن تدفع ثمن خسارتك».

كان هولمز يُراقب حركات البروفيسور بتركيز شديد، وقبل أن يستطيع موريارتي أن يجذب مسدسه من طيات عباءته قفز هولمز للأمام وأمسك بيده، للحظة تصارع الرجلان، موريارتي يُمسك بالمسدس عاليًا في الهواء، وهولمز يُمسك ذراعه بقبضة حديدية ليمنعه من خفضه. وهما يتصارعان كانا ينزلقان على الطين مُقتربين من حافة الممر. بمجهود جبار هزَّ هولمز ذراع موريارتي بعنف شديد حتى أجبره على التخلي عن قبضته على المسدس فحلَّق في الهواء فوق الهاوية قبل أن يختفي بالأسفل في الزبد المتناثر.

في حركة انتقامية أحاط موريارتي بعنق المُحقق بيديه، وأخذ يعتصر بقوة ليحطم قصبته الهوائية، وهو في الوقت ذاته يدفعه ناحية الحافة أكثر وأكثر. أحسَّ هولمز بقدميه تنزلقان على الطين المبتل ووجد قوته تخور، رُغم كل مجهوداته للفكاك من موريارتي إلا أن المُجرم واصل الإمساك به بقبضة وحشية. أمال هولمز رأسه جانبًا في نظرة خاطفة إلى مرجل الماء الذي يغلي أسفله، لقد صار على أقصى حافة الهاوية، قدم أخرى وسيهوي إليها لينتهي أمره في الهاوية المائية.

صاح موريارتي ووجهه متلوٍ بالكراهية وهو يدفع هولمز بكل ما لديه من قوة: «وداعًا يا سيد شيرلوك هولمز، وداعًا».

## -٣١-

## من مذكرات جون هـ. واطسون

عندما وصلت إلى الممر الذي يدور حول شلال رايشنباخ رأيت هولمز يتحدث مع الغريب المتشح بالسواد الذي رأيته من بعيد، الغريب الذي لم يكن لديَّ أدنى شك أنه البروفيسور موريارتي. لقد ثبت أن إحساسنا أنا وصديقي أثناء رحلتنا بأن هناك من يتعقب خطانا كان حقيقيًّا، والآن قد لحق عدو هولمز أخيرًا به.

كنت أتسلل ببطء دون أن أبتعد عن الصخور لكيلا يلمحني موريارتي. رُغم أنني لم أكن أستطيع سماع ما يقولانه لأن هدير الشلال قد طغى على كلماتهما إلا أن كلا الرجلين قد بَدَوَا متحفظين في سلوكهما تجاه أحدهما الآخر. بدا الأمر كأنهما صديقان قديمان قد التقيا بالصدفة ويتبادلان المُجاملات، لا مُقابلة بين عدوين لدودين. لم يفضح حقيقة الموقف إلا وجهاهما الصارمان. وفجأة بدون تحذير قفز هولمز للأمام وانقض على موريارتي، استطعت أن أرى أن البروفيسور قد استل مُسدَّسًا، ولكن لحُسن الحظ أن هولمز استطاع أن يخلصه من قبضته، وبينما هما يتصارعان كانا يقتربان بلا هوادة من حافة الممر، انتزعت مُسدسي من جيب معطفي وأسرعت عبر الممر، ولكن كلا الرجلين كان متشابكًا في صراعه فلم أستطع أن أطلق النار خشية أن أصيب هولمز. عندما وصلت إليهما رأيت أن موريارتي له اليد الطولى، وأنه كان يحاول خنق هولمز، وفي الوقت ذاته يدفعه ناحية الحافة.

لوهلة تجمدت في موضعي في تردد وخوف، ثم تصرفت بشكلٍ غريزي، دون أن أعرف ما كنت أفعله اندفعت للأمام وأمسكت بموريارتي من الخلف وأنا أجذبه معي ناحية الممر. كان هذا التصرف مُباغتًا ومُفاجئًا، حتى أنه قد جذب هولمز معه بشكلٍ تلقائي بعيدًا عن حافة الهاوية. سقط كلا الرجلين على الأرض، ولكن لم يمضِ وقت طويل قبل أن يقفا على أقدامهما مُجددًا. أدرك موريارتي حقيقة الموقف، فظهر شيء يُشبه الخوف في عينيه المُظلمتين الحاقدتين. بشكلٍ غريزي تحركنا أنا وهولمز في وقت واحد، وأمسك كل واحد منَّا بذراع من ذراعي البروفيسور يجذبناه نحو حافة الممر. عندما أدرك موريارتي ما نحن على وشك فعله به اتسعت عيناه في هلع، شعور غريب عليه، وصرخ في رعب، ولكن هدير الشلال ابتلع صرخته. راح يقاوم بعنف وجسده يتلوى وهو يركل في محاولة يائسة لتخليص نفسه من قبضتينا الصارمتين، ولكننا لم نتوانَ عن تنفيذ مهمتنا.

وصلنا به إلى الحافة أخيرًا، وبمجهود متضافر قذفنا أنا وهولمز بالبروفيسور إلى الشلال. انفردت عباءته كجناحين فبدا كمخلوقٍ يُشبه الخفاش الضخم وهو يحلق فوق الهاوية ويحاول عبثًا أن يتشبث بالهواء، كأن مُعجزة ما ستسمح له بأن يتسلق عائدًا إلى اليابسة. بدا كأنه قد تعلّق لوهلة في الهواء قبل أن يهوي ببطء مُختفيًا عن أنظارنا، والرذاذ المتصاعد يُغلفه كالكفن. لقد اختفى من أنظارنا، اختفى من حياتنا، لقد ابتلعه التيار المتدفق لشلال رايشنباخ.

تراجعنا أنا وهولمز بعيدًا عن الهاوية المُخيفة وحدقنا إلى الهاوية المُضطربة لما بدا أنه دهر من الزمن. ثم بشكلٍ غريب وفي نفس الوقت أيضًا انفجرنا في الضحك. كان ضحكًا غير متزن وغير طبيعي، لقد كان ضحكًا للإحساس بالتحرر والإحساس بالذنب. إرتجف جسدانا في مرح هيستيري وسالت الدموع على وجهينا. عندما فكّرت لاحقًا في هذه اللحظة حاولت أن أحلل مشاعري ولمَ تصرفت بهذه الطريقة في مثل هذه اللحظة المُظلمة، ولكن التجربة كانت فريدة من نوعها وكان من الصعب عليَّ حقًّا أن أجد مرجعًا شعوريًّا لها. لا شكَّ أن هناك عبئًا قد انزاح عن حياتي وحياة صديقي العزيز، وأننا قد استطعنا معًا أن تُخلص المجتمع من أكثر طفيلياته خُبثًا، ولكننا بفعل هذا قد لجأنا إلى تطبيق القانون بأيدينا، لقد بعدنا نحن أنفسنا عن طريق الحق. لا شكَّ أن هذه المشاعر المتعارضة هي ما أدت إلى هذا الضحك غير الطبيعي، ولكني واثق أن هناك عناصر أُخرى قد شاركت في الأمر أكثر تعقيدًا مما أستطيع شرحه.

بعد مرور بعض الوقت لذنا بالصمت وأعيننا لا تزال متعلقة بالتيار المتدفق لشلال رايشنباخ. كان هولمز هو من أعادنا أخيرًا إلى حالة طبيعية، لقد قال بطريقته العملية المُعتادة: «يجب أن نفترق الآن، لقد حقّقنا هدفنا ولكن على حساب أنفسنا وضميرنا، سيكون من الأفضل -لبعض الوقت على الأقل- لو صدق الناس أنني وموريارتي قد هلكنا معًا في الشلال. يُمكنك أن تكتب أن هذا ما حدث، وبهذا تُبرئ نفسك من أي مسؤولية عن مقتل المُجرم...».

رفع يده بطريقة قاطعة وأنا أُحاول أن أُقاطعه.

«أنا أحتاج لراحة من عالم الجريمة يا واطسون، لن يكون هناك أي تحدٍّ حقيقي الآن، فبعد كل شيء، من يُمكن أن تُقارنه بموريارتي؟ أنا أُريد أن أبتعد لبعض الوقت عن ثرثرة الزبائن المكروبين، سوف أُسافر وأدرس وأتعلم. سوف تعود إلى لندن وتُخبرهم بموتي، ثم تواصل حياتك، في الوقت المناسب عندما ينقشع الغبار وأشعر بالحاجة إلى العودة إلى لندن الضبابية

الرطبة وشارع بيكر فسوف أعود. حسنًا ربما أعود، المستقبل ليس أكيدًا، وهذا يُعجبني».

«لقد خططت لكل هذا».

«أجل، قدر ما أستطيع. كنت أعرف أنني إن كنت قادرًا على تدمير موريارتي والنجاة فسأشعر بالحرية أخيرًا لمحاولة تحقيق بعض رغباتي الخاصة، أن أوسع من نطاق معارفي. عندما أشعر أنني قد ازددت حكمة وحققت أحلامي فمن الممكن أن أحمل عدستي مُجددًا وأُحقق في عمل العقل الإجرامي. الآن اذهب؛ اذهب إلى إنجلشر هوف وأبلغهم بالأخبار السيئة».

«وماذا عنك؟».

«أنا سأختفي، لا تسألني أين سأذهب لأني لا أُريد أن أكذب عليك».

أحسست بغُصَّة في حلقي؛ فها هو الرجل الذي خدعته، أو الذي ظننت أنني خدعته، لا يزال يتقبلني كصديق، والآن وقد حُسِمَت صداقتنا بشكلٍ قاطع بأكثر عمل فظيع كان على وشك أن يختفي من حياتي إلى الأبد. اجتاحني حزن عميق.

ابتسم هولمز مُشفقًا وقال: «لا تكتئب يا عزيزي واطسون، أنا واثق من أننا سنلتقي مُجددًا، ولكن الآن اذهب، اذهب ولا تنظر وراءك».

فعلت كما طلب مني.

## مقتطف من «المشكلة الأخيرة»

## بقلم جون هـ. واطسون

نُشرت لأول مرة في مجلة ستراند سنة ١٨٩٣

لم يترك فحص الخبراء أدنى شك في أن الصراع الشخصي بين الرجلين قد انتهى -كما ينتهي عادة في مثل هذه المواقف- بسقوط الرجلين من فوق الحافة وهما متشبثان أحدهما بالآخر. باءت كل محاولات استرجاع الجثتين بالفشل. وهنالك في عُمق هذه الهاوية المتلاطمة المزبدة سوف يرقد إلى الأبد أخطر مُجرم وأبرز بطل للعدالة في عصرهما.

لم يظهر الفتى السويسري مُجددًا وليس هناك أدنى شك من أنه واحد من رجال موريارتي العديدين الذين يأتمرون بأمره. أما بالنسبة للعصابة فسوف يتذكر الناس كيف استطاع هولمز أن يجمع دليلًا لا يدحض ليفضح منظمتهم، وكيف هوت يد الراحل بثقل عليهم. أمَّا عن زعيمهم الفظيع فهناك تفاصيل قليلة قد ذُكِرَت أثناء التحقيق، وإن كنت قد اضطررت الآن إلى أن أشهد شهادة واضحة عن طبيعة عمله إلا أن الفضل في القضاء عليه يعود إلى البطل الطائش الذي قد هجم عليه، هذا الرجل الذي أعده أفضل وأحكم الرجال الذين عرفتهم.

## خاتمة

عاد واطسون إلى لندن حاملًا معه قصة موت شيرلوك هولمز مع البروفيسور جيمس موريارتي عند شلال رايشنباخ. لقد اجتمع مُجددًا مع زوجته الحبيبة ماري، وسُرعان ما استأنف عمله كطبيب. رُغم أنه قد عاد إلى الحياة الزوجية بسهولة نسبية بعد تجربته المُظلمة إلا أنه قد كان هناك دومًا رُكن فارغ في قلبه الآن بعدما لم يعد هولمز وعمل التحقيق جزءًا من حياته. لقد عاش مُجددًا مُغامراته في القصص التي نشرها في مجلة ستراند، ولكنها لم تكن تمامًا كالحقيقة.

كان واطسون يأمل أن يتواصل معه هولمز بعد بعض الوقت، ولكن لم يكن هناك أي أخبار من صديقه. لقد اختفت السيدة هودسون، ولكن مايكروفت احتفظ بشقة أخيه كسكنٍ ثانٍ له. كان مايكروفت مُطمئنًا لمعرفة أنه الوحيد من عصابة موريارتي الذي قد استطاع الهرب. لا أحد ولا حتى أخاه المُحقق قد عرف أو شك في تورطه مع نابليون الجريمة.

أظلمت حياة واطسون أكثر في الشتاء التالي عندما أُصيبت ماري بالتهاب رئوي وماتت بعد يومين من الكريسماس، اعتبر واطسون أن هذه الضربة نوع من العقاب الإلهي على أخطائه ومحاولاته للخداع في الماضي.

ذات يوم بعد ثلاثة أعوام من حادثة رايشنباخ دخل بائع كتب عجوز إلى عيادته، وما إن أزال بائع الكتب تنكره حتى أظهر هيئته المألوفة لدكتور جون هـ. واطسون.

لقد عاد شيرلوك هولمز.




كيان للنشر والتوزيع

للتواصل معنا :

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

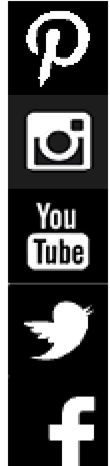
وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01000405450 /01001872290

وللاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية

يمكنكم متابعتنا على الروابط التالية:





Kayanpublishing